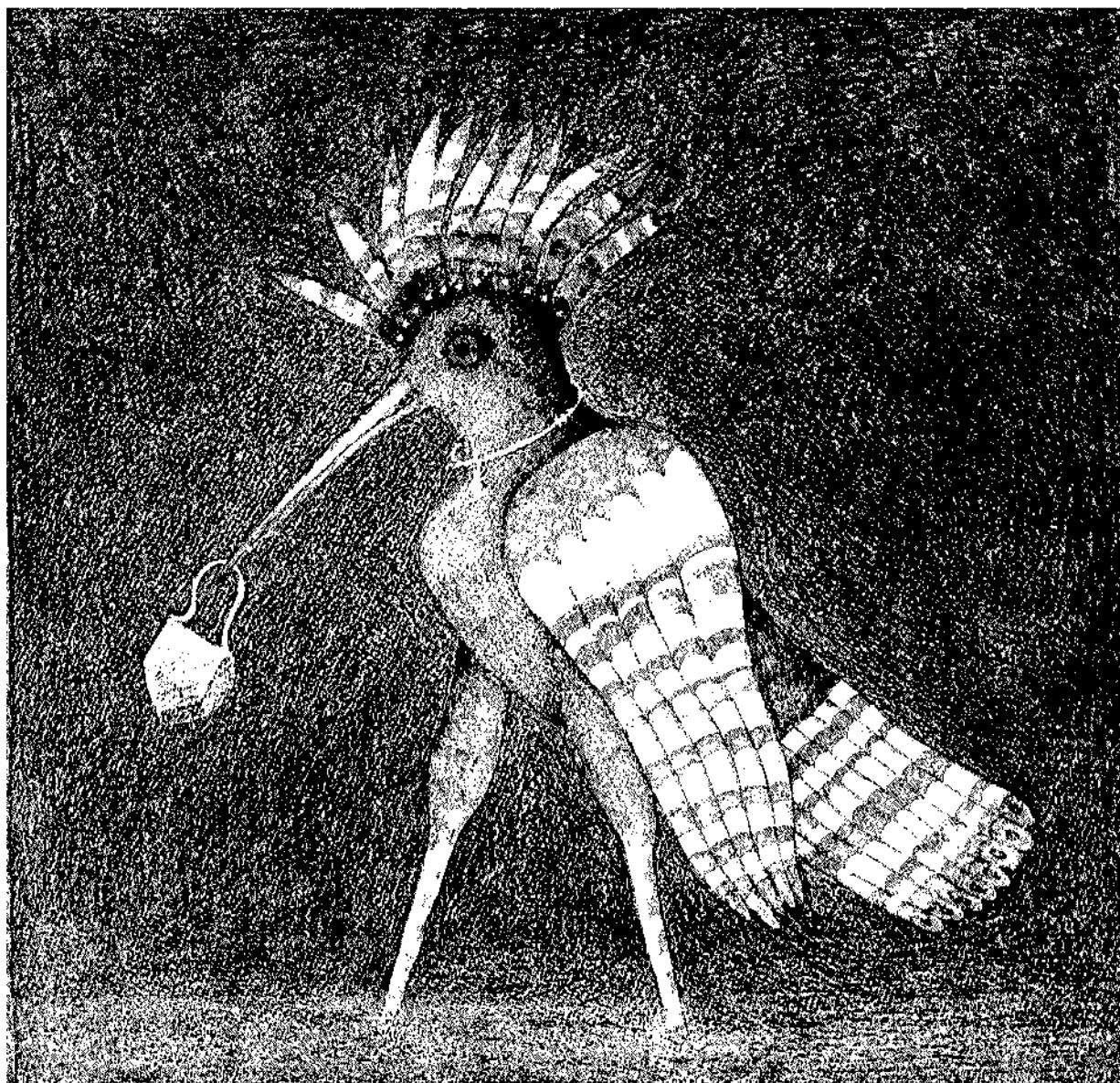


بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

لِوَاللّٰهِ الْكَبِيرِ
الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ

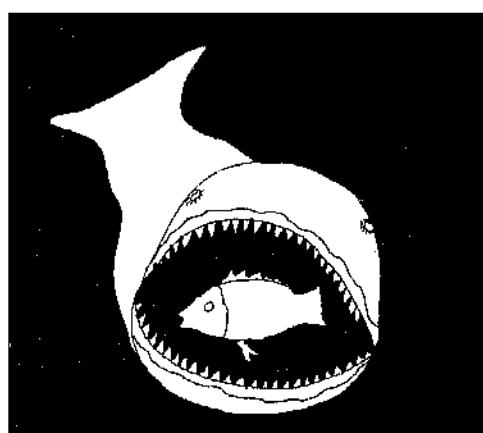
فَصَدَقَ الْجَوَادُ فِي الْقُرْآنِ



دار الشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قصص الحيوان في القرآن



أحمد بن حبيب

الطبعة الثانية
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

الطبعة الثالثة
١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

الطبعة الرابعة
١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

جامعة جنوب الوادي

© دار الشروق

أنتسابها محمد المعتمد عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سبورة المصري - رابطة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البالونراي - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧
فاكس : ٨١٧٧٩٥ - ٠١ (٨١٧٧٩٥)

قصص الحيوان في القرن

أحمد نجت

دارالشرف

لوحات
ایله سازی شیش کفر

إهْلَكَلَاء

إِلَيْكَ
أُمِّيْ

رَحْمَهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ وَرَحْمَةً

احمد حبيب



المقدمة

يقدم لنا القرآن الكريم في قصص الأنبياء والأولياء مجموعة من الحيوان الذي لعب دوراً في التاريخ.

الغراب الذي بعثه الله لابن آدم ليりه كيف يوارى سوأة أخيه.

الطير التي ذبحها إبراهيم وفرقها على قمم الجبال، وبعثها الله من الموت.

بقرة بني إسرائيل التي أمر موسى بذبحها لكشف جريمة قتل غامضة.

الذئب الذي اتهم ظلّماً بالتهم ي يوسف.

هدهد سليمان الذي أطلعه على نبا بلقيس.

دابة الأرض التي أكلت عصا سليمان وهو ميت على كرسيه فخر عليه السلام على وجهه.

حمار عزيز الذي أ Mataه الله مائة عام ثم بعثه أمام عيني صاحبه.

الحوت الذي ابتلع يونس في جوفه زمناً ثم قذفه إلى البر لأنّه كان من المسيحيين.

كلب أهل الكهف الذي نام مع أصحاب الكهف ثلاثة أيام وتسعة سنوات.

نملة سليمان التي نادت على النمل أن يدخل مساكنه حتى لا يمحقّنهم سليمان وجنوده وهم

لا يشعرون.

فيل أبرهة الذي كان مكلفاً بهدم الكعبة ثم سمره الخوف من الله تعالى في مكانه فلم يتقدّم.

وقد ورد ذكر هذه المجموعة من الحيوان في القرآن الكريم، وورد معها ذكر مجموعة أخرى كانت في بعض صورها الظاهرة طيراً أو حيواناً أو نباتاً ولكنها في حقيقتها كانت آية من آيات الله، مثل عصا موسى التي تحولت إلى ثعبان مبين، وطير عيسى الذي صنع منه كهيئة الطير ثم نفح فيه

فصار طيراً بإذن الله، ومثل الطير الأبابيل التي أرسلها الله تعالى على أصحاب الفيل فرمتهم بحجارة من سجيل..

وقد ورد ذكر هذه المجموعة من الحيوان في القرآن الكريم..

وهناك حيوان ورد ذكره في السنن الصحاح.

عنكبوت الغار التي نسجت بيتها على باب الغار الذي اختبأ فيه رسول الله ﷺ.

نحن أمم مجموعة من أفراد المملكة الحيوانية التي لعبت دورها في الحياة وظهرت على مسرح الأحداث فترة ثم أسدل عليها الستار، ذكرها القرآن الكريم مجرد ذكر، أو قصص موقفاً أو أكثر من مواقف حياتها في ومضات سريعة، وبقيت حياتها نفسها غارقة في الغموض.

في طفولي ..

أحببت هذه المجموعة من الحيوان..

كنت أقرأ قصص الأنبياء أو أستمع إليها فلا أستطيع لدائة سني أن التقط قمم المعاني منها، فكنت أكتفي بالتفكير في الحيوان الذي صاحب النبي أو كان في خدمته..

وحين كبرت أكثر.. أخذ حبي للحيوان بعداً آخر.. كل كلب ضال في الطريق هو كلب أريد أن أطعنه وأربضت على رأسه.. من يدرى.. ربما كان حفيداً بعيداً ل الكلب أهل الكهف.. وكل حمار هزيل في الريف هو مخلوق صديق وحبيب، لم لا يكون إبناً بعيداً ل حمار عزيز الذي مرت به تجربة الموت والبعث.

ولقد ظللت طوال شبابي أبحث عن هدهد.. ثم أهدى إلي أحد أصحابي هدهداً نجح في اصطياده.. وصاحت المهددة إلى بيتي وأطلقته في فضاء الغرفة ورحت أتأمله.. كان المهدد منكسر النفس لو صبح هذا التعبير.. كان الأسر وقدان حريته يوشك أن يتجمع دموعاً في عينيه.. وقد مات هذا المهدد في اليوم الثاني بعد أن أضرب عن الطعام والشراب، وأنذكر احساس العميق بالحزن وهو يموت.. لم أكن أعرف ماذا أفعل له وهو يختضر.. وأخرجت القرآن الكريم ورحت أقرأ له قصة سليمان والمهدد.. وأذكر أن المهدد رفع رأسه الجميل والتفت مرة أو مرتين وهو يسمع الآيات ثم أراح رأسه وأسلم الروح.. وخيل إلي أنه مات راضياً ينصلح لأمجاد جده البعيد..

وقد أوقعني حبي للحيوان في مشاكل عديدة..

ما أكثر المرات التي عدت من الطريق وأنا أحمل كلباً صغيراً أو قطاً أجرب إلى أخي..

ويبدأ الصراع بيني وبينهم ويرفض أهلي هذا الضيف الجديد الغريب، وأحاول عيناً أن أقنعهم بأنني سأموط لو تخليت عنه.

كنت زائراً شبه يومي لحديقة الحيوان.

كنت أقف أمام أقفاص الحيوان محاولاً كسر حاجز الصمت الذي تلتف به هذه الخلاائق، محاولاً فهم ما تريد قوله ولا تستطيع نحن التقاطه..

وتقديم العمر بكتاب هذه السطور..

وجاء عليه وقت آمن فيه أن الصدق هو أعظم ما في الوجود من قيم.. ولقد وجد الصدق كمادة خام في الحيوان، مثلما نجد الماس خاماً في الأرض لم يصقل بعد. إن للحيوان نظرة صريحة مستقيمة ثابتة حين ينظر إليك.. نظرة تخلو من الخداع والكذب والمداراة، حتى لو كان الحيوان وحشاً من وحوش الغاب ونظر إليك، فإنك لواحد في عينيه رغبة روحه في التهامك.. لا يدلس عليك أو يخدعك..

هو الصدق الوحشي العاري ذاته.. وذلك صدق لا وجود له بين بني الإنسان.. وإذا كانت وحشية الحيوان صادقة، فإن الله أصدق، ويكانه أعظم صدقاً، أحياناً يبكي الإنسان كجزء من خطة موضوعة.. أما الحيوان إذا بكى.. فذلك هو الألم الصادق الذي يستحيل على أرجاء الكون ألا تهتز له بالتأثير.

وتقديم العمر بكتاب هذه السطور أكثر.

راح حبي للحيوان الذي عاصر الأنبياء ينمو في قلبي يوماً بعد يوم. كان حبي بغير جسد.. لم يكن يمكننا أن نمس هذا الحيوان، واستبدلت بالجسد أحجحة الروح، وقرأت كثيراً عن طباع الحيوان وعاداته.

ومن المدهش، أن القرآن الكريم تنزل منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، وفيه هذه الإشارة السريعة لقصص الحيوان الذي عاصر الأنبياء والأولياء.

ورغم ذلك، فليس هناك كتاب واحد يحكي قصص هذه المجموعة من الحيوان،

لماذا؟ أي سر يكمن وراء هذا التجاهل؟

أرقني السؤال كثيراً.. ثم هديت إلى السر.

أيكون السر أن هذه المجموعة من الحيوان كانت تخدم الأنبياء والأولياء.

لقد حكى قصص الأنبياء والأولياء في عديد من الكتب، ولم يكن يمكننا في قصص جادة وخطيرة، يتعلق بها خلاص الإنسان وأخرته، أن يلتفت أحد هذه الأصوات الضعيفة القريبة من الأرض، أصوات الحيوان، أو يتبع مجرى تفكيرها -لو كان لتفكيرها مجرى- أو يصور لنا دهشتها -لو كان يمكننا أن يدهش الحيوان- وهي تعيش مع الأنبياء وتشهد هذه المعجزات أو تكون هي نفسها جزءاً من المعجزات.. وهكذا ظلمت هذه المجموعة من الحيوان وانطفأت سيرتها الخاصة على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان. وإذا كانت شدة الظهور تلد الخفاء، فقد حدث نفس الشيء هنا.

ومثلما يحدث لنجم الليل حين تظهر الشمس في الصباح.. حدث لهذه المجموعة من الحيوان.. لم تغادر مكانها ولكن ضوءها ذاب في الضوء الأقوى.. ذاب في شموس الأنبياء وعلى سبيل المثال.. لم يعد منها في قصة عزيز الذي أمهاته الله مائة عام مع حماره، ثم بعثه وبعث الحمار أمام عينيه، لم يعد منها في القصة غير النبي عزيز، أما الحمار فمن يلتفت إليه أو يفكر في تأثير التجربة عليه غير حمار من بني جنسه.

أيضاً لم يعد مهماً في قصة يوسف، وقد القى أخوته تبعة اختفائه على أنىاب الذئب.. لم يعد مهماً في القصة غير أحزان يعقوب وأساه على ولده، أما الذئب فمن يهتم ببراءته أو يلتفت إلى أحزانه غير ذئب من بني جنسه..

وما ينطبق على الحمار والذئب ينطبق على الكلب والحوت وبقية الحيوان الذي عاصر الأنبياء.

لقد ظلت تجربة هذه المجموعة سراً صامتاً يبحث عن لسان للتعبير عن نفسه.. ولقد مات سليمان وداود عليهما الصلاة والسلام.. ومات يموتها من كان يعرف منطق الطير ولغة الحيوان ويستطيع التفاهم معها.

أحسب أنني غبطت داود وسليمان كثيراً.

لم أغبط سليمان على الذهب الذي كان يغطي به جدران قصوره، فإني أعلم أن سليمان حين مات لم يصحب معه من هذا الذهب شيئاً، إنما ولد عارياً تقبض أصابعه على الهواء، وعاد إلى الأرض وقد تقبضت أصابعه على الهواء.. ولقد أدرك سليمان قبل أي إنسان آخر أن الذهب خادم للإنسان فالرمه مكانه كخادم، وكان إحساسه به أقل من إحساسه بزنائق الحقول التي تخرج من التراب..

لم أغبط سليمان على تسخير الجن له.. فإني لا أحب أن يكون كل جن الأرض تحت إمرقي..

لم أغبط سليمان على الإسلام، فقد تلقيت الإسلام عن شمس الأنبياء وأول المسلمين وأكملهم..

إنما غبطت سليمان على شيء واحد..

هذه القدرة على فهم لغة الطير والحيوان ومخاطبته..

أن يجلس الإنسان ليحدث هدهداً.. ويأمره فيستجيب، ويناقشه ويستمع..

أن يتنسم الإنسان من كلام نملة تحذر بقية النمل منه..

تلك قدرة تثير دوار العقل والقلب معاً..

على أي حال..

إذا كان داود وسليمان قد ماتا.. فإن الفن باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها..
ليكن الفن لساناً للتعبير عن حياة الحيوان الذي عاصر الأنبياء أو كان في خدمتهم.
ولا بأس أن يستعين الفن بالعلم في الجزء الذي يمس طباع الحيوان وعاداته وسلوكه.. لا
بأس أن يستعين الفن بالخيال في الجزء الذي يمس حياة الحيوان ومشاعره وأفكاره.. أما الجزء
الذي يتصل بقصص الأنبياء.. فتلك حقائق على الفن أن يعني رأسه لها ويأخذها كما هي، بل إن
الفن هنا ليشرف كثيراً حين يصير خادماً يدعوا إلى الله بطريقته الخاصة..

أيقال لنا أن للحيوان غرائز تسيطر، وأنه بلا عقل..

أيقال لنا أن الحيوان مخلوق أبكم ليست له لغة..

إنقسم العلماء قديماً إلى فريقين فيما يتصل بـ يدرك الحيوان ولغته..

فريق يرى أن الحيوان مجرد من الوعي أو العقل من أي نوع.. ورأى هذا الفريق ليس جديداً، وإنما ينحدر من رأي ديكارت.. الذي كان يعتبر مجموع الحيوان مجرد آلات ذاتية الحركة.. أما الفريق الآخر فكان يرى أن الحيوان مهياً بجميع مميزات البشر العقلية.. ويعرف هذا الرأي بمذهب التشبيهية الإنسانية Anthropomorphism. وهو مذهب قديم لم يبدأ مع نظرية دارون عن نشوء واصل الأنواع، بل إلى ما قبل ذلك بكثير..

وقد تأثر كثير من العلماء المشهورين بمذهب التشبيهية الإنسانية هذا.. وكتب العالم الألماني الشهير بريم Brehm صاحب الموسوعة الكبيرة عن حياة الحيوان يقول: «إن للثدييات ذاكرة وذكاء ومزاجاً، وكثيراً ما تكون لها شخصيات فردية محددة، كما يمكنها أن تفرق بين الأشياء وأن تعي الفروق في الزمن والحيز واللون والنغم، كما أنها قادرة على أن تتعرف على الأشياء وتحكم عليها ثم تتعقل، وهي تعرف الأخطار وتفكر في الطرق التي تتجنبها بها، وهي تظهر الحب والكراهية، وتحب الأليف والصغار، وتعبر عن الشكر والولاء، والاحترام والازدراء، والغضب والرقة، والذكر والمهارة، والأمانة والخيانة، والحيوان الماهر يحسب للأشياء حسابها قبل أن يقدم على شيء منها، والحيوان الحساس الشهم يخاطر بحياته وحريته طوعية من أجل خير المجموع الذي يعيش فيه».

هذه كلمات عالم شهير وقف حياته على دراسة الحيوان..

أما لغة الحيوان فقد ثبتت بشكل علمي قاطع.. مع اختلاف مدلول اللغة الإنساني عن مدلول اللغة الحيواني، مثلًا ثبت أن لكل جماعة من الحيوان أسلوبًا للإتصال والتفاهم.. أحياناً بالصوت أو باللمس أو بالرقص أو بالرائحة أو بالإشارة.. المهم أن هناك أسلوبًا للتواصل. صحيح أن العلم لم يخل (بشكل مبدئي ولا نهائي) مفردات هذا الأسلوب.. غير أنه ثبت علمياً أن هناك لغة للحيوان يستخدمها في حياته.. وهي لغة لا تشبه لغتنا البشرية..

هذا الذي أثبته العلم بعد دراسات استغرقت جهد أجيال من العلماء والباحثين..

أثبتته القرآن الكريم منذ ١٤ قرناً من الزمان..

منذ ١٤ قرناً من الزمان.. كان الحيوان يعتبر شيئاً نجسًا لا عقل له ولا منطق ولا لغة ولا قيمة.. اللهم إلا القيمة التي يستفيدها الإنسان منه..

ثم جاء القرآن بنصوص صريحة ثبت أن للحيوان لغته الخاصة، بل وآراءه الخاصة..

تأمل ما قالته النملة لبقية جنسها وهي تحذرهم من سليمان وجندوه..

«قالت ثلة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يمطئنكم سليمان وجندوه وهم لا يشعرون».

إن النملة تحذر أن سليمان يعرف لغتها، وهي تحذر أنه يسمعها ويحسن بها، وهي تفترض

أن جيش سليمان وجندوه سيحطمون النمل وهم لا يشعرون..

إن النملة تستخدم في تعبيرها كلمة «يشعرون».

هذا دليل على أن الشعور شيء يعرفه النمل، وإنما فكيف يستخدم في لغته ما لا يعرف..

ثم تأمل كلام المدهد مع سليمان..

إن المدهد يقول لسليمان كلاماً لا يقوله أعظم الفلاسفة الأدميين العقلاة على الأرض..
إن المدهد لا يعجبه أن قوم ملكة سباً يسجدون للشمس.. وهو يسخر منهم ويسأل
سليمان دهشاً كيف لا يسجدون لله الذي يخرج الخبر في السماوات والأرض..
هذا الذي أتبته القرآن منذ ١٤ قرناً من الرمان، ولم يزل العلم يحاول كشف طرف منه..
هو معجزة تشهد لهذا القرآن بأنه وحى الحق تبارك وتعالى.. كما تشهد للمسلمين القدامى بعظمة
إيمانهم وعمقه، فقد كان التيار السائد على عصرهم أن الحيوان لا ينطق ولا يشعر ولا يعي ولا
يدرك، ثم حدثهم القرآن بعكس ذلك فآمنوا ولم يرتابوا.. وصدقوا بغير طلب للدليل أو بحث
عنه..

إنبعثت نفسي للكتابة عن الحيوان الذي عاصر الأنبياء وكان في خدمتهم ..
قدرأت أساساً أن تكون قصص هذه المجموعة من الحيوان من وجهة نظر الحيوان ذاته
وياسلوب المذكرات.
قلت أستعيير عقوتها وغرايئها وأحزانها واكتب مذكراتها مستهدفاً بكلمة الفنان فان
جوخ.

- حين أرسم زهرة.. أصير أنا الزهرة..
كان شهر رمضان يقترب، وكنت مطالباً بأن أكتب شيئاً لصفحة الدين في الأهرام، وقررت
أن تكون هذه المجموعة من الحيوان ضيوفاً على الصفحة.. لم تكن المهمة يسيرة أو سهلة..
ولكنها كانت ممتعة رغم ذلك..
ربما كان سهلاً أن أتحول إلى كلب أو ذئب.. لكن كيف أصير هدهداً.. وكيف أتشكل في
أهاب الحوت الأبيض الهائل الذي ابتلع يونس..
حيرتني البداية.. ثم هبت نسائم الرحمة الإلهية فهان كل صعب.. وسهل كل عسير..
وذابت الأحجار في قمم الجبال التي عبرها هدهد سليمان أثناء طيرانه وحكت لي قصته.. كما
ارتدت موجات صوت كلب أهل الكهف رموزاً لليلة عميقه تعيد رواية حكايته، وحدثني قوعة
قذفت بها مياه البحر إنها شهدت حفل التسبيح المهيب الذي أقامه يونس في جوف الحوت..
وهربت من القاهرة كلها إلى بيت صديقي محمود لطفي عبد الوهاب في الزقازيق وهناك
عكفت على القراءة والكتابة، وكان لا بد أن أنخلع من حياتي اليومية في القاهرة وأخلو تماماً لما
سأكتب..

وقد اعتمدت على قصص القرآن كمرجع فيها يتصل بالجزء الذي يمس الأنبياء من القصة..
 واستقيت معلوماتي عن طباع الحيوان وعاداته من موسوعة المملكة الحيوانية التي ألفها ثمانية من
علماء متحف التاريخ الطبيعي في جامعة واشنطن.. وفيها عدا ذلك أطلقت العنوان للخيال بغير
حدود..

ويقدر ما كانت فترة البحث والقراءة ممتدة وصعبة، كانت الكتابة نهراً من اليسر والسهولة،
وانقذ في عقلي أثناء الكتابة أن كثيراً من الحيوان الذي عاصر الأنبياء كان رمزاً عميقاً لقدرة الله

أو رحمة الله أو رمزاً لأشياء أخرى عديدة.. كان جسد الحيوان جسداً لحيوان وإشارة لشيء آخر..

وحل شهر رمضان وأنا لم أزل أكتب..

وبدأت أنشر في جريدة الأهرام مبتداً بذئب يوسف..

كان ضيق المساحة حائلاً دون نشر القصص كاملة، وهكذا اخترت بعض القصص ونشرتها بعد اختصار يومي كان يجعلني أشد شعري وأصرخ في المطبعة..

وأذكر مثلاً أنه قيل لي وأنا أكتب عن كلب أهل الكهف: اختصر..

فكتبت في نهاية قصة الكلب أقول:

«خيل إلى أننا ندخل باب الكهف من جديد، لننام بحق هذه المرة.. خيل إلى ان «ناهيش» هناك.. في هذا الركن المظلم. لن أحكي ما وقع لنا بعد ذلك.. ربما حكى ذلك يوماً في كتاب.. إنهم يقولون لي إختصر.. ليس عندهم كلام إلا إختصر.. إنني أهواه غاضباً، وأريد أن أحكي.. ولكنني أختصر»..

ومرت شهور..

وجاءني «المختار الإسلامي» يطلب نشر المجموعة في كتاب..

وعدت إلى خلوقى وعكفت على استكمال القصص.

ونشر الكتاب وطبع مرتين، وترجمت قصصه إلى اللغة الفرنسية وأعدتها السيدة نفيسة البقلي للبرنامج الأوروبي في الإذاعة المصرية، وصارت هذه الحلقات جزءاً من الإنتاج المتبادل مع الإذاعة الفرنسية، وقد طارت إلى باريس وأذيعت من الراديو الفرنسي..

وكنت أدرك طوال الوقت أن هناك عملاً بدأته ولم يتم..

لم أكن قد كتبت بقية قصص الحيوان.. وكانت أحلم باستكمالها ونشرها في كتاب ملون بالصور..

ثم فاجاني أن مجلة ميكى رأت صلاحية الكتاب للأطفال فنشرته مع رسومات ملونة للفنان ليهاب شاكر..

وجاء شهر رمضان، وأكملت بقية الكتاب، وهكذا نشر الكتاب على امتداد ثلاثة سنوات في شهر رمضان.. وأثرت أن ينشر في طبعته الأخيرة في دار الشروق بعد أن أقنعني الصديق إبراهيم المعلم..

واعترف للقارئ، إعترافاً صغيراً..

أن متعتي بهذا الكتاب وأنا أكتبه كانت أكبر من متعتي بعد أن فرأته.. وللعلم.. فإني لم أقرأه أبداً بعد أن كتبته.. ولكنني مارست خلال كتابته أعدب شعور يمكن أن يمارسه كاتب.

كنت أحس طوال الوقت أن صفحة هذه المجموعة من الحيوان والخلائق قد طويت من زمان، ولكنني كنت موقناً أن لا شيء يضيع، لا الكلمة ولا الإحساس ولا الصورة ولا الموقف..

يظل كل شيء مختبئاً في قلب الكون وذاكرته، يتحول هذا كله إلى أسرار، المعروف أن البحث عن الأسرار صعب، ولكنني أعترف أن رحلتي لهذه الأسرار كانت ممتعة..
كنت أكتب بسهولة كان أحداً داخلي يهمس لي بكل الأسرار التي تعب هو في البحث عنها وجمعها.

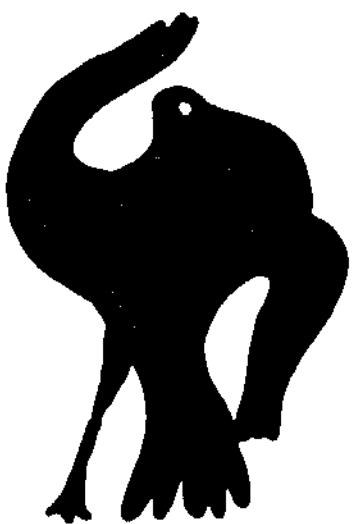
قد يسأل قارئ ..

هل هذا كتاب في الدين أو في الفن أو في العلم.
أحسب أن هذا الكتاب أصلاً كتاب في الفن، إن نسيجه الرئيسي فن.. يعني الاختراع والتخيل والإبداع.. غير أن هذا النسيج الأصلي يتزوج بنسيجين آخرين هما النسيج الديني والنسيج العلمي ..

يبدو النسيج الديني في قصة النبي الذي كان الحيوان في خدمته، وقد أخذت هذا الجزء من القرآن كما أسلفت القول واستعنت فيه بتفسيرات المفسرين للقرآن، كتفسير ابن كثير وقصص الأنبياء وتفسير القرطبي والمدار للقرآن الكريم، وراعيت الالتزام بأحداث القصة الأصلية كما وردت في أرجح التفاسير، ولم أخرج عليها..

ويبدو النسيج العلمي في طباع الحيوان وعاداته التي استقيت من موسوعة علمية.. وقد حرصت أثناء الكتابة على عدم التحرّك بحرية في هذين النسيجين.
أما النسيج الأصلي للكتاب.. فقد تحركت فيه بحرية كاملة، مدركاً أن الفن يمنح الخيال حريته بغير حدود، وهكذا سخرت من ظلم الإنسان لأنبيه الحيوان ما شاعت لي السخرية..
وأخترعت أسماء هذه المجموعة من الحيوان.. وتصورت مواقف سابقة في حياتها قبل التحاقها بخدمة النبي الذي التحقت به.. ولم أكن مقيداً في ذلك إلا بإطار الفن وحده..

احمد جعفر



غَرَابٌ إِبْنِ الْأَمْرَ

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيرِيهِ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ، قَالَ: يَا وَيْلَتَا أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأَوَارِي سَوْأَةَ أَخِي﴾.

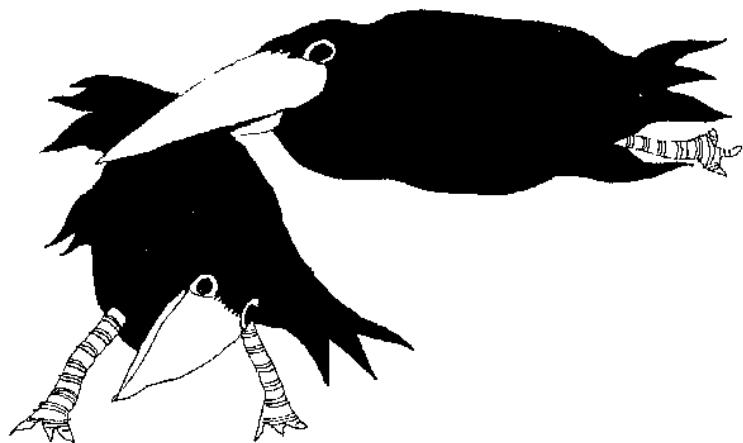
(سورة العنكبوت - آية ٣١)

يشيب على الأرض كل شيء باستثناء ريش الغراب.
من رأى ما رأيناه واحتمل.. لا يشيب منها رأى بعد ذلك.
كمخلوق.. كنت شاهد الإثبات الوحيد في أول جريمة قتل ترتكب على الأرض.. شاهدت
أول دم إنساني يسفك غدرًا، وكنت أعرف أن الله سبحانه يسمع ويرى ويشهد.
كان يوماً قاتل الرعب..
أعرف أن الشيطان هو السبب..
ما أغرب تصرفات الشيطان وما أسهل انتقام أبناء آدم له.
يحب الناس الله ويعصونه، ويكرهون الشيطان ويطيعونه، فما أغرب هذا النوع المسمى
بالإنسان وما أدنى تناقضاته، وما أعظم حلم الله عليه ورحمته به، ثائر أنا قليلاً فمعذرة.
يقول الناس عن الأيام السوداء التي تمر بهم.
ـ كانت أيامًاأسود من ريش الغراب.
أعرف أن لون الغراب الأسود يثير ضيق الناس، رغم أن أعظم الريش سواداً في جسم
الغراب لا يقارب سواد قلب الإنسان إذا اسود قلبه.
أعرف أن الناس يسخرون من مشية الغراب، إنه يحجل أثناء سيره كأي مجنون يمشي على
الجمر، فهو يتواكب ولا يستقر خطوه.
نفترض أن مشيتنا غريبة، ليكن إننا نقفز ونحجل..
أليس هذا أمراً طبيعياً بعد ما رأيناه من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.
كنا نسير قبل خلق الإنسان فنتهادى على الأرض ملوكاً بلوننا الأسود، ومشيتنا القافزة.. ثم
شاهدنا أخي يقتل أخيه فاضطررت مشيتنا من الهول، وورث أبناؤنا عاهتنا وقضى الأمر.



يعتقد الناس ان صوت الغراب بالغ البشاعة.. ولا يكاد أحد من بني جنسنا يصرخ فوق شجرة حتى يتتشاءم الناس..
قد يكون صوتنا أقل في جماله من صوت البلبل.. غير انه لا يمت بصلة إلى الشؤم..
الشؤم كلمة إنسانية تتطابق على تصرفات ابن آدم.
أحياناً يتصرف الإنسان تصرفًا رهيباً، فإذا صرخ غراب فوق شجرة هناك، نسي الإنسان تصرفه وذكر صوت الغراب وتشاءم !!
حيلة قديمة يلجأ إليها ابن آدم.. وليس كابن آدم مخلوق يستطيع أن يخدع نفسه أو يدلس عليها..

يتهم النوع الإنساني جنس الغربان بالسرقة والخطف، وعقوق الوالدين والأهليين.. يقول الناس عنا إننا نسرق الكحل من العين ونسرق الصابون من أسطح المنازل.. ونحن لا نعرف ما هو الكحل أصلًا.. كما إننا لا نستخدم الصابون حين نستحم.. لا نحتاج إليه..
 أجسادنا وأفكارنا في درجة التلوث القصوى لا تحتاج إليه..
أعتذر عن هجتي الحادة..
من رأى ما رأيته ينبغي أن يفقد صوابه..
قاض أنا في دنيا الغربان..
وشاهد على دنيا الناس..
يفقد القاضي عدله وزراحته حين يفقد حيده وأعصابه وينحاز..
وقد لعبت الدورين معاً.. قاضياً كنت في الغربان.. عادلاً كنت ومحفظاً بأعصابي وحيدي..
فلما هبطت للشهادة في دنيا الإنسان انخلع عن تاج القضاة وفقدت أعصابي وصرخت.. ثم بعثني الله لأنقذ ابن آدم درساً في الرحمة..
قلت يومها لقائل ناعياً ناعباً بصوتي الحاد..
- نعرف إنك وحش قاتل..
رغم ذلك فإنك تحب..
رغم إنك إنسان.. يفترض فيه العلم..
جهل يجهل انه جاهل.. جاهل لا يعرف كيف يواري سوأ أخيه..
لم أزل منفعلاً فمعدرة..
أحياناً أفكِر فيها حدث بهدوء وحيدة كالقضاة..
إن الاعتداء جزء من شيمة المخلوقات.. هذا صحيح.. أحياناً يعتدي أحد الغربان على الجماعة.. عتديه تتعقد له محكمة..
من المعروف عن الغربان ان لها محاكم تلتزم قوانين القسط والعدالة..
وتدور هذه المحاكمات عندما يغتصب أحد الغربان عش غراب آخر.. أو يحاول اغتصاب أنثى غراب آخر.. أو يعتدي على طعام الغربان الصغار..



ولكل جريمة من هذه الجرائم عقوبتها الخاصة . .

في حالة اغتصاب العش نكتفي بهدم العش المغتصب ونصرخ مؤندين السارق ونلزمه ببناء عش لمن اغتصب منه العش .

في حالة اغتصاب أنثى غراب آخر ، تقتل الجماعة المعتدي ضرباً بالمناقير .

في حالة اغتصاب طعام الصغار تتصرف الجماعة ريش المعتدي حتى يصبح كالصغار بغير ريش .

وأحياناً يضاف إلى عقوبة التأنيب أو نتف الريش عقوبة الطرد من الجماعة . وتتعقد محاكمة الغربان عادة في أرض فضاء أو حقل واسعة وهناك يتنتظر الذين سبقوا بالحضور بقية جنسهم من تأثر . .

ويستمر الانتظار أياماً وليالى إلى أن يتكامل العدد . .

عندئذٍ ننحي المعتدي ونقيم عليه حراساً وتبداً محاكمةه .

يشرع الباقون في النعييب والنعييق جماعات . .

ويرد المتهم ناعباً ناعقاً . .

ويعاود الشهدود النعييب ويصفقون بأجنحتهم حانقين ثائرين . .

وينعق الغراب المتهم ويصفق بأجنحته هو الآخر . .

ثم ينخفض الجاني جناحيه وينكس رأسه ويمسك عن النعييب . .

هذا اعترافه بالذنب . .

عندئذٍ يصدر حكم القاضي فيثبت الغربان جميعاً على المذنب ويتوسعونه تمزيقاً بالمناقير حتى يموت . .

ثم تنعب الغربان نعيّاً متوايلاً وتطير..

يحمل أحدها القتيل لدفنه ومواراة جثته..

قد يكون الغراب القتيل مذنبًا..

لكن للموت حرمة ينبغي معها إكرام الجسد بدفنه..

وهكذا يعدل الغربان في الحالتين.. في الحياة والموت.. والعدل في جنس الغربان أقوى ما فيها من غرائز.. والأصل أن العدل في دنيا الإنسان مكتسب ونسي، بينما هو في دنيا الغربان غريزي ومطلق..

ثمة قواعد أساسية لا تتبدل ولا تتغير ولا تتطور عندنا. من خرج عليها خرج على الجماعة واستحق بذلك وقته..

هذه القواعد والقوانين ليست من وضع الغربان.. إنما هي حاكمة خلقها الله فيما وأودعها فطرتنا وألزم جبليتنا بها..
لا نشرع القوانين لأنفسنا..

نعرف أن النفس تمثل مع الهوى، وتحاذي لما فيه مصلحتها، وترى الخشبة البارزة في عينيها قشة، وترى القشة في عين الغير شجرة..

تجاور جنس الغربان هذا كله إلى شاطئ الأمان حين استسلم لتشريع الخالق.. إن عمل القانون يستلزم التجدد من الهوى، وأي مخلوق يتجرد من الهوى غير الملائكة..
يدركني الملائكة بأيام الخلق الأولى..

كانت الأرض سلاماً عظيماً قبل هبوط الإنسان فوقها..

أمواج البحر عذراء لم تخرها سفينه، والرياح نقية لم تلمس جبهة إنسان، والحقول الموجودة في الأرض كلها لم تطأها أقدام بشر.. لم تزل الدنيا نقية لم تلوثها كذبة واحدة.. كل شيء ينبع بالصدق..

الجبال تتألق بالثلوج البيضاء تحت أشعة الشمس المنكسرة.. والبحار تنهد فيرتفع صدرها الأزرق المزبد وينخفض.. ومن الحقول الخضراء يتضاعد عطر ذكي ينتهي به الهواء.. كل شيء بالغ الجمال والسحر، رغم ذلك كان هناك شيء موحش في الصورة.. إن شيئاً ينقص المشهد.. أن يدب الإنسان على الأرض وسط هذا الجمال ويرفع يديه لأعلى ضارعاً لله ويسأل..

عندئذ يبرز المعنى الحقيقي وراء خلق الجمال المجرد..

تكتسب الأشياء جمالاً أقل ومعنى أكبر حين تعرف وتحظى وتنتوس..

هذا شأن المعرفة ذاتياً.. تخدش البراءة في البداية ثم تولد المعرفة بعد ذلك.. يتمتع ملائكة الله بالبراءة.. أما الإنسان فقد خدشت براءته في الجنة.. اغتصبها الشيطان لحكمة أزلية عليا هي تعمير الأرض وسكنها، كنا نعرف أن الإنسان قادم من الجنة..
في البدء كانت الدموع..

كان بكاء آدم وحواء على الأرض مشهداً مؤثراً للغاية... وعرفنا من صوت الدموع قدر الذنب ومعنى العصيان وصدق التوبة..

كان آدم مقيماً في التربة إن صع هذا التعبير..
يا جلال وجهه المهيب..

كان في العينين حنان أبوة يكتسح السدود ولا يتوقف عند ولد دون ولد.. أما حواء فكانت
أماً لكل النساء على الأرض..

«ربنا ظلمتنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين».
كانت هذه دعوتها معاً لله..

وضعت حواء أول بطن لها.

لأبيض الأدميون مثلنا نحن الطيور، إنما يلدون..
كانت حواء تتضع في البطن الواحد ولداً وبنتاً..

وفي البطن الثاني ولداً وبنتاً.. وكان ولد البطن الأول يحمل لبنت البطن الثانية..
ولدت حواء قابيل وأخته أقيليا..

ولدت هابيل وأخته ليوثا..
كبر الأخوة معاً..



انحدر هابيل من التل وهو يضحك.. وجهه يتفرق بطفولة أعوامه الشمانية، ووراءه يندفع
قابيل وهو يمسك في يده بفرع شجرة محاولاً أن يلحق أخاه.. يلعبان معاً كالعادة..
لست أعرف لماذا يبدو أحد الأخوين رقيقاً كزنابق الحقل.. وبينما الثاني قاسيًا كشوك
الجبار.. يحدث ذاتاً في اللعب أن يختار قابيل دور الصياد، ويختار هابيل دور الفريسة، ويحمى
اللعبة وتلمع عيناً قابيل بالكراهية وهو ينهال على هابيل ضرباً بما في يده..
في البدء كان هابيل يضحك.. تون ضحكته بين التلال والأشجار مثل ينبوع يضيء
بالصفاء والمرح، ويقوس قابيل ويمسك فرع الشجرة بيديه معاً بدل يده الواحدة.. ويتحول وجه
هابيل من السرور إلى الألم، وينتهي رنين ضحكته بما يشبه الصرخة..
ويهرع آدم إليهما فيجد هابيل جريحاً وقابيل ماضياً في اعتدائه.. ويصرخ آدم:
ـ قابيل.. ماذا فعلت بأخيك هابيل..
ـ ويرد قابيل - نحن نلعب.. وقد اختار هابيل دور الفريسة.

ويصرخ آدم مؤنباً قابيل.. ويفصل بين الأخرين.. يلوم قابيل ويمسح جراح ابنه الطيب.. ويحدثهما إنها شقيقان خرجا من أم واحدة.. ويعيشان فوق أرض واحدة وبيني أن يجمع بينهما الحب لا الكراهة.. وكان أعظم ما يثير دهشتي.. ان قابيل كان يغلق فمه القاسي ولا يدافع عن نفسه.. بينما كان هابيل يدافع عن أخيه ويتوسل لأبيه أن يصفح عنها معاً.. في العشرين من عمره..

إرتفعت يد قابيل وهوت على وجه هابيل بضربة قوية وهو يصرخ: هذا كونхи أنا.
تركت أصابع الأخ على خد شقيقه علامات حمراء واضحة.. فوجيء هابيل بالإهانة،
واحتمم داخله الغضب وتجمعت في عينيه دموع سريعة معدبة.
قال هابيل ببراءة - أنظر إلى يدي.. لقد تسلختنا في بناء الكوخ..

قال قابيل بحسم - لن تبيت في الكوخ بعد الغروب القادم للشمس.. لقد تكلم قابيل،
رد شقيقه بوداعة - يريد هابيل أن يقول كلمة هو الآخر.. إنني أحبك يا قابيل فلماذا.. لم
يسمع قابيل شيئاً.. كان قد غادر المكان..

لم أر هابيل يحدث آدم بما وقع.. لا أعرف لماذا.. ربما كان يحس ان قلب الأب يبتليه
بأحزان مصدرها تصرفات قابيل، وخشي أن يزيد أحزانه عمقاً، وربما قال لنفسه أن تهديد قابيل
كلمة لا يعنيها.. وحين جاء الغروب القادم للشمس.. فوجيء هابيل بأن أخيه قابيل يقتحم عليه
كونخه وقد تقبضت أصابع يديه على حجر مدبب..

و قبل أن يفتح هابيل فمه بكلمة، كان الحجر يشق جبهته ويفجر منها الدم.. وحمله قابيل
وألفاه خارج الكوخ.. وضمده هابيل جرحه بالأعشاب ونام في مكانه.. وفوجيء آدم بابنه ينام
خارج كونخه.. وفوجيء بدمه المتجمد على جبهته.
وصرخ آدم نفس صرخته التقليدية وإن كانت تشرب هذه المرة من ينابيع حزن أعمق.
- قابيل.. ماذا فعلت ب أخيك هابيل.

كان قابيل لا يشبه هابيل..
وكانت إقليلها شقيقة قابيل لا تشبه ليوثا شقيقة هابيل.
كان قابيل أقسى من هابيل،
وكانت ليوثا أقل جمالاً من إقليلها.
وكان المفروض أن يتزوج هابيل من إقليلها، ويتزوج قابيل من ليوثا..
بيبي وين نفسي.. كنت أفضل هابيل على شقيقه، وكانت مرتاحاً لأنه سيتزوج الأجمل..
إن هابيل لا يغضب عندما نأكل من طعامه..
شاهدني يوماً أقف أمام بيض الدجاج الذي يربيه فمد يده وناولني بيضة.. وسررت من
تعاونه مع جنس بسيط كجنسنا.
هذا رجل يدرك حكمة التعاون بين الخلائق، ويدرك معنى الرحمة..

هو رجل يعرف الله، ويحبه، ويخافه.

أريد أن أركز عقلي لأضع شهادتي على جميع الخرائب والأطلال، وأحكىها للرياح التي تصرن في أعظم الأماكن وحشة.

صرخ قابيل - لا.. أنا خير منه.

كان الشيطان يقف وراء الكلمة..

قالها إبليس عن آدم، ويلقنا اليوم لابن آدم ليقوطا عن أخيه.

عاد قابيل يصرخ أمام أبيه: لن أتزوج ليوثا.. سأتزوج إقلبيها.. كانت معى في بطن واحد.. أنا أولى بها.

أفهم آدم ولده أن اخته لا تحل له..

رفض قابيل أن يتزحزح عن موقفه.. أدهشتني جرأته، ولم أعرف كيف يتصرف آدم.

قال آدم: ليقرب كل منكم قرباناً إلى الله.. من تقبل الله قربانه كان على الحق.

تنحنى آدم عن الفصل بينها وترك ذلك للسباء.

لم أعرف كيف يتقبل الله القربان، ولم أعرف ما هو القربان أصلاً..

انتظرت أياماً شغلتني فيها دنيا الغربان بقضاياها ومشاكلها.

كان هناك غراب مفترض هارب نبحث عنه لمحاكمته.

ووجه يوم تقديم القراءين إلى الله.

جاء هايبيل يحمل أسمن كباشه ووضعه على الجبل وصلى الله تعالى أن يتقبل.

وجاء قابيل بقمح لم يزل أخضر في سنابله.. جاء بقمح لم ينضج بعد.. كان قابيل حريصاً

ويخيلياً إلى الحد الذي فشلنا فيه - نحن الغربان - أن نذوق طعامه. قدم قابيل قربانه ومضى..

وقف الشقيقان بعيداً..

تمننت في قلبي - بوصفي قاضياً غير منحاز - أن يتقبل الله من هايبيل.

هبطت من السماء نار أكلت قربان هايبيل إشارة إلى القبول.. وصرخ هايبيل صرخة الحمد

والفرح وصرخ قابيل بكلمة القتل..

كان قابيل يقف وقد مد أمامه كفيه وراح يتأمل بنظره نقطة هناك عند الأفق.. ورغم صمته

المطبق فقد كانت تبعث منه موجة من العداء تكاد تحس جسدياً.

كان يوماً رائعاً من أيام الله.. الشمس تنشر دفتها في الجو، وأشجار الصنوبر المنتدة على طول الأفق تستحم في أشعة الشمس، وتأخذ جذوعها لون الكهرمان الذي تقذفه البحار، ومن الجبال القرية كانت تهب الرياح وهي تحمل من أعماق الوهاد والشعاب المغطاة بمحمل الغابات الأخضر، عبر الغابة البكر والزهور الإلهية..

عاد قابيل يصرخ - لأقتلنك..

لم يدر هايبيل سر غضب قابيل عليه..

لا يدرك النساء عادة دوافع الإثم وشروره ..
لقد تقبل الله من أحد هما ولم يتقبل من الآخر.
قال لشقيقه إن الله يتقبل من المتقين.

عاد قابيل يتمتم - سأقتلك.

رد هابيل وهو يستدير عائداً لكرمه وأزهاره ..

«لن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا يبسط يدي إليك لأقتلك .. إني أخاف الله رب العالمين .. إني أريد أن تبوء يا شمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين». إنا نصرف هابيل مع زوجته إقلبيا ..
تزوجاً وعاشا أياماً ..

حين ظهرت أعراض الحمل عليها كانت نفس قابيل قد طوعت له قتل أخيه ..
عشنا على الغراب المتنصب الفار وبدأت محاكمته ..
إستلقى هابيل على الأرض بعد عمل يوم شاق ..
لم يكدر يتوسد حقل الزنابق حتى استغرق في النعاس.
إنحدرت الشمس نحو الغرب ..
استمرت محاكمة الغراب الأثم ..

إمتلأت السماء بدم الشفق .. وتسلل قابيل وهو يشدد ضغطه على فك حمار عثر عليه في الغابة.

مات حمار في الغابة القرية فأكلت السبع لحمه وأكلت النسور ما بقي منه وشربت الأرض دمه ويفي فكه العمسي مليئاً على الأرض.

حل قابيل أول سلاح في الأرض وراح يمضي باحثاً عن شقيقه.
ووجهه نائماً فتحرك نحوه ..

آثاره شيء لست أدريه في الوجه النبيل الحال.
إستيقظ هابيل وفتح عينيه ..

إرتفعت يد قابيل بالفتك العمسي وهوت بسرعة ..
إنبعث الدم من وجه هابيل وملاً صدر قابيل ..

عادت اليد الأثمة تهوي على الوجه الطيب ..
وفي الضربة الخامسة .. إرتطمت يد قابيل بطن الحقل ..

سكتت حركة هابيل تماماً .. وأدرك قابيل أن أخيه قد مات ..

كفت يده عن ضرباتها السريعة القاسية .. جلس واجهاً أمام ضحيته ..

لم ننته بعد من محاكمة الغراب الأثم .. أجلنا المحاكمة للغد .. أقمنا على الغراب حرساً
وانصرفنا ..

وقفت على شجرة فوق رأس قابيل ونعتت صارخاً ..

- قابيل .. ماذا فعلت بأخيك هابيل؟

رفع قابيل رأسه ونظر إلى.. .

كان وجهه يرتعش.. .

إستغرقت المحاكمة الغراب المتهم ساعات.. .

كان يكذب.. . وينكر التهم المنسوبة إليه.. . ومجادل.. . غير أن تقدم المحاكمة كان يضيق
الخناق حول عنقه، وطوال الوقت الذي استغرقته المحاكمة كان قابيل يحمل أخيه على ظهره ويسير
به.. .

لا يعرف ماذا يفعل بجثته.. .

إن السور تحوم حولها.. . والوحوش تقبل على الراية.. .

وقابيل يخشى أن يترك أخيه فتلتهمه الوحوش.. . ولذلك يحمله على ظهره ويسير.. .

لا يعرف ماذا يفعل به.. . ولا يعرف كيف يتصرف فيه.. .

إنتهت المحاكمة الغراب وثبتت كل التهم المنسوبة إليه.. .

وأصدر القضاة حكمهم عليه بالموت.. .

تم تنفيذ الحكم في الغراب الآثم.. .

حملت الغراب الميت لدفنه في مكان بعيد.. .

كنت أطير وأنا أحمله في منقاري حين أحسست أن قدرة خفية توجه أجنبتي نحو قابيل.

لم أكن أنوي أن أمر على قابيل.. . لا أحب قابيل.. .

لكن أجنبتي تتجه رغم إرادتي إليه.. .

ثمة أمر جليل يعلو على إدراكي ويوجه أجنبتي.. .

أمرني أحد الملائكة الكرام.. .

- أيها الغراب.. . إن الله تبارك وتعالى يبعثك لترى ابن آدم كيف يواري سوأة أخيه.. .

هيقطت على الفور بحملي أمام قابيل.. .

وضعت الغراب الميت أمامي ورحت أحفر الأرض.. .

حفرت الأرض بمخالبي ومنقاري.. .

ساویت أجنبحة الغراب الميت إلى جواره.. .

زفعته منقاري ووضعته في لحده.. .

صرخت صرختين قصيرتين، ثم أهلت فوقه التراب.. .

بعدها نظرت لابن آدم.. .

قالت نظري: قتلناه بالعدل ورغمها نعرف لجنته حق الاحترام.. . أما أنت.. .

رحت أنعق وأنعب في وجهه.

بعدها طرت في الهواء متوجهاً نحو الغرب.

سمعت وأنا أطير مبتعداً صرخة قابيل.. .

«يا ويلنا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي». خيل إليّ أن الصرخة

تحترق بالندم.. .

لم أعرف من أي نبع كان ندمه يصدر.
أكان نادماً لأن حله كل هذه الساعات وهو يجهل دفنه ..
أكان نادماً لأنه قتله بغير الحق ..
لا أعرف ..
كل ما أردت معرفته هو حال زوجة هابيل ..
ملأني السلام حين عرفت أنها تنتظر الوضع ..
أردت أن أطمئن على الجنس البشري وأتأكد أنه ينحدر من صلب كريم يخاف الله ..
أعرف أن أبناء قايميل القاتل سيمלאون الأرض .. أعرف أن الصراع لن يتوقف بينهم وبين
أبناء الشهيد الطيب ..

وربما تكررت مأساة الأب مع الأبناء ..
أعرف هذا كله .. وأجهل الحكمة من وراء هذا كله ..
ليست وظيفتي هي المعرفة ..
شاهدأ كنت على ابن آدم وأستاذأ له لحظة من الزمن، لكن مهمتي ليست هي المعرفة.
ربما كان الإنسان يعرف ..





نَاقَةٌ صِرَالْح

﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آئِهَةٌ فَلَا تَأْكُلُوا فِي أَرْضِ
اللَّهِ وَلَا تَمْسُوْهَا بِسُوءٍ فَإِنَّهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴾.

(سورة الأعراف - آية 73)

لست غير خير مخض لا يعرف الشرور..

براءة البراءة.. هذه أنا..

لم أؤذ أحداً قبل أن أولد، ولم أؤذ أحداً بعد أن ولدت.. ورغم ذلك أدركني الديبح دون أي ذنب جننت.. رغم تحذير الله لم يفعل ذلك.. رغم هذا ذبحت..
كان معنى ذبحي يشبه معنى ذبح البراءة على هذه الأرض.. وربما كان ذبحي هو بداية القانون الذي يخبر الخير أن يقدم دمه على مذبح الحياة.. نعم.. كانت حياتي مدهشة.
ولدت من أحضان جبل شاهق بكلمة من الله.. كنت جزءاً من الصخور لا أدرك غير أنني صخرة، وتحولت طيات الصخر الجامد إلى لحم لين، وتدفقت الدماء في العروق، وراح الدم يصنع اللبن.. امتلأت أنثائي باللبن.. كنت أحمل وليدي في بطني فلما ولدته دررت اللبن الذي باركه الله، وسقيت آلاف الجوعى والظامئين من اللبن.. كنت أسقيهم يوماً.. وأسقي وليدي الصغير يوماً..

لم أكن أعرف من أسقيه اللبن، لم أكن أعرفهم، ولا كنت أعرف أسماءهم.. كنت أسقيهم مجاناً بلا أجر.. غير أن يحمدوا الله حين يرتوون.

رغم هذا كله قلت. إمتدت السكينة يوماً إلى عنقي.. إنني أموت الآن.. أموت منذ ثوانٍ.. حين أدركت أنني أموت بحثت عن مداد أكتب به فلم أجد غير خيط نازف من دمائي.. وقد كتبت به قصتي.. فإذا كانت لم تكتمل فليس السر أنني لم أكن أريد أن أكملها.. إنني أموت وابتسمة طيبة على وجهي.. أبتسم ناقة.. نعم.. إذا كانت ناقة ولم تكن ناقة.. إذا كانت صورة لحيوان ورمزاً لآية، حين تكون شيئاً وتكون في نفس الوقت رمزاً لشيء آخر فإنك لا تموت.. أو تموت وعلى وجهك ابتسامة من يدرك أنه في طريقه إلى النوم.. عارفاً أنك سوف تستيقظ مرة



أخرى.. نعم.. ما أعظم المأسى التي تتبع من إحساس الناس انهم سيموتون ولن يبعثوا..
كانت هذه مأساة من قتلي..

ناقة صالح.. هذا اسمي في التاريخ البشري..

وناقة الله.. هذا اسمي في كتاب الله «ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية».
نسبني الله عز وجل إلى اسمه تشريفاً لي، وإعلاء لشأنى، فقد كنت ناقة ولم أكن ناقة..
كنت صورة لناقة.. بينما أنا آية من آيات الله في الجواهر.. وكل شيء في الوجود صورة
آية.. من أين أبدأ..

كان ميلادي مفاجأة لي قبل أن يكون مفاجأة لقوم صالح..
فوجئت أنني ولدت.. حلت إلى مفاجأة الحياة بعد العدم إحساساً جديداً.. بصرامة كان
إحساسي يشبه الغربة..
كنت أعرف أنني أرتدي جلد الناقة، رغم إنني لست ناقة، وكنت أعلم أنني رمز للبراءة في
عالم يكره البراءة..

كنت حباً محضاً يواجه الكراهية البحثة..

كان موقفي بالغ الحساسية والتعقيد.. كنت أحمل أجسام النوق وطبع النوق وتصرفات
النوق، ولكنني في ذات الوقت كنت أنطوي بهذه القشرة على باطن لا علاقة له بعالم الفطرة
الحيوانية.. كان باطني ينطوي على عالم متسع ورائع هو عالم آيات الله..
وقد أدركت بعد أن ولدت قصة مولدي كمعجزة..

ولدت في قوم ثمود.. وهؤلاء قوم أقوية الشهوات ضعاف العقول، وقد زادت مأساتهم
بثرائهم فأضييف لقوة الشهوات قدرة عليها.. وكان هؤلاء القوم يعبدون الأصنام.. لم يكن
المجتمع كله منغمساً في هذه الخطيئة المروعة.. كان هناك من يرحل بعقله في الكون حوله ويعد
مؤمناً بالله.. ولكن الأغلبية كانت قد انجرفت إلى عبادة المصالح الخاصة والذهب وكل أوثان
النفس ورغباتها التي لا تحمد.. ثم شاء الله تعالى أن يبعث نبياً إلى ثمود.. اصطفى منهم أكثرهم
توحيداً ونقاءً وصلاحاً ويعته إلى قرمه..
كان اسمه يحمل حقيقة جوهرة..

صالح.. كان هذا اسمه..

قال صالح عليه السلام لقومه «يا قوم إعبدوا الله ما لكم من الله غيره» نفس الكلمة التي
قالها من قبله هود ونوح وكل الأنبياء الله ورسله.. نفس الكلمة التي قالوها من قبله قالها هو من
بعدهم.. لا تغير الكلمة من نبي إلى نبي.. أمانة النبي في جوهرها تكمن في تسع كلمات..
يا قوم إعبدوا الله.. ما لكم من الله غيره..

والعبادة تبدو يسيرة وفطرية وبدهية وحقيقة.. ولكنها في الواقع الاجتماعي تكون بمثابة
الثورة.. إن معنى تطبيقها هجر كل الآلة المعبدة، وكل المصالح التي تتعلق بهذه الآلة الموجودة
في أوهام الخلق، وهذا يعني تغيير المجتمع من أساسه، ويعني إعادة بناء قيمه وتصوراته، ويعني
إعادة بناء أخلاقه وعاداته، ويعني هدم المؤسسات القائمة على الشرك، وهذا يعني أن هناك مصالح

سوف تنهار، وإنْ تدافَع هذه المصالح عن نفسها بحد السلاح..
كان أول سلاح وجهه القوم إلى صالح قوله له: أثبت إنكنبي..

قبل أن يطالب قوم صالح نبيهم أن يثبت أنهنبي، حدثوه حديثاً غريباً.. كان قد نهاهم أن
يعبدوا ما عبد آباؤهم من الأصنام وكان قد دعاهم إلى عبادة الله الخالق المبدع وحده..
وقالوا له: «يا صالح.. قد كنت فينا مرجوا قبل هذا.. أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا، وإننا
لنبي شنك ما تدعونا إليه مريب»..

إن وجهة نظرهم تبدو لي - أنا الناقة - طلسمها أو أحجية.. كان لهم رجاء فيه قبل أن يبعث
بالنبوة.. كان علمه محل احترام، وعقله موضع إعجاب، وكلامه موضع تصديق كامل، وكانوا
يفكرُون أن يجعلوه رئيساً عليهم أو شيخاً لقبيلتهم، ثم أفسد كل شيء بهذه الدعوى الجديدة..
يدعوهم إلى عبادة الله وحده..
ماذا يفعلون في آلهة الجدود والأسلاف.. كيف يدارون خجلهم أمام ذكرى الآباء والأجداد
إذا أهملوا عبادة أهليهم..

تأمل المنطق المعكوس الذي يرفضه ظاهري الحيواني وباطني المضيء.. إن هذا منطق لو
تمهدت به خروف لإحدى النعاج لمآمات سخرية منه، كان المفروض ما دام صالح محل احترام
وتصديق، أن تكون نبوته محل احترام وتصديق، ولكن الذي حدث هو العكس.. بعد تصديقهم
لصالح بدأ الشك فيه. « وإننا لنبي شنك ما تدعونا إليه مريب» أشاح صالح عن منطقهم المعكوس
وسألهم كيف تصدقون إنينبي من الله؟.

هناك قالوا له: أثبت إنكنبي.. إنك تدعى إنك مبعوث من الله، ونحن نشك في
دعواك، لماذا لا تقدم بيضة على دعواك..

سأله صالح وصدره مازال على اتساعه لقومه،
ماذا تريدون أن أقدم؟.

قالوا: قدم بيضة على نبوتك..

سألهم: ماذا تريدون؟.

قالوا: لا تتصور إننا نقوم بتعجيزك أو الضغط عليك..
لكتنا نريد أمراً خارقاً لم يحدث من قبل.. نريد آية من الله على نبوتك.. نريد شيئاً لم يقع
من قبل..

سألهم صالح: ماذا تريدون؟

قالوا: هذا الجبل القريب.. لماذا لا يلد ناقة.. لماذا لا تدعوا الله أن ينشق الجبل عن ناقة
تخرج منه..

سأله صالح: وتصدقون إني مرسل من الله لو فعلت؟

قالوا: نعم.. عندئذٍ نصدقك.. عندئذٍ فقط.

قال أحدهم: ليس قبل ذلك..

حاور صالح قومه في نوع المعجزة الخارقة التي أصرروا عليها.

قال لهم: أنتم تطلبون آية مادية خارقة.. وهذه الآيات خرق للناموس، وليس من أدب العباد أن يطلبوا من ربهم خرق الناموس ليؤمنوا به.

قالوا له وهم يتضاحكون: اعترف إنك لا تستطيع.

قال لهم: أنتم تتصرفون الآن مثل أطفال يريدون لعبه مبهرة.. وليس هذا من كمال الأدب مع الله..

قالوا له: يا صالح.. من حقنا وأنت تزعم إنك مرسل من الله أن تقدم إلينا الدليل على دعواك..

قال صالح: أخشى لو أجبتكم إلى طلبكم أن تكفروا بهذه الآية بعد حين، أخاف عليكم من عذاب الله لو فعلتم..

قالوا: لن نفعل.. نحن نعاهدك أن نؤمن بهذه الآية ولا ننسها بسوء.

قال صالح: تعاهدونني على ذلك.

قالوا: لك عهودنا جميعاً..

حين أدرك صالح أنهم مصرون على طلب المعجزة الخارقة دعا ربه أن يحبيب القوم إلى طلبهم، وأجاد الله القوم..

وخرجت من صخور الجبل ناقة هي أنا.. هكذا ولدت..

بكلمة من الله من صخور جبل..

فوجيء القوم حين رأوا ما طلبوه قد تحقق.. سطعت الخارقة أمام أعينهم فبهرتهم وأخضعتهم..

أنجروا رؤوسهم واعترفوا أن صالحًا مرسلا من ربهم، اعترفوا أنه نبي ، ووعدوا جميعاً أن يقبلوا دعوه.. إنصرف الجميع وتركوني وحدني..

قال صالح لهم: إن الله يعذكم بعذاب قريب إذا مس أحدكم الناقة بسوء.. واعترفوا له أنهم لن يمسوها بسوء..

مضى القوم ومضى صالح وتركني الجميع وحدني.. وبدأ احساسي بالغربة، لم أكن صخوراً ولا ناقة، صرت آية يقف عليها سيف التحذير الاهلي.. ويعني المساس بها الوقوع في العذاب.

لم أكن أفهم كآية وناقة معاً من الذي يفكر في إيدائي.. لم أكن أفهم كيف يجري ذهن مخلوق للأضرار بي..

لم أكن أكره مخلوقاً فيهم.. على العكس.. كنت أح恨هم جميعاً بلا استثناء.. سرت قليلاً في طرقات المدينة..

من الحجر والصخر كانت بيوتهم.. كان لاغنيائهم قصور في سهول المدينة، وكانت لهم بيوت منحوته في الجبال. مضيت أسير.

حين استيقظ الناس بعد مرور يوم من المعجزة، كان أول شيء فعلوه انهم تخلقوا حولي.. كانوا يتأملونني بدهشة بالغة وابهار مطلق..

وكان شيء في حركتي يثير خوفهم.. كنت كلها حركت رأسي أو ذيلي ففروا إلى الخلف وهم يصيحون كأنني أفعل شيئاً معجزاً بمجرد الحركة..

ضايقني ذلك في البداية وأحاط حريتي بسياج..

كنت أظل صامتة حتى لا أزعجهم.. ثم زادت الرقابة عليّ بعد ذلك، وظللت العيون تتبعني أينما ذهبت.. ثم يتحقق الناس حولي ويداؤن في حديث مهموس طويل لا أسمع منه شيئاً..

ثم جرّؤ صبي على التقدّم والاقتراب مني ووضع يده على عنقي..

كان يضعها ثم يسحبها قبل أن تلمس عنقي..

وادركت انه يريد أن يربّت على رأسي.. واحتنيت رأسي وقربتها من الصبي فراح يربّت على رأسي..

وكسر تصرف الصبي خاوف الناس مني فاقتربوا وراحوا يضعون أيديهم على جسدي ويلمسونني كأنما ليتأكدوا من وجودي الحقيقي..

ورحبت بهذا الود الذي أبداه قوم ثمود.. وزاد حبي لهم..

ثم ولدت صغيري في اليوم الثالث من ظهوري في أرض ثمود... وجذب وليدي اهتمام الناس مثلما فعلت.. وربما أكثر..

كان الناس يربّتون عليه ويضعون أيديهم فوقه كأنما يثبتون لأنفسهم انه حقيقة وليس وهماء..

وبدأت أرضع وليدي.. وتأمل قوم ثمود اللبن وجرى ريقهم إليه.. وأسرعوا إلى نبיהם صالح وحدثوه عن أخبار البعير الذي ولد والبن الذي يتدفق من أثداء الناقة..

قالوا له: نريد أن نستفيد من ناقة الله التي دعوت الله من أجلها.

إن ابنها لن يشرب كل لبنها.. ولعل هذا اللبن مبارك..

حدثهم صالح أن لبن الناقة مباح لهم برحة من الله، لكنه قسم الماء بيتهم وبيني.. قال لهم:

تركون الماء للناقة فتشربه، وتشربون أنتم من لبنها، وفي اليوم الثاني تشربون الماء وتتركون لبن الناقة لترضع ولیدها..

وافق القوم على اقتراح نبئهم وأقرّوه..

وبدأت وجودي كمصدر لا ينفد من اللبن، كان الله تعالى قد بارك اللبن الذي أدره، فكان يكفيهم ويزيد عن حاجتهم فيصنعون منه الجبن والقشدة والزبد والسمن..

كان لبني ثري المذاق، وكان من يشربه لا يظمأ ولا يجوع..

وكنت كريمة معهم إلى الحد الذي كنت أنزع فيه الثدي من فم صغيري لأ斯基 طفلة لا أعرف اسمها من بني ثمود..

ومرت أيام..

أحبني المجتمع كله لأنني كنت أطعنه وأسقيه كله..

هذا حب نفعي يزول بزوال مصدره ولا قيمة له في حسابات الحب النهاية.. لن أتوقف عندـه.

أحبني الفقراء المؤمنون الذين اتبعوا صالحـاً.. كانوا يسمونـي ناقة الله، بينما كان رؤساء المجتمع وحكامـه يسمونـي ناقة صالحـ. . ومع الوقت، بدأت أحسـ أن ستارـاً شائـكاً من الكراـحة يحيـط بي ويحاـصـري.. .

ثم وقع حوار بين المؤمنين بصالـح وأـئـتهـ، والكافـرين باللهـ. .
«قالـ المـلـاـ الذين استـكـبـرـواـ من قـوـمـهـ للـذـينـ استـضـعـفـواـ لـمـنـ آـمـنـ مـنـهـ: أـتـعـلـمـونـ أـنـ صـالـحـ مـرـسـلـ مـنـ رـبـهـ. .

قالـواـ: إـنـاـ بـاـ مـاـ أـرـسـلـ بـهـ مـؤـمـنـوـنـ.

قالـ الذـينـ استـكـبـرـواـ: إـنـاـ بـالـذـيـ آـمـنـتـ بـهـ كـافـرـوـنـ».

أـسـفـ الحـوارـ عنـ مـوقـفـ مـحـدـدـينـ.. مـوقـفـ الـمـؤـمـنـ وـمـوقـفـ الـمـسـكـبـرـيـنـ.. فـيـ الـبـدـءـ سـأـلـ

الـمـسـكـبـرـيـنـ سـؤـالـ استـخـفـافـ وـزـرـاـيـةـ.

- أـتـعـلـمـونـ أـنـ صـالـحـ مـرـسـلـ مـنـ رـبـهـ.

كانـ السـؤـالـ فـخـاـ. . ولـكـنـ مـوـضـوـعـيـةـ الـمـؤـمـنـ أـسـلـمـتـهـ إـلـىـ الإـجـابـةـ الصـحـيـحةـ قالـواـ: إـنـاـ بـاـ

أـرـسـلـ بـهـ مـؤـمـنـوـنـ..

تجـاـوزـ الـمـؤـمـنـ الـخـارـقـ الـمعـجـزـ، وـتـجـاـوزـ الـآـيـةـ الـمـبـهـرـ، وـتـوـقـفـواـ عـنـدـ تـعـالـيمـ الـنـبـيـ الـقـيـ

تـلـخـصـ فـيـ عـبـادـةـ اللـهـ وـحـدـهـ.

لـمـ تـعـجـبـ الإـجـابـةـ المـلـاـ، رـأـواـ فـيـهـ هـدـوـءـ يـشـيرـ الغـضـبـ، وـكـانـ رـدـهـ: إـنـاـ بـالـذـيـ آـمـنـتـ بـهـ

كـافـرـوـنـ.. .

ويـتـضـمـنـ هـذـاـ الرـدـ اـسـتـهـانـةـ بـالـمـؤـمـنـ وـاستـخـفـافـاـ بـهـ وـطـعـنـاـ فـيـ أـشـخـاصـهـمـ، أـيـ أـنـهـمـ يـقـولـونـ

لـهـمـ: إـنـ إـيمـانـكـمـ بـهـ هوـ بـعـثـ شـكـنـاـ فـيـهـ.. . وـهـوـ سـرـ كـفـرـنـاـ بـاـ مـأـمـنـتـ بـهـ.

إـنـصـرـفـ الـمـؤـمـنـ وـعـادـ المـلـاـ إـلـىـ قـصـورـهـمـ.. . كـانـ الـغـيـظـ يـلـاـ قـلـوـهـمـ وـيـكـادـ يـنـفـجـرـ مـنـ

تـصـرـفـاتـهـمـ.. .

وـأـرـسـلـ كـبـيرـ المـلـاـ إـلـىـ كـلـ سـادـةـ ثـمـودـ وـرـؤـسـائـهـمـ.. . وـدـخـلـواـ صـالـةـ مـتـسـعـةـ فـيـ قـصـرـهـ وـيـدـأـ

اجـتمـاعـ تـارـيـخيـ.. .

كـانـ الـخـاطـرـونـ جـمـيـعاـ لـاـ يـؤـمـنـ بـصـالـحـ، وـلـاـ يـؤـمـنـ بـسـيـ، وـكـانـواـ يـنـظـرـونـ الـيـنـاـ مـعـاـ

كـمـؤـامـرـةـ تـدـبـرـ لـلـنـظـامـ الـحـاـكـمـ وـتـسـتـهـدـ خـلـعـهـ.. . قـالـ رـئـيسـ الـقـومـ: إـنـ وـجـودـ نـاقـةـ تـرـعـىـ بـحـرـيـتـهـاـ

قـدـ نـزـعـ كـلـ سـلـطـانـ لـنـاـ عـلـىـ المـوـقـفـ فـيـ الـقـبـيلـةـ.

وـافـقـهـ الـخـاطـرـونـ عـلـىـ رـأـيـهـ.. . عـادـ أـحـدـهـمـ يـقـولـ: إـنـ وـجـودـ النـاقـةـ تـذـكـرـ مـسـتـمـرـ لـلـنـاسـ بـآـيـةـ

الـلـهـ، وـتـصـدـيقـ دـائـمـ بـنـبـوـةـ صـالـحـ، اـسـتـلـقـىـ السـؤـالـ أـمـاـهـمـ: مـاـ هـوـ الـحـلـ؟

قـالـ أـشـدـهـمـ قـسـوةـ: يـجـبـ التـخـلـصـ مـنـ النـاقـةـ.

تـمـ الـوـصـولـ إـلـىـ قـرـارـ بـشـأـيـ فيـ الـاجـتمـاعـ الـتـارـيـخيـ الشـهـيرـ الـذـيـ عـقـدـهـ قـومـ ثـمـودـ.. . كـانـ

الـقـرـارـ هـوـ الـذـبـحـ.. .

في البداية فرع الحاضرون من فكرة الذبح، وقالوا إن صالحًا حذر من لمس الناقة بقصد إيهاعها.. وحذر من ذبحها.. وحذر من أي مساس بها، وتوعد من يفعل ذلك بعذاب رهيب يجل بعد ثلاثة أيام.. وراحوا يفكرون في محاولة للتخلص مني.. وأعيادهم الوصول إلى حل.. وأديرت كؤوس الخمر عليهم وشعشع الشراب فتخلوا عن مخاوفهم وقال قائدتهم: ليس هناك حل غير ذبح الناقة.. إن وجودها يهدد النظام الحاكم كله.. بما فيه من شيوخ القبيلة ورؤساء وأغنياء لهم مصالح.. إن المجتمع كله مهدد بسبب هذه الناقة.. مضى القوم يدورون حول هذه النقطة، ومضى كؤوس الخمر تدور عليهم، ومضت عقوفهم تدور هي الأخرى..

بعد ساعات من حديثهم تحول المؤقر إلى مؤامرة.. وانخرط جميع الحالين في التدبير لهذه الجريمة..

بعد أن كان السؤال: ماذا نفعل بالناقة.. صار السؤال: كيف نقتل الناقة.. ثم تطور إلى الشكل التالي: من الذي نكلفه بقتل الناقة؟.

وراح التدبير ينسج نفسه من أعمق أعمق الشرور الإنسانية، كنت أحس بكل شيء.. لم أكن أسمع ما يقولونه، ولا كنت أتبع كلماتهم، ولا كنت أفهم لغتهم السريعة الخامسة، ورغم ذلك كنت أحس بكل شيء..

بوصفني رمزاً للبراءة كنت أشعر أنهم يريدون ذبحي ويدبرون له أمرهم..

وكان أشد ما يدهشني إني لا أفهم السبب..

لماذا..؟

ما الذي فعلته لهم من شر ليبرر ذبحي؟.. ما الأذى الذي وجهته إليهم؟ ما هي الإساءة التي لحقتهم معي؟

لم يكن هناك جواب لكل هذه الأسئلة..

واحنيت رأسي ومضيت أقدم للبن والحنان..

كن أحس أن قرار ذبحي قد صدر، ولم يعد باقياً غير تنفيذه..

وأحسست بالحزن ذات ليلة وابني الصغير يستندفه في صدري، أحسست بالحزن على مصير البراءة..

لماذا يذبح الناس البراءة في هذا العالم..

إتسعت دهشتي وظل فهمي على حاله من انعدام الفهم..

ومضيت أقدم للبن والحنان..

ومرت ليتان.. وجاءت الليلة الثالثة.

أحسست أن هذه ليالي الأخيرة وسط قوم ثمود..

خامرني احساس واضح بال نهاية. إنتهى الأمر وتم اتفاق الملا مع تسعة من كبار المجرمين في المدينة.. وانتخبت التسعة من بينهم أشدتهم شراسة وقوة وعهدوا إليه بمهمة قتلي..

لا أعرف أي إسم من أسماء هؤلاء التسعة، ولكنني أعرف أنهم شربوا اللبن مني وشرب
أطفالهم معهم ..

لم أكن أضن على أحد أو أسأل أجراً من أحد ..

سيذكرون الله تعالى في السياق ويغفل أسماءهم «وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في
الارض ولا يصلحون».

كان هؤلاء هم أدلة الجريمة .. أما المنفذ فكان رجلاً أشير إليه بوصفة «صاحبهم» ..
«إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم، فارتقبهم واصطبر، ونبئهم أن الماء قسمه بينهم كل شرب
محضر، فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر، فكيف كان عذابي ونذر».

هذا الذي أشير إليه بوصفة «صاحبهم» كان يتمايل من السكر حين دخل حيث أرقد ..
كان السيف في يده يلمع، وكانت نفسه أشد سواداً من عمق الليل .. قبل أن يصل إلى
وصيل أحد الملائكة .. وفهمت من حنو الملائكة أنني سأموت .. ففهمت أيضاً آلاف الأشياء الأخرى،
فهمت التي كنت فتنة لقوم مستكرين ..
وقفت حين دخل القاتل .. نظر إليّ وهو لا يكاد يرى من فرط ما شرب، رفع يده بالسيف
فأسرعت أحني صغيري .. إمتد سيفه إلى قدمي ففصلها عن جسدي ..
وأصعدت على الأرض ساجدة ..

تجمع عذاب رهيب يفصله عنا ثلاثة أيام .. رأيت قسوة العذاب فأشفقت على من يصيبه
مثل هذا العذاب .. أهاج مرأى الدم النازف من قدمي عقل القاتل، فرفع سيفه وهبط به على
عنقي ..

بماذا أحسست .. ١٩ ..

أحسست بالراحة والهدوء والرضا ..

كان الشعور رائعًا .. لحظات الاستشهاد دائمًا رائعه ..

تحولت مع ولادي إلى جزء من صخور الجبل، وبقي معنى البراءة مذبوحاً على الأرض ..
أما قوم صالح فقد تحولوا إلى خبر يرد في كتاب الله باختصار .. «إنا أرسلنا عليهم صيحة
واحدة فكانوا كهشيم المحظوظ».



طهير ابراهيم

﴿وَإِذْ قَالَ إِسْرَاهِيلُ: رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحْبِي
الْمَوْتَىٰ، قَالَ: أُوْلَئِنَّمْ تُؤْمِنُ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ
لِي طَمَيْنَ فَلَيْبي، قَالَ: فَخُذْ أُرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصَرْهُنَّ
إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ
أَدْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيَاً، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ﴾.

(سورة البقرة - آية ١٦٠)

تطير معًا في تشكيل رائع في السماء.
عائدون في طريقنا الى الوطن.

ليس وطننا هو البيت الأخضر الذي بناه ابراهيم الخليل.
وطن الحمام عادة مقسم مجزأاً..

يجمل الحمام نصف وطنه في قلبه، ونصفه الثاني في قلب من يحب.
كنت أنقدم السرب.. فردت أحججتي ورفعت منقاري لأعلى وانطلقت.. تبني سرب
الحمام.. حركت أحججتي ورحت أتمايل.. لو كان الهواء نعيمها خالصاً فاني أصبح في نعيم خالص.
حمدًا لله أن خلقني طيراً..

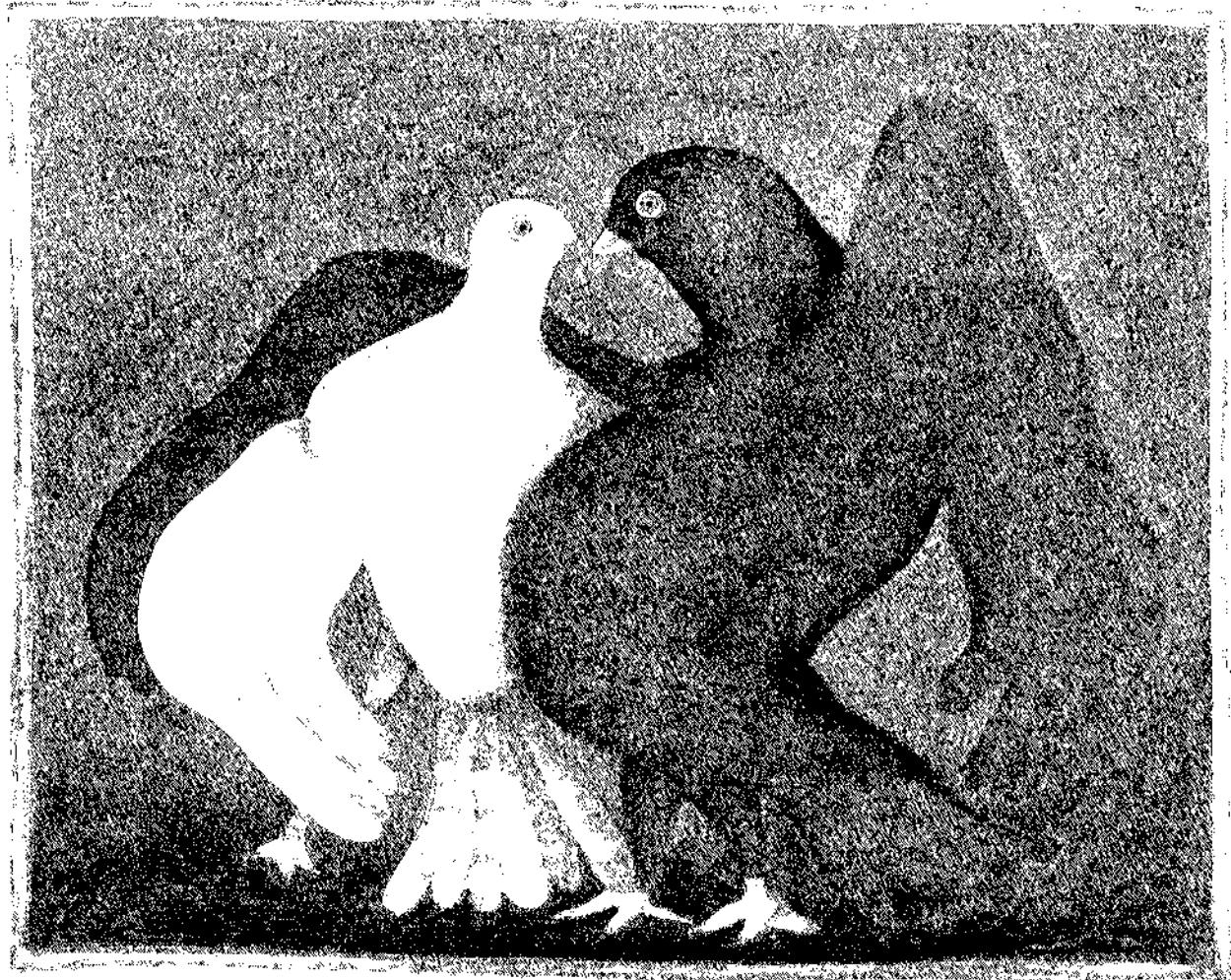
لست أعرف كيف تحتمل الخلاائق التي تدب على الأرض حياتها على الأرض.. في الطيران
ألف متعة لا تكشف عن نفسها الا لمن يرتفع..

من الجو تبدو الحقول الخضراء زاهية الحضرة.. وعلى الأرض تنخفض درجة الحضرة،
ويدخل التراب عينيك ويضطرك الى البكاء..
شاهدتها أول مرة في حياني في موقف بكاء سببه التراب..
حمدًا لله أن خلقها لي.

حامة بيضاء أسمت نفسها «ناشا».

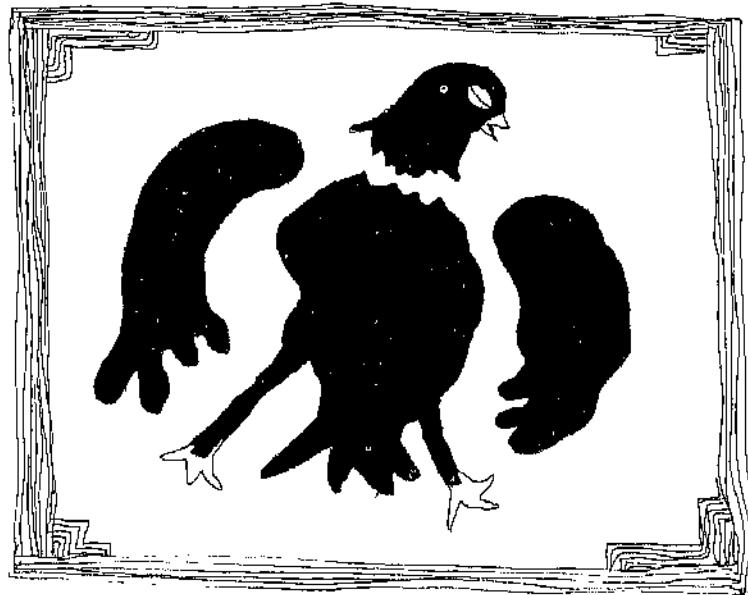
كان لها اسم آخر قبل أن تقع في الحب..

يقوم الحمام بتغيير اسمه حين يحب.. لا يعود الاسم القديم كافياً للدلالة على الذات
الجديدة التي تولد بعد الحب.. نعرف أن ذاتاً جديدة تولد بعد الحب.
نعرف أسرار الحب كلها..



نحب خالقنا الذي أوجدنا من العدم .. ثلاثة أرباع الحب نعطيه الله ..
 ونحب الهواء الذي يحملنا كما يحمل النغم .. نصف الربع الباقي هدية للهواء ..
 نحب الإنسان فنطعنه لحمنا بغير ما ألم .. ربع الربع الباقي للإنسان ..
 ويبقى ما يبقى من حبنا للإناث ..
 يبقى من حبنا للإناث قدر في حجم حبة القمح ..
 يستصغر الإنسان حبة القمح ويلقىها على الأرض ..
 بينما كل حقول القمح الذهبية التي تطعم الملايين كانت في الأصل حبة قمح واحدة ..
 في قصص الحب الكبرى لا قيمة لوزن الحب أو ضخامته أو حجمه ..
 تكمن القيمة في القدرة على الاستمرار فيه .. ونحن نحب حتى الموت حباً ..
 حين مرضت أمي وماتت .. أدرك أي شيء فاجع غامض مروع، كنا أطفالاً نرى أي دائم
 القفر والمرح والحيوية ..
 حين حملوها من أمام عينيه نكس رأسه في الأرض ولم يقل شيئاً ..
 جاء اليوم الأول وهو صامت لا يطير ولا يأكل ولا يشرب .. كان يفتح منقاره ويلقى كأنه
 يقول شيئاً ..
 وفي اليوم الثاني رقد على بطنه وهو صامت يرفض أن يأكل أو يشرب أو يطير أو يفتح
 منقاره ..
 وفي اليوم الثالث رقد على جنبه وتنهد، بدا كأنه يحمل جبلاً على صدره ..
 وفي فجر اليوم الرابع دس منقاره في جناحه ومات ..
 وحين حملوه من أمام عينينا كان جناحه مبللاً كأنه بكى بعد أن مات ..
 كنا أطفالاً لا ندرك أن الحب نسيج أصيل في الكون ..
 بُني الكون كله على الحب والوفاء والسلام ..
 حلت أحدي الحمام غصن زيتون من الأرض لسفينة نوح حين كف الطوفان عن تدفقه
 واستسلم لكلمة الله ..

من يومها صار الحمام رمزاً للسلام العميق ..
 يعرف الناس عنا ذلك ..
 غير أنهم يجهلون أن الحمام رمز للوفاء والحب والبعث ..
 بعث الموق ..
 لا يفهم بعث الموق غير من يعرف الحب ..
 الحب ذاته بعث من موت العادة وملل الألفة وانعدام المعنى ..
 وحين يتحقق بالحب قلب المخلوق يبعث ما كان ميتاً فيه ..
 كيف يؤمن المخلوق ببعث القلب وينكر قيمة الجسد ..
 نعم ..



في الحب لحظة يستدعي فيها الأحد عباده فينهم صون من تراب النوم .
 أي قدرة هذه التي تستطيع استدعاء أحلام التاريخ من عباءته الترابية .. غير قدرة الحب ..
 تعالى الله وتقديس اسمه ..
 لم أزل أطير في الفضاء ..
 عائد إليها .. إلى ناشا ..
 في البدء سوف أغمس منقاري في المياه التي يضعها لنا ابراهيم ..
 أخفض أجنحتي لذكر ابراهيم ..
 صاحب بيتنا وبيت الله ..
 المسافر دائمًا إلى الله ..
 خليل الله ..
 كم أحبه ..
 يستحيل أن تدنو الخلائق من ابراهيم ولا تتأثر ..
 أول من وضع قلبه قوانين توحيد الحب ..
 أشعل جسده الكريم كالشمعة ليضيء للخلائق ..
 ألقاه أعداؤه في النار، فانطفأت نار الأرض في نار السماء التي تشتعل في قلبه ..
 لا تحرق النار ناراً أعظم منها ..
 وليس أعظم من نار الحب ..
 ناشا ..
 يدق قلبي حين أذكرها ..

كانت بيضاء ونحيلة.. وكان منقارها عادياً.. ولم يكن في جسدها شيء مميز..
كنت أجمل منها.. والذكر في الحمام عادة أجمل من الأنثى.. غير أن الجمال هنا ليس غير
ضعف مستتر.. إن في نحول الاناث وبؤسهن شيء لا يقاوم..
ليس هناك شلوق يشبه شلولاً آخر..
وناشا لا تشبه أي حمامة ثانية في الأرض..
ربما كانت أقل الحمام جمالاً.. ربما كان في مشيتها شيء يوحى بالثقة، وإن كان في الحقيقة
يختفي انكساراً بالغ العذوبة..
نوع من العذوبة الغامضة التي يستحيل افشاء سرها..

آه..
أذكر لقائي الأول معها..
كانت تبكي..
دخلت هبة من التراب في عينيها فراحت تبكي..
فردت أحدي أجنحتي أحياها من التراب فحيتني تحية رقيقة من ريش ذيلها..
لم يدر بیننا حوار..
رفعت رأسي بحركة سريعة وأدرتها ونظرت إليها. رحت أنقل رأسي وأسير.. حوطها
أسي. حوطها أطوف.. حوطها أفرد أجنحتي.. حوطها أطير فجأة.. أدور.. أدور.. رأسي
يدور.. قلبي يدور.. وهي تقف في مكانها ثابتة ترموني..
أكبت أريها بأسي وقوتي ورقتي في نفس الوقت؟..
أكبت أغازها كما يظن الناس؟..
أكبت أحديها بلغة الصيت الذي يقول أكثر مما تقول الكلمات؟..
لا أدرى..
ربما كنت أفعل هذا كلها.. وربما كنت أختبط حوطها غير أن أدرى.
أقول لا أدرى..
وفي الحب «لا أدرى» هذه أغلبية..
ما يدريه العاشق عادة هو الصورة التي يرسمها في نفسه لمن يحب..
أما الحقيقة.. فتبقى ملكاً لله وحده..
تحدثنا قليلاً..
خيّل إليّ أن الكلمات تنحدر من منقارها كأنشاد بليل أو تسبيح كروان..
اكتسبت الكلمات معانٍ جديدة لمجرد صدورها منها..
تحرك نبع السلام القديم الذي حمله أحد أجدادي حين عاد بغصن الزيتون في منقاره.
ذابت كل الثلوج في قمم الجبال.. وانحنى السحاب على زهور الربيع وراح يمسح رؤوسها
ويقبلها.. ولد فصل الربيع داخل قلبي..

أيكون هذا هو الحب.

سألتها: ما اسمك.

قالت: نوشكا.

قلت: سيصير اسمك القديم بعد لحظات.

قالت: الريح تحمل كلماتك بعيداً فلا أسمعك.

لم أتكلم.

حولها أدور.. أفرد أجنبتي وأثنىها.. أطير عالياً وأنقض فجأة.. حولها أطوف.. بقلب حان وروح عطوف.. حولها أرتعش.. أتحبظ.. أطوف.. أدور..
انتهى اعترافي فاحسست أنني فقدت ذاتي القديمة..
كنا نتقابل كثيراً في فناء بيت ابراهيم..

هو البيت الوحيد الذي كان ينشر الحبوب للحمام، وينثر الطعام للنمل، ويفتح الباب للضيوف.. ويدفع أسمن عجوزه حين يزوره الملائكة فيحبسهم ضيوفاً من البشر..
كنا أربعة من الطير قد لجأنا لبيته..
هي .. وأنا.. واثنان غيرنا..
نوشكا القديمة صارت ناشا..
 جاءتنى يوماً تقول..

- قل لي كيف تريدين أن تكون لاكون.

وسدت منقاري في رقبتها وهمست.

- لا أريد غيرك. أريدك كما أنت..

قالت: ولكنني لست جميلة.. بقية الحمام لا يحبني.. إنهم لا يطعمونني..

قلت: أطعمك نصف قلبي..

قالت: والنصف الثاني..

قلت: قد تجوعين مرة ثانية.

حركت رقبتها بزهو..

سرنا معاً على الأرض.. أشرت لها إلى حبة قمح بمنقاري.. قالت بأحد أجنبتها إنها ليست جائعة.. سرنا معاً على الشجر.. أشرت لها إلى ثمرة فلم تأكلها.. سرنا معاً في السماء.. ارتفعنا قليلاً ونحن نسير أو نطير.. لست أدرى.. الهواء خفيف وناعم.. وثمة برودة منعشة تهب من الشمال.. ارتعشت أجنبحتها فجأة..

قالت: أيكون الهواء قد مر على الثلوج قبل أن يجيء..

قلت: ذابت الثلوج منذ أيام..

قالت: ولكنني أرتعش.. لا تتركني أبداً..

قلت: تعالى نلعب.. تعالى ندفء الهواء.

طرنا، حرکنا أجنحتنا ورحنا نتنفس في الهواء حتى عاد إليه الدفء.
هبطنا فوق شجرة.. مال الغصن قليلاً حين وقفنا فوقه.
نكست رأسي وتأملت الأرض..

كنت أفك في ارتعاشتنا معاً.. أ يكون حبنا يحببنا لنا قدرًا من الألم.. أيموت أحدها قبل الآخر.. اعتصر قلبي شيء بارد..

التفتت إلى هامسة..
أريدك جواري وأنا أموت..
قلت: لم تبدأ الحياة بعد...
قالت: لم يكن الموت مخزناً قبل أن أعرفك..

كانت الشمس في طريقها إلى الغروب.. وبدأ الأفق مصطفعًا بدم يشبه دم الحمام، وجري ذهني للذبح..

لا أريد أن أذبح الآن.. أريد أن أعيش طويلاً..
لم أبداً حبي بعد يا رب..

رحت أصلى لله صلاة طويلة.. وراحت تصلي هي الأخرى.. ثم انكفأنا عائدين إلى البيت..

نامت هي قبلي.. وبقيت مستيقظاً ثم لفني النعاس..
كنت نائماً حين رأيت نفسي أطير وسط سماء بيضاء وأرض زرقاء..
كنت أطير على ارتفاع شاهق، أعظم من ارتفاع السور..

تحتى سحابة بيضاء..
تحتى طيلة الوقت..
رأيت ناشا نائمة فوق السحابة.. حدقت فيها.
لم تكن نائمة..

فوجئت أنها مزقة الريش والأجنحة والجسد..

أردت أن أصرخ عليها فتحولت السحابة من اللون الأبيض إلى اللون الأحمر.

شربت السحابة دمها وبدأت تطر..
نزل المطر دموعاً في حجم حبات العنب الأحمر..
أردت أن أصرخ.. أو أبكي.. أو أهبط..

فوجئت أن السحابة تتبدل.. وشاهدت ناشا مزقة مفرقة على قمم الجبال.. رأيت نفسي ممزقاً جوارها على قمم الجبال..

كنت أحلم أنني أطير.. وأراني في نفس الوقت ممزقاً معها على الجبال..
نصف جنبي الأيسر يتتصق بنصف جنبها الأمين..
كل نصف مما يكملا النصف الآخر..

استيقظت فرعاً فوجدتها تنفس جواري. حبيبة كما هي ..
سالمة كما هي .. صوت تنفسها يطير بعض ريشها عند الرقبة ..
ظللت أتقلب فترة ثم استغرقني النعاس ..
تنفس الصبح أخيراً ..
نهضت خائراً القوى بعد أحلام الأمس العجيبة ..
طرت قليلاً لعلي أنتعش ..
طرت بغير أن أنظر حولي .. عقلي كله تحمله صورة واحدة .. صورتنا معاً ممزقين على
الجبال .. توغلت في الطيران .. مرت ساعات.
فجأة رأيت نفسي قد ابتعدت كثيراً عن وطني ومسكني.
اكتشفت أنني تائه .. ارتفعت إلى أعلى .. حلقت عالياً في الفضاء وبدأت أطير في اتجاه
دائري محاولاً أن ألتحطم الحدود المميزة للمنطقة التي خرجت منها ..
لم ألتحطم شيئاً ..
كانت المنطقة التي أطير فيها منطقة جبلية شامخة ..
ارتفعت أكثر وأكثر .. اعتمدت على بصري فلم ألتحطم من المعالم التي أعرفها شيئاً .. حين
يُؤْسَت من نظري بدأت أحاول تحديد الجهات عن طريق الطيران الساكن، محاولاً أنباء الطيران أن
أتصل بخطوط القوى المغناطيسية التي تمتد بين قطبي الأرض ..
حين خذلني البصر، وخاطرط القوى المغناطيسية .. بحثت في تحديد الاتجاه للشمس .. كنت
أريد أن أعرف الزاوية بين اتجاه الشمال والشمس .. لو عرفت الشمال لحددت بقية الجهات
وأتجهت عائداً للشرق ..

استغرقني تأمل الشمس ..
في اللحظة التي اكتشفت فيها الزاوية التي أبغوها .. اكتشفت في نفس الوقت أنني أطير وسط
جبال تخذلها النسور موطنها ..
هويت من الخوف وسط عش كبير غادره الأب والأم وتركا فيه نمراً طفلاً .. كان النسر
الطفل أكبر من حجمي مرة ونصف ولكنه كان لا يستطيع الطيران بعد .. ربما ولد أول أمس ..
أحس بحركتي داخل عشه فرفع رأسه الأصلع ومنقاره الحاد ونظر إليّ نظرة حاقدة ..
قلت له دون أن أنكلم: خفف من عداء نظرتك إليها الوحش الصغير .. لم يحن الوقت بعد
على التهام الخام .. لم أكدد ألتحطم أنفاسي حتى أثبتت نفسي في الفضاء مسرعاً وطرت كان ألف
نسر عجوز في أعقابي .. طرت مسرعاً وزدت سرعتي حتى وصلت إلى مشارف أرضي ..
أسرعت نحو بيت إبراهيم .. هويت إلى الأرض ألتحطم أنفاسي ..
وقفت ناشا عند رأسي ..
قلت لاهثاً: نجوت من موت محقق ..
قالت: أهذا الآن ..

هدأت..

حركت جناحيها فتموج الهواء حولي منعشاً مترجحاً براشحة جسمها.. غادرني التعب وأحسست بالعطش..

أدركت ما أريده بغير أن أفصح، وهرعت نحو صحن المياه وملاط منقارها وعادت تسقيني. فمها في فمي.. جناحها يلتصق بجناحي. ذهب عطشى إلى المياه واستغل عطشى إليها هي.. حدثتها بذلك فقالت: تزوجني..

قلت: تزوججتك..

قالت: لتبارك النساء زواجنا..

قلت: ولبياركه أعظم قلب في الأرض..

قالت: خليل الله ابراهيم.

قلت: نظير إليه معاً..

غادرنا فناء بيته إلى بيته ذاته..

وقفنا على سور واطئ يقيمه ليصلني خلفه.

حططنا أمام قدميه وقبلنا قدميه.

ارتعش قلبانا بالحب.. ومد هو يديه الكريتين وربت على رؤوسنا..

أجفلت حبيبتي وطننا..

أجفلت حبيبتي مرة ثانية مني أنا.

وطرانا..

احتفلنا بعرسنا في الفضاء..

دعونا السحاب والنجوم المختبئة في ضوء الشمس ودعونا الشمس والقمر المختبئ في نورها.. دعونا خلاقن الله العظيمة كلها لخلف العرس.. هناء مصفي هو الهواء.. هناء خالص..

كنا أربعة من الحمام تعتبر بيت ابراهيم بيتنا.. ثم صرنا عشر حمامات.. ثم صرنا عشرين.. كان الحب يعبر عن نفسه بآلاف الطرق.. فيزداد عدد الصغار..

عرفنا الكثير عن خليل الله حين عشنا في فناء بيته.

كان يصلني كثيراً، ويدعو الناس كثيراً.. ويتأمل كثيراً..

ولم نكن نستطيع كطير بسيط - في نهاية الأمر - أن نعرف درجة قربه من الله.. أو عمق مشاعره نحو الخالق.. كل ما نعرفه أنه كان يخلو بنفسه كثيراً.. في احدى خلواته.. كان مستغرقاً في التفكير ثم رفع يديه يسأل الله..

«إذ قال ابراهيم: رب أرجي كيف تحيي الموت.

قال: أو لم تؤمن.

قال: بلى.. ولكن ليطمئن قلبي.

قال: فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منه جزءاً ثم أدعهن يأتيك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم»..

كانت زوجتي ترقد جوار الصغار.. و كنت أجلس خارج عشنا حين امتدت إلى يد سيدنا ابراهيم.. استسلمت لله الطيبة.. في يده الثانية سكين..

اقرب السكين من عنقي..

ورحت أتأمل انعكاس شعاع الشمس على النصل الأزرق.. آلاف الشموس تتنقل إلى النصل وتولد فوقه.. اقرب النصل من رقبتي فزاد استسلامي.. صرخت زوجتي نصف صرخة..

لم أحس بشيء..

غاصن نصل السكين في عنقي..

آخر صوت سمعته كان صوت صرختها.. بعدها سمعت ابراهيم يدعونا اليه.. في اللحظة التالية كنت أطير مندفعاً نحو ابراهيم مع ثلاثة طيور أخرى.. وصلنا الى أحضانه فارتينا لاهيين مسرعين مليين.. سجد ابراهيم لله..

لم أجدها في العش.. وجدت أطفالنا جائعين وهي غائبة..

ثرت ثورة كبرى وقررت تأدبيها..

أعرف أين أجدها..

مكان جوار النهر كنا نلتقي فيه كثيراً..

طررت نحو النهر..

زوجتي تقف على الأغصان محدقة في مياه النهر دون حراك.. وقفث على الغصن جوارها فلم تلتفت.. ماذا أصابها يا ربى.. أن تكون مريضة.. قلت: ناشا.. لماذا تقفين وحدك هنا؟..

لم تلتفت.. انحدرت من عينيها دمعتان كبيرتان وقالت:

- بدأ عقلي يهتز.. لم أزل أسمع صوته كما كان حياً.. أدهشني جوابها.. رفعت جناحي وضربتها به ضربة قوية.. التفت نحوى..

لم تكن تراني حتى صرخت مدهوشة..

- يا إلهي.. كيف.. لكنك..

بدأت ترتعش.. استجمعت قواها وقالت فجأة..

- كيف عدت من الموت يا حبيبي.. لقد ذبحك ابراهيم.

ذكرت السكين فجأة.. ألقيت جناحي حولها لأهدىء من روعها وسألتها.

- حدثني بكل شيء ..

- ذبحك ابراهيم أمامي .. مزق قطعاً مع ثلاث طيور أخرى وفرق أجزاءك على الجبال ..

قلت لها - لم يذبحني ابراهيم .. لقد دعاني اليه فجئت ساعياً ..

قالت : بل ذبحك أمام عيني يا حبيبي ..

قلت : ولكنني حي ..

قالت : لا أصدق أنك حي .. آه يا حبيبي ..

انهارت على صدري ..

أعضاء عقلي فجأة بما حدث ..

حدثني ناشا أن ابراهيم ذبح أربعة من الطير ومزق أجسادنا ووضع كل جزء منها على قمة جبل ثم عاد إلى بيته ..

صحبته ناشا في رحلته ثم وقفت تبكي على نصف جسدي ، وتركها الخليل ابراهيم وانصرف .. بكت طويلاً ثم طارت إلى مكانها فوق الشجرة ..

مررت ساعات وفوجئت بي أقف جوارها ..

ظللنا أكثر من ساعة نتحدث .. كان انفعالنا هائلاً .. كانت ناشا ترعد وتقول :

- ذبحك أمام عيني

و كنت أرتعش وأقول - بل دعاني إليه فلبثت ساعياً.

حين اتفقنا أنني ذبحت ونهضت من الموت تساءلت .

- كيف؟ ..

استلقيت «كيف» أمامنا في مياه النهر مثل سر لا قرار له

قالت ناشا فجأة : ألم يقل ابراهيم «رب أرنى كيف تحيي الموت» .. لقد ترك ابراهيم الجبل وتركك ذيحاً فوقه ثم عاد .. استدعاك فأسرعت إليه ..

قلت لها : لماذا .. ؟

قالت : ربما كان خليل الله يريد أن يرى يد القدرة الخالقة وهي تعمل فأسدل الستار على السر ولم ير غير النتيجة ..

يا إلهي .. لكن كيف ..

عادت كيف تتموج على صفحة المياه ..

قلت .. إذا كان خليل الله لم يعرف كيف عدت أنا من الموت فكيف أعرف أنا ..

عدت أتساءل : أي قدرة هذه التي تستطيع أن تدعوا الموت فيسرعون .

قالت ناشا : هي قدرة الحب .

أتراك نسيت أن ابراهيم خليل الله ..

قبل ذلك كاد ابراهيم يذبح أحب أبنائه إليه . من يملك القدرة على ذبح ابنه حباً في الله ،

يستطيع أن يدعو الطير المزق من موته فيسرع ملائمة ساعياً إليه ..
هي قدرة الحب في الحالتين ..

عدت أقول: أزداد حيرة؟ ما هي الحكمة.

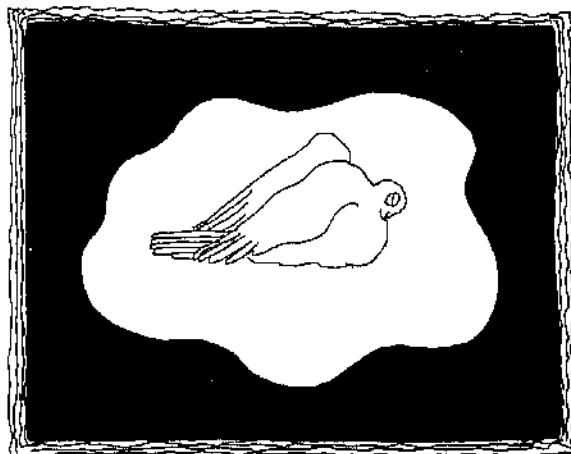
قالت ناشا: ليس عندي جواب يا قلبـي ..

كل ما أعرفه يا حبيبي أن الله طمأن قلب ابراهيم وكان يبحث عن الطمأنينة .. وطمأن الله
قلبك النبیح بالوحدة .. وطمأن الله قلبـي بعودتك إلىّي بعد أن فقدتك.

لقد أعادك الله إلىّي، وأعادني إليك، وأعاد ابراهيم إلى نفسه .. ماذا تريـد أكثر من ذلك ..

قلت: كم يحب الله ابراهيم ..

قالت: كم يحبـني ويشـبـك ..



ذئبٌ يُوَسِّفُ

هُوَ قَالَ إِلَيْيَ لَيَحْرُنِي أَنْ تَدْهِبُوا إِلَيْهِ وَأَخَافُ أَنْ
يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ وَأَتُمْ غَنِّيَ غَافِلُونَ، قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ
الذَّئْبُ وَنَحْنُ عَصْمَةٌ إِنَا إِذَا لَخَسِرُونَ هُوَ.

(سورة يوسف - آية ١٣ - ١٤)

ليست حياة الذئاب مريحة .. أعترف بذلك ..

أن تكون ذئباً معناه أن تكون لك أنبياء ومخالب . وليس في الدنيا أحد يخلو من الأنبياء والمخالب ، كل ما هنالك أن الابتسامة قد تخفيء وراءها أنبياءاً قاطعة ومخالب حادة ، وإن لا يحمل الناس عليها ، إنما يحملون على الأنبياء الصريحية .

أنا - كذئب - هدف لحملات مستمرة من البشر .. هدف لاضطهاد دائم ..

يقول البشر عن أسوئهم أخلاقاً وأكثرهم تودداً للنساء إنه ذئب . وهذه إهانة للذئاب . نحن كذئاب لا نهتم بالجنس غير شهر واحد من شهور السنة ، ولسوف تجد فينا استقراراً عاطفياً وزوجياً تحسدنا عليهآلاف الفصائل الحيوانية الأخرى .

لا أريد أن أطيل في الحديث عن نفسي كذئب .

إنني أكتب هذه الأوراق وأنا حائق بعض الشيء .. لست حائقاً ولكنني مغبوظ قليلاً . أفتقد العدل تماماً في هذه الأرض وأكره أن أجده نفسي موضع ظلم واضح يستغل فيه الإنسان رقيه وذكاءه لظلم الذئاب .

ذئب مظلوم أنا ..

ذئب يوسف .. هذا اسمي الذي اشتهرت به في التاريخ .

غير أنني أقسم أنني لم أر يوسف هذا في حياتي فقط . لا رأيته ولا أكلته ولا مزقت ثيابه ولا اقترنت منه . هي مأساة من بدايتها إلى النهاية .

سقطت عتمة المساء على الصحراء .

السحب اللون الأصفر مع انسحاب الشمس وتغطت الأرض بلونها الرمادي الساعي .. همد



الناس وسكت حركتهم، ودب في الصحراء حياتها الليلية المثيرة. تحركت المخلوقات التي تبحث عن طعامها أثناء الليل وبدأت تسعى.

خرجت أستنشق الهواء أمام باب الكهف الذي أعيش فيه. ملأت صدري بعبير المساء النقى ..

ما أروع أن يكون المرء ذئبًا ثم يقف على باب كهفه ويعوي.

يستحيل على رعايا المملكة الحيوانية نسيان عواء الذئب.

إن صرخة طويلة وعميقة ترعش ظهرك وتدفع فيه قشعريرة باردة كالثلج.. نسمى هذا العواء فيها بينما أغنية المساء. لا نعوي أثناء النهار، مملكتنا هي الليل، ونعن نغنى عندما يهبط ظلام مملكتنا العظيمة.

لنا ستة أنواع من العواء لكل واحد منها معناه الخاص وتعبيره المميز. هذا العواء العميق الطويل الذي يبدأ مع سقوط الظلام هو أغنية المساء. تقوم فيه بتسبیح خالقنا ومجده. وهذا العواء الأجمل القصير هو تعبير عن الوحدة واستدعاء الأنثى، وهناك عواء المطاردة المروع الطويل الغاضب.. وهناك عواء يعني أن صيداً ثميناً قد وقع.. وأجمل ما في عوائنا أن ينتشر في الهواء فلا تعرف الضحية كم ذئباً يهرونون نحوها، ولا تعرف من انتشار العواء حولها مصدر الخطر، وأي حصان أو وعل أو خروف يسمع عوائنا لابد أن يرتعش ويفقد قدرته على الفرار ويدركه ارتباك عظيم. عندئذ انقض أنا.

ينطلق جسدي الرمادي في الصحراء مثل قبضة من البرق وأضرب. هي ضربة واحدة بالمخالب.

بعدها يدقء المعدة طعام ساخن مختلجن لم تزل تدب فيه الروح.. جربت مرة أن آكل طعاماً طاهه أصحابه على النار وتركوه يبرد. فوجدته للأسف بلا مذاق، وأدهشتني أن يرضي الإنسان بهذا الطعام الطري الذي أفسدته النار. أتحدث عن الطعام لأنني صائم.

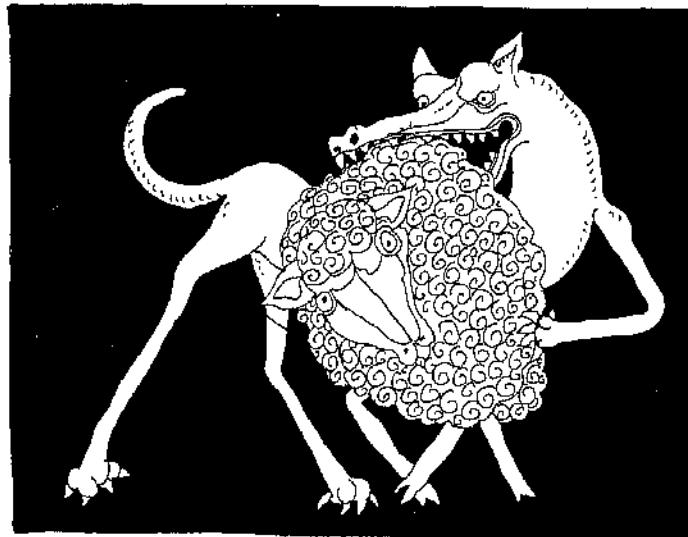
أكلت منذ خمسة أيام نصف خروف سمين كان يتمشى بعيداً عن بقية القطيع. نأكل عادة مرة كل أسبوع، ونعيش على ما أكلناه أسبوعاً كاملاً.. نصوم ستة أيام بغير أحساس بالجوع. ثم نبدأ بحثنا عن الطعام... ظلت واقفاً أمام باب الكهف فترة حتى سقط الليل تماماً وظهر صديق الذئاب. ظهر القمر.. هذا الفرصة الفضي الشاحب الذي نرى على ضوئه أصغر فزان الجبال.. لم يكدر القمر يظهر حتى رفعت رأسي وقدمت له تحيّة المساء.. عويت عواء طويلاً.. هي متعة أن نعوي في ضوء القمر.

ينعكس ضوء القمر على أنفاسي ويرتد الشعاع نحو أبعد الفرائس فيسجّنها بالخفوف في مكانها ويسمّرها بالرعب.

بعدها أنطلق وراء الشعاع.

رفعت فمي وتشمممت الهواء.

أستطيع أن أميز بين أكثر من أربعين رائحة في وقت واحد. تختلف رائحة الأرض عن



رائحة الأعشاب عن رائحة الأشجار عن رائحة الوعول عن رائحة الزهور عن رائحة الرمال عن
رائحة...
ما هذا...

أستطيع أن أميز الآن رائحة خراف. إن غباء الخراف الأساسي أنها لا تستطيع أن تخفي رائحتها. لا تستحم الخراف جيداً ولهذا تنشر حولها في الجو أريجياً ممیزاً. بالنسبة لنا نحن الذئاب.. تشبه هذه الرائحة بطاقة دعوة توجه لطعام شهي.. خرجت زوجتي من الكهف وتشمم الهواء واستقبلتها نفس الرائحة. التقت نظراتنا فقلت لها:
- أمكثي مع الأولاد ودعيني ذهب وحدي.

دخلت ذئبى الكهف وأسرعت أهبط التل. لم أكن خارجاً في مهمة صيد، نحن لا نخرج للصيد إلا بجماعات، لا تقل عن خمسة ولا تزيد على اثنى عشر ذئباً. كنت خارجاً في مهمة استكشاف.. رفعت رأسي وأنا أجري ورحت أتبع ذرات الرائحة. أستطيع أن أتبع الرائحة أثناء الليل بنفس السهولة التي يتبع بها إنسان مجرى نهر أثناء النهار.. اقتربت الرائحة من أنفني فتباطأت وبدأت أحمرك بحدثر.. على مبعدة خطوات تنتصب خيمة بيضاء يجلس أمامها عشرة رجال حول نار أوقدوها.. وعلى مبعدة خطوات منهم تسنم مئات الخراف والنعاج والبقر.. كان البرد شديداً فأدفأته فمي بذيلي ورحت أراقب، لم تكن أعمار الرجال متساوية، كان فيهم من يرثي لحيته، وكان فيهم من يطلق شعره، وروجحت أنهم أصدقاء أو أخوة. أحسست من نظرة سريعة أقيتها على وجوههم أنهم يدبرون شيئاً.

الصوت صدرني بالأرض وكمشت، رفعت أذني وأنصت.

قال أحد الرجال العشرة وهو يدفع بديه على النار.

- ينبغي أن نخلص من يوسف.

اشتد البرد، ومرت موجة من رياح الشمال المثلجة فارتعشت.

لست معتاداً هذه البرودة. ولدت وسط جو معتدل في مصر، وتربيت فيها مع أخي شقيق يصغرني عام. وكنت أحب أخي حباً عظيماً، ولم أكن أخرج للصيد إلا وهو معي .. ثم خرج أخي يوماً ولم يعد. عبثاً حاولت البحث عنه في مصر. ضربت في تيه المزارع والصحاري أيام عديدة دون أن أثر له على أثر. اختفت رائحته تماماً، وانكسر قلبي بعده فخرجت من مصر. عبرت الصحراء وجئت هذه البلاد الباردة. وجدت نفسي غريباً وسط ذئاب من نوع مختلف. فراؤها كان أطول من فرائي قليلاً، عشت بينهم وتزوجت منهم ذئبة يبدو أنها كانت عانسأ، وينيل إلى أن السر في انصرافهم عنها هو شعرها القصير. كانت تشبهني في ذلك .. تزوجتها ففرحت بي أعظم الفرح.

قالت لي يوم زفافنا: من أين جئت. شعرك قصير ولا تشبه ذئاب هذه المنطقة.

قلت: جئت من مصر بحثاً عن أخي الأصغر الذي خرج ولم يعد.

قالت - بحنان صادق - : سأكون زوجتك وأخاك الأصغر فلا تحزن.

هزتني إلى الأعمق كلمتها وتذكرت أخي الأصغر فغويت عواء طويلاً حزيناً متصلأً .. ثم شغلتني متابعة الحياة الزوجية وأهالت تراب النساء مؤقتاً على ذكري الأخ الغائب .. تزوجت في الربيع .. بعد شهرين ونصف ولدت زوجتي ستة ذئاب صغيرة .. قبل أن تلد بحثنا عن مكان للأسرة القادمة. حفرت معها كهفاً غائراً في الأرض ثم عدلت عن الحفر قبل إتمامه وعدنا ببحث عن مكان آخر، أخيراً عثنا على كهفنا الذي نعيش فيه الآن. وهو كهف بعيد يحتمل قمة تل حجري وسط الصحراء. كبير الأولاد وتغير لون عيونهم من الأزرق العميق إلى اللون الرمادي المشرب بصفرة ..

أدركت أن الأولاد قد كبروا .. ويدأت أعلمهم الصيد .. ويبدو أن زوجتي عوضت حرمانها قبلى في إنجاب عديد من الأطفال. لا تكاد تحمل وتضع وتربى وتترضع وتعلم الصيد حتى تعود إلى الحمل والولادة والإنجاب.

صوت رب أسرة كبيرة أجري عليها .. وأرهقني ذلك وجعلني دائم البحث عن طعام. تسللت إلى أنفي رائحة شواء وتسللت معها رائحة حروف صغير حي لم يتم بعد ويسعل من البرد ..

عاد الرجال حول النار إلى الحديث.

قالوا ..

«ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة .. إن أبانا لفي ضلال مبين. اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين».

أدركت أن هناك مؤامرة لقتل إنسان يتردد اسمه في الحديث. لم أكن مهتماً بحديثهم قدر اهتمامي بمعرفة المكان الذي سيدهبون إليه غداً، أردت أن أعرف أين سيدهبون الحروف الصغير المستيقظ الذي أميز رائحته وسط القطبيع النائم.

عاد أحدهم يقول: «لا تقتلوا يوسف والقوه في غيابه الجب يلتقطه بعض السيارة إن كتم فاعلين».

لم ينزل حديثهم يدور حول يوسف. سئمت من الحديث وأدهشني أن يشغلهم يوسف لهذا الحد.. وعدت أستمع لحوارهم.

قال أحدهم: ماذا نقول لأبينا يعقوب حين يسألنا عن أخيينا يوسف.

أعترف أنني صعقت.. أكتشفت أن يوسف هو أخوهم الأصغر.. كيف يذبرون قتله.. وأنا الذئب الذي خرج من مصر بحثاً عن شقيقه الأصغر ولم ينزل يعيش بقلب ملئه بعد فقده. اجتنبني الحديث المثير، وأدهشني كمية الحقد في حوارهم، ونكاً حديثهم عن أخيهم جرحي وذكرني بأخي، وشاهدت الشيطان يجلس معهم وهو لا يرونـه فزاد تقرزي منهم، وكرهـت رائحة الحروف الصغير، وكرهـت أن آكلـ من قطـيعـهم وقررتـ الانصراف.

لم أكـد أستـديرـ عـائـداًـ حـتـىـ عـادـ الـحـوارـ يـجـذـبـنـيـ إـلـيـهـ..

كانت رائحة الحوار مثيرة مثل رائحة قطـيعـ كاملـ منـ الـوعـولـ والـخـرافـ.

قال أحدهم: نقولـ لـيـعقوـبـ تـاهـ يـوسـفـ مـنـاـ.

قال الثاني: هذهـ لـعـبةـ مـكـشـوفـةـ.ـ كـيفـ يـتوـهـ مـنـاـ وـالـمـفـروـضـ أـنـهـ مـعـنـاـ.

قال الثالث: نـقـولـ أـكـلـهـ الذـئـبـ.

أرهـفتـ سـمـعـيـ حـينـ جاءـ ذـكـريـ فـيـ الـحـوارـ.

تحاورـ الـقـومـ بـعـدـ هـذـهـ فـكـرـةـ الـظـالـمـةـ ثـمـ قـالـواـ:

- فـكـرـةـ مـثـيـرـةـ.ـ نـقـولـ أـكـلـهـ الذـئـبـ وـنـحـنـ غـافـلـونـ عـنـهـ.

قال أحدهم: لنـ يـتـرـكـكمـ يـعـقوـبـ تـأـخـلـوـنـ يـوسـفـ.ـ يـجـبـ الرـجـلـ وـلـاـ يـطـيقـ فـرـاقـهـ..ـ قـالـواـ:ـ سـنـحاـوـلـ اـقـنـاعـ أـبـيهـ.ـ سـنـقـولـ لـهـ:ـ الـوـلـدـ الصـغـيرـ لـاـ يـأـخـدـ حـظـهـ مـنـ الـلـعـبـ وـلـاـ يـحـصـلـ عـلـىـ كـفـاـيـةـ مـنـ الشـمـسـ.ـ وـجـهـهـ مـصـفـرـ فـأـتـرـكـهـ لـنـاـ وـدـعـهـ يـخـرـجـ مـعـنـاـ لـيـرـتـعـ وـيـلـعـبـ..

عادـ الـحـوارـ يـدـورـ حـولـ نـفـسـهـ وـيـلـتـفـ حـولـ النـارـ وـيـحـمـلـ إـلـيـ اـحـسـاسـاـ مـتـزاـيدـاـ بـالـذـهـولـ وـالـدـهـشـةـ.ـ كـانـواـ فـرـيقـيـنـ.ـ فـرـيقـ يـرـيدـ قـتـلـ يـوسـفـ،ـ وـفـرـيقـ يـقـتـرـحـ إـلـقاءـهـ فـيـ بـئـرـ..ـ وـرـغـمـ اـنـتـصـارـ الـفـرـيقـ الثـالـثـ فـقـدـ اـسـتـقـرـ الرـأـيـ الـجـمـاعـيـ عـلـىـ الصـاقـ التـهـمـةـ بـالـذـئـبـ..ـ أـيـ ذـئـبـ..ـ وـرـاحـواـ جـيـعاـ يـتـحدـثـوـنـ عـنـ هـذـاـ ذـئـبـ..ـ مـاـذـاـ يـقـولـوـنـ لـأـبـيهـمـ عـنـهـ.ـ كـيفـ يـصـفـوـنـ لـهـ مشـهـدـ يـوسـفـ بـعـدـ أـنـ أـكـلـهـ ذـئـبـ..ـ كـيفـ يـقـنـعـوـنـ أـبـاهـمـ أـنـ ذـئـبـ أـكـلـهـ فـعـلـاـ..ـ وـاقـتـرـحـ أحـدـهـمـ أـنـ يـخـلـعـواـ قـمـيـصـ يـوسـفـ وـيـلـوـثـوـهـ بـدـمـاءـ شـاةـ يـذـبـحـوـنـهاـ ثـمـ يـحـمـلـوـنـ قـمـيـصـ إـلـىـ أـبـيهـمـ وـيـقـولـوـنـ لـهـ هـذـاـ قـمـيـصـ اـبـنـكـ الـذـيـ أـكـلـهـ ذـئـبـ وـهـوـ يـرـتـديـهـ.

استـمـعـتـ إـلـىـ حـوارـهـ وـفـهـمـتـ لـمـاـ سـادـ الـأـرـضـ هـذـاـ الـمـخـلـوقـ الـمـسـمـىـ بـالـإـنـسـانـ.ـ أـدـرـكـتـ لـمـاـذـاـ يـتـناـقـصـ عـدـ الـذـئـبـ فـيـ الـأـرـضـ وـيـزـيدـ النـاسـ.

فهمت أن أنياب الذئب ومخالبها تبدو مثل قش هش جوار هذه الأنياب والمخالب
المتمدبة المغلفة بالابتسام.

عاد الحوار بينهم وهم يأكلون.

قال أكبرهم : أفترضوا أن أباكم لم يصدق قصة الذئب.

قال أكبرهم سناً: نصطاد ذئباً ونلطمبه بدم الشاة التي سلطخ بها قميص يوسف ونذهب
بالذئب إلى أبينا ونقول له: هذا هو الذئب الأثم الذي التهم يوسف. ها هو دمه لم يزل عالقاً
بجسده ومخالبه

ارتعدت في مكاني من الغضب.. أي جرأة يملكتها هذا النوع الإنساني.

عاد الخروف الصغير يتحرك وسط القطيع النائم ..

انصدت نفسي تماماً عنه، ولم يعد يعنيه إلا أن أغادر المكان بسلام. اقتربت مني رائحة
كلب.. ترك الكلب مكانه مع القطيع واقترب منهم لعل أحداً يلقى إليه بقطعة من اللحم أو
العظام. ليست الكلاب مثلنا تأكل اللحم شيئاً دافئاً. يبدو أن الكلب استنشق رائحتي فبدأ يزحف
ويزار ووقف شعر جسده تهيراً للقتال.. لم أكن في حالة نفسية تسمح لي بالاشتباك معه وقتله..
مزقني حوارهم من الداخل واحتقرت أنأشبك مع كلابهم وأشارت أن أبعد عن هذا الجواب بأقصى
سرعة.

نهضت من مكاني وعويت..

لم أكدر أبداً العواء الغاضب اليائس الممزق وأنهيه حتى كنت هناك عند الطرف الثاني من
الصحراء.

عدوت مثل ذئب يفر من ألف إنسان.

دخلت على زوجتي الكهف فاستيقظت على الفور.. نومها خفيف.

سألتني هامسة: لونك مخطوط وجهك متغير.

قلت وأنا ألمث: اللعنة.

قالت: هل أخطألت رائحة الخراف؟

قلت - اللعنة

قالت - لم أرك غاصباً هكذا من قبل. ماذا حدث. هل حاول اصطيادك أحد.

قلت - حدث ما هو أعن.

قالت - لا أظن أن هناك أعن من اصطيادك.

قلت - بل هناك فاصمي ودعيني أفكرا.

قالت - سألك عنك أصغر أبنائك فقلت له إن بابا قد خرج للبحث عن صيد، تعرف زوجي
أني ضعيف أمام أصغر أبني. لم تكدر تذكره حتى قررت إيقاظه واللعب معه. ذهبت إليه فرأيته
ينام على ظهره وقد رفع سيقانه لأعلى.

مدت فمي ومثلت أنني أعضه في بطنه فاستيقظ ضاحكاً وأمسك فمي بأقدامه الأربعية وراح يغضني هو الآخر.. تقلب على جنبه فعدت لاعبه حتى استيقظ اخوه، ورأيت أنني يجب أن أوزع عليهم اللعب فرحت أدعيهم وأعابتهم حتى أصدرت زوجتي بفمها صوتاً معناه:
— حان وقت النعاس.

تركت ذئبي الصغيرة على الفور.. واحتضنت الذئاب نفسها، وأدفأته روحها بالتصاقها واستسلمت للنوم.

خرجت زوجتي من الكهف ووقفت على بابه. أدركت أنها تريد أن تخلي بي.

خرجت وراءها. سألتني بصوت رقيق:

— لم تحدثني عن رحلتك.

كان غضبي قد هدا.. قلت لها:

— كانت رحلة سوداء. ليتنى لم أخرج.

سألت مندهشة — لماذا؟

قلت — ذهبت أبحث عن صيد فوجدهم يبحثون عني.

قالت — عنك أنت..

قلت — نعم.

قالت — لماذا يبحثون عنك؟

قلت — لأنني أكلت يوسف.

قالت — من يكون يوسف؟

قلت — إنسان لم أره قط.. يريد أخيه القاءه في البئر واتهامي أنني أكلته.

قالت — أنت لا تأكل اللحم الأدمي.. كيف يتهمونك؟

قلت — مكرراً كلامي — المصيبة أن يوسف شقيقهم..

قالت ذئبي — غريب.. لو لا معرفتي بأخلاقك لقلت إنك أكلت شجرة منأشجار جوز الطيب فقدت وعيك.

قلت — لست فاقد الوعي.. أنا حزين.. تذكرت أخي الغائب وانفطر قلبي.

ساد الصمت لحظة، ورأيتها أقول:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطير

قالت ذئبي: ما هذا؟

قلت: هذا شعر.

قالت: لم أكن أعرف أنك تقول الشعر.

قلت: أقول ما أقول من حرقتي، حين طفح الكيل.

قالت: مواهبك عديدة وحظك قليل يا حبيبي.

قلت: غداً ينسبون لهذا الكلام لأحد شعراء بياني الإنسان.

قالت - الحمد لله الذي خلقنا ذئبا.

قلت - هل أكل الأولاد؟

قالت - أكلوا فلا تقلق.

نكست رأسي وتذكرت أخي وأغرقتني موجة من الحزن. فوجئت أن ذئبي تمد وجهها وتضعه جوار رقبتي. كانت تقبلني.

قالت بحنان صادق - ليتني ضعت بدلاً من أخيك.

قلت - حزني عميق فلا تزيدني عمقه.

قالت - ليتني ذهبت فداءه وفداء لحظة حزنك.

قلت وأنا أقبelaها - لا تقولي ذلك..

قطعتي بقبة ثانية. وتوسط القمر عرشه في السماء.. وخلت الدنيا من الأحزان والآلام والمتابع.. لم يعد هناك غيرها وغيري في الكون.. دفت أحزاني في أحضانها ومررت الليلة. عاودت حياتي الطبيعية بعد ذلك..

تنام الأسرة معظم النهار، ثم تستيقظ مع العصر.. تطعم ذئبي أطفالنا من لبن ثديها طالما أنهم صغار. فإذا كبروا قليلاً أطعمنهم من اللحم الذي تأكله بعد هضمه نصف هضم في معدتها، فإذا كبروا أكثر خرجوا في رحلات الصيد لمعرفة أسرار الذئاب ومهنتهم. فإذا بلغوا أشدهم انطلقوا في جماعات جديدة للصيد، بعدها ينطلق كل واحد منهم لتكوين أسرة وانجاب أطفال، ثم تنضم الأسر جميعاً وترجع للصيد..

جاء موعد خروجنا للصيد..

اتفقنا على اللقاء عند باب كهفي، بدأت وفود الذئاب تجيء. تحيننا أن نهز ذيلنا ونرفعه عالياً. انتظمنا عشرة ذئاب ناضجة وذئبين صغيرين يخرجان للمرة الأولى.

راقبت الذئبين الصغيرين.

كانا منفعلين انفعالاً عظيمًا. يتحركان في كل اتجاه، ويرقصان ويتواثبان ويجريان هنا وهناك. نظرت إليهما وتذكرت طفولي في مصر. كنت ألعب هكذا في جبال مصر وصحرائهما.. مع أخي الأصغر.. تضيع من ذاكرة الذئب كل لحظات حياته وتبقى رجفة الخروج للصيد أول مرة.. تبقى حية طرية في ذاكرته. لا ينسى الذئب توجهه الأول وهو يخرج للصيد ويتعلم عواء المطاردة. أذكر أول مرة خرجت فيها مع أخي أنه قال لي همساً:

ـ أنا خائف قليلاً..

سأله - لماذا.. هل أنت كلب تخاف؟

انفجرت ضحكته وقفز نحوه وأطبق بأسنانه على رقبتي وسأل:

ـ تمني أن أريك كم أنا خائف؟.

وضحكنا يومها كثيراً، وتواثبنا مثل هذين الذئبين.
كان يوماً لا ينسى.

اجتمع شملنا أخيراً ويدأنا المفاوضات السريعة.

في بداية الصيد نناقش الأهداف المحتملة ونختار من بينها أكثر الأهداف صعوبة وتحدياً.
قال أحدهما - هناك مجموعة من الوعول التي ترعى هناك عند الأفق.

قال ذئب آخر - عثرت على مستعمرة للفثran السمية. لا يحرسها أحد.

قال ذئب ثالث - في اتجاه الغرب رجل يربى ستة من الخيول يحرسها كلبان.

نظرت إلى العيون فقلت :

- في اتجاه الشمال خيمة يعيش فيها عشرة رجال يحرسون للرعي ، معهم قطيع من الخراف
والنعام والبقر. تحرسهم ستة كلاب. والرجال مسلحون جيداً.

كان الهدف الذي حدده هو أصعب الأهداف. واستقر الرأي عليه.
واتفقنا أن نهجم في منتصف الليل ..
وانحدرنا قبل المساء نحو الصحراء ..

سرت في المقدمة، تجري إلى جواري ذئبي، وتبعنا القافلة الطويلة. يتواكب في نهايتها ذئبان
صغاران.

فقدت الأرض لونها الأصفر ونحن نجري وسط حقول خضراء تسقط عليها بداية المساء.
ثم عاد للأرض لونها الرمادي ونحن نعبر منطقة جبلية. ثم جاء اللون الرصاصي واقتربت رائحة
أخوة يوسف .. توقفت أثناء الجري فجأة فتوقفت القافلة كلها وراحت ترھف السمع.

سألتني زوجتي هامسة :

- لماذا توقفت؟

قلت هاماً - أشعر بالتشاؤم .. وأحس أنني لن أراك بعد الليلة.
ابتسمت عينها بابتسامة واسعة مشجعة فعدت أعدو نحو الهدف.
بدأنا زحفنا الخدر حين اقتربنا من الخيمة.

كان الأخوة العشرة ينامون في سكون خارج الخيمة، ولم تكن هناك كلاب. كيف تركوا
الماشية بغير حراسة إذن .. أدهشني ذلك وأثار ربيقي.

قلت للذئاب - انتبهوا جيداً فإني أظن أن هؤلاء النائمين ليسوا نائمين.
قالت زوجتي - تنتبه كلها اليوم يا حبيبي .

قلت - ربما كانت هناك فخاخ منصوبة، لن نخسر شيئاً من الخدر.
كان الذئبان الصغاران الطائشان قد تقدما أكثر مما ينبغي نحو الماشية. وأحسست الماشية
بالخطر فاستيقظت فزعة وبدأت تخور وتضطرب.

جريت أحضر الذئبين الصغارين فلم ألم الخدر. نصحت قومي به ونسيته. لم أدر دورة كاملة
ولئما سرت في خط مستقيم. لم أكد أتقدم قليلاً حتى انطبق على قدمي الخلحفية فخ قوي.

بكثت حريري في عواء طويل وانتشرت شارة الكهرباء من فمي لفم الذئاب فتمزق الهواء بصوت العواء المعمول الصارخ.

وحدث كل شيء بعد ذلك بسرعة.

قفز الرجال من تحت أغطيةهم الصوفية وأطلقوا سهامهم على الذئاب فانطلقت متعددة تعوي ..

وأقبل الرجال العشرة نحوبي بالعصى والخبال، وانهالت على جسدي العصى وألقيت على الحبال وراحت تلتغ حولي حتى سكتت حرکتي تماماً.

أخيراً وقعت في الأسر.. وطافت بذهني صورة أخي الغائب.
أدركت كيف ضاع.. أضيع مثلك يا أخي فلا تخزن..

عويت عواء ضعيفاً يتضمن الأمر بابتعاد أسرتي عن المكان وتركه للأقدار.

وردت على زوجتي بعواء ممزق صارخ يتلوى.. أفهمتني في عوائتها أنها قادمة لأنقاذي،
وليكن ما يكون.. وعويت عليها أن تصرف لتعنى بالأولاد.. أوصيتها بأصغر ذئاب كثيراً،
وابتلعت الصحراء أصداء العواء.. عاد الصمت إلى الرمال فوجدني ملقى على الأرض مقيداً
بالخبال.

رفعت رأسي وتأملت من أسرني.. هم أخوة يوسف بغير جدال. اطمأنوا لاستسلامي
وربطوا أقدامي في فرع قوي من فروع الأشجار وحملوني مدللي منكس الرأس نحو قريتهم.
قال أحدهم بفرح: سنتقول ليعقوب هذا هو الذئب الذي أكل يوسف.

ارتفعت أناق حزينة شاكية فضحكت الرجال وقالوا:

- كان الذئب يفهم ما نقول.

توقفوا فجأة وقالوا: كيف ثبت له أن هذا هو الذئب القاتل.

تشاوروا قليلاً ثم ذبحوا أحد الخراف ولوثوا خالبي بدمه، كما لوثوا فمي بدمه. وكان فمي جريحاً فاضيف إليه دم جديد لاثبات المهزلة.. سرنا طويلاً حتى شارفنا قرية صغيرة تنتشر حولها الرمال الصفراء والأراضي المزروعة، أحسست بالعطش ونحن نسير حذاء نهر فلسطين.. دخلنا قرية تدورها مصابيح الزيت.. قلت لنفسي وأنا أستنشق رائحة الزيت، هذا زيت زيتون، ضاق الطريق وتعرج وتصاعدت رائحة الطعام المطهو فتزايده احساسي بالبؤس.

تصاحت أخوة يوسف حين وصلوا لبيت أبيض تحيطه حدائق مشجرة.. حفظت الطريق جيداً
خلال الرحلة الفاجعة.. من يدرى..

نقر الأخوة الباب فانفتح عن ثلاثة نساء..

تصاحت النساء فزعات حين رأيني وهرعن إلى الداخل. دخلنا البيت.

ملاً قلبي إحساس غامض بالسلام.. بيت من هذا يا رب؟

ألقاني الأخوة على الأرض أمام شيخ أبيض اللحية مهيب الملامح.. ضربتني الأرض بقسوة
فعدت أثن.

قال أحد الأخوة للشيخ الجليل :

- هذا هو الذئب الذي يجعل بعمنا ويفترسها.

قال أحدهم : هو نفسه الذئب الذي أكل يوسف. اصطدناه اليوم.

أكل منا يوسف أول أمس وعاد إلينا اليوم ..

قال صوت احدى النساء : أنظروا دماء يوسف على مخالبه وفمه .. اقتلوه الآن قبل أن يفique من أغمائه .

كنتأتأمل عيني الشيخ وأحدق في صفاتهما وأسبح .. هذا هو يعقوب إذن .. أدركت أنهنبي من أنبياء الله. ملأني إحساس عميق بالراحة حين قال الشيخ لأولاده :

- دعوا الذئب لي. وانصرفوا.

قال أحد الأخوة وهو ينسحب : أخذره يا أبي فإنه ذئب غادر.

خللت الغرفة من غيرنا .. وبقيتنا معًا يعقوب وأنا. اقترب مني يعقوب وفك ثaqي وأطلقنيحرًاء.. وقفـت أمامه وحنـت رأسـي ورفـعت ذيلـي أحـيـه.

قال يعقوب وهو يخرج قميصاً ملوثاً بالدم.

- هذا قميص يوسف أيها الذئب.

فاضـت عـينا الشـيخ وـهو يـرمـي إلـي قـميـص يـوسـف.

- حدـثـوني أـنـك أـكـلـته وأـلـقـوا إلـيـ قـميـصـه المـلـطـخـ بالـدـمـ.

شـمـمت القـميـصـ وـتأـملـت نـسـيـجـه فـوـجـدـتـه سـلـيـئـاً بـغـيرـ خـدـشـ واحدـ. رـفـعـتـ عـينـي إلـى الشـيخـ

وقـالـتـ نـظـرـاتـي :

- أيـها النـبـيـ الـكـرـيمـ .. كـلـ الذـئـابـ بـرـيـةـ مـنـ دـمـ اـبـنـكـ.

قالـ الشـيـخـ - أـعـرـفـ أيـهاـ الذـئـبـ .. أـعـرـفـ ذـلـكـ. كـيـفـ يـفـتـرـسـ الذـئـبـ يـوسـفـ وـيـظـلـ قـميـصـهـ سـلـيـئـاًـ. هـوـ خـطـئـيـ أـنـأـيـهاـ الذـئـبـ.

قلـتـ حـينـ أـرـادـ أـخـوتـهـ أـنـ يـصـحـبـهـ: أـخـافـ أـنـ يـأـكـلـهـ الذـئـبـ وـأـنـتـ عـنـهـ غـافـلـونـ .. قـدـمـتـ خـوـقـيـ مـنـكـ عـلـىـ حـفـظـ اللـهـ لـهـ وـرـعـاـيـتـهـ فـأـصـابـيـ مـاـ تـرـىـ .. عـاقـبـيـ اللـهـ تـعـالـىـ، وـضـاعـ مـنـيـ يـوسـفـ وـجـاءـوـ بـكـ بـدـلـأـ مـنـهـ.

قلـتـ بـعـيـنيـ - لـأـفـهـمـ يـاـ سـيـديـ مـاـ تـقـولـ .. هـذـاـ كـلـامـ كـبـيرـ.

قالـ يـعقوـبـ - أـدـنـ مـنـيـ أـيـهاـ الذـئـبـ.

ـ دـنـوـتـ مـنـهـ ..

عادـ يـعقوـبـ يـنـحـنـيـ لـيـلـتـقـطـ قـميـصـ يـوسـفـ وـهـوـ يـقـولـ: أـدـنـ مـنـيـ أـيـهاـ الذـئـبـ ..

رـحـتـ أـدـنـوـ مـنـهـ حـتـىـ الـصـيـقـتـ خـدـيـ بـخـدـهـ وـبـكـيـتـ مـثـلـمـاـ بـكـيـ .. مـدـ يـعقوـبـ يـدـهـ وـرـبـتـ بـهـ

عـلـ رـأـسـيـ فـبـرـئـتـ جـراـحيـ جـيـعـاـ .. سـأـلـيـ بـصـوـتـهـ الـعـمـيقـ الـخـزـينـ.

- أـيـنـ ذـهـبـواـ بـيـوسـفـ. وـكـيـفـ عـشـرـواـ عـلـيـكـ؟

قلـتـ لـهـ: لـسـتـ أـعـرـفـ مـاـذـاـ فـعـلـوـ بـيـوسـفـ. سـمـعـتـهـ يـتـحـدـثـونـ عـنـ القـائـمـ فـيـ بـشـرـ. لـكـنـيـ

أقسم لك أيمها النبي أني ذئب غريب جاء من نواحي مصر في طلب أخي له خرج ولم يعد. اصطادني أولادك وأوثقوني وجاعوا بي إليك. نحن لا نأكل لحم البشر أيمها النبي .. حرمت علينا دماء الأنبياء أيضاً. ليتني لم أخرج من مصر بحثاً عن أخي.

قال يعقوب وهو يضم قميص يوسف إلى صدره.

خرج الذئب يبحث عن أخيه، وضيع أبنائي أخاهم يوسف.

قلت: أيمها النبي الكريم .. أطلق حريقي لأعود إلى مصر. لن أعيش في أرض يكذب فيها أولاد الأنبياء على البشر والذئاب ..

من فينا الذئب الآن ..؟ أنا أم أولادك يا سيدى الكريم؟

عاد يعقوب يربت بيده على رأسى .. ثم نهض وفتح باب غرفته لي.

انقض أبناءه على السهام والحراب والكلاب وهم يصرخون.

- أطلق أبوانا الوحش ..

قال يعقوب: «بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جهيل والله المستعان على ما تصفون».

قفزت خارج البيت وانطلقت أجري.

جريت بنصف قوتي وتركت نصفها الثاني يقعأ من الدماء على الأرض.

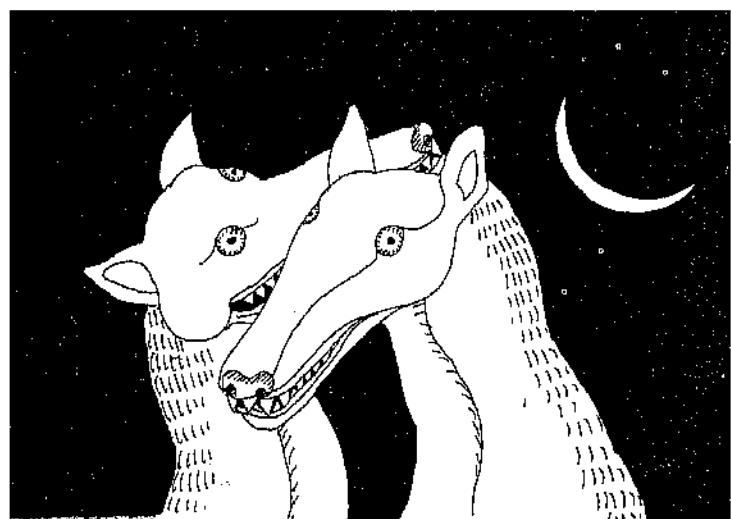
أصبحت أكثر من أصابة قاتلة لكنني أجري بعيداً عن القرية.

لا أريد أن أموت هنا.

خرجت إلى الصحراء العريضة وإذا بالأرض تدور فجأة .. دارت الأرض حتى وقفت بكل

لقلها على رأسى ..

واشتد دوران الأرض.



حُوتٌ لُّوْسِرٌ

هُوَ فَالْقَمَةُ الْحُوتُ وَهُوَ مَلِيمٌ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ
الْمُسْبَحِينَ، لَلَّبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمٍ يَعْلَمُونَ هُوَ.

(سورة الصافات - آية ١٤١ - ١٤٢)

استدررت راسماً حرف التون في المياه.

قوست جسدي وضربت المحيط بذيلي فارتاج الهواء منفجراً كهزيم الرعد، واندفع من المياه
شلال لأعلى بعد ضربة الذيل.
والأصل أن ينحدر الشلال إلى أسفل..

كل شيء على الأرض ينحدر إلى أسفل.. تنفس الخلائق وسقوط الثمار وانهيار الشلال..

وفي البحر يتنفس الحوت العظيم لأعلى، ويصنع من المياه شلالات لأعلى..

استبدل الحوت بيديه القديمتين نافورته الأمامية وضربات ذيله الخلفي.. وكل شلال يندفع
لأعلى من الحوت يد مائة تمتد خالق المياه بالتسبيح.

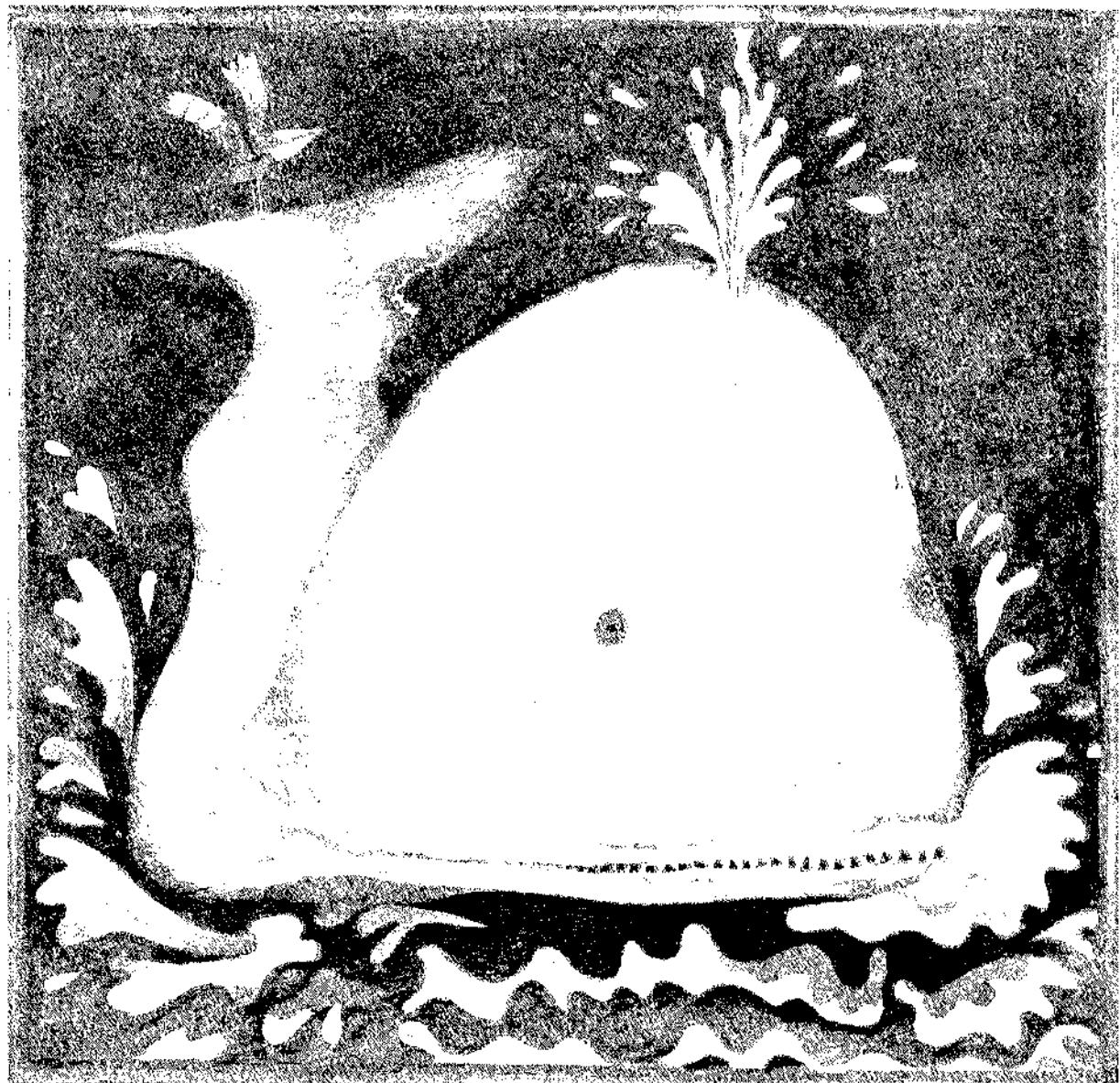
ضربت الموج بذيلي ضربة ثانية، ورحت أتسمع صوت الانفجار الثاني والريح تحمله ليذوب
مع صوت الانفجار الأول عند الأفق.

أعرف أن لطمة للمياه تسمع على امتداد أميال وتصيب الآلاف من حيوان البحر وأسمائه
بالرعب، غير أن هذا شأن القوة حين ترتعد فرقاً أمام خالق القوة.

أعني جبابرة البحر في البحر أنا.. وأضعف من مياه منسكة أمام الله.. أعرف أنني وحش
المياه المتوج على الموج.. صنعت تاجي من زبد الصدق الأبيض وأعشاب الحقيقة الخضراء، وليس
كالصدق والحقيقة قوة حين تتحدث عن القوة.. توجتنى على المياه قدرتى على الانطواء الذاتي في
قلب الأبعاد الزرقاء التي لا قلب لها.. ومنحتنى هذه القدرة، قدرة أجهل كنهها وإن كان كيان
يسجد لها..

حركت ذيلي وانطلقت.

كل مياه المحيطات والبحار حجري الخاصة، واللون الأزرق الممتد تحتي أوراق انحط فيها



قصتي، وليس مثل الكتابة على الماء أو السير فوقه آية، لا يسير على الماء غير الأنبياء، لا يسير على الماء غير الصدق، أما البر فكم من الأكاذيب التراوية تدب فوقه .. أيضاً تبقى الكتابة على الحجر ندوباً ظاهرة لكل من ينظر، أما الكتابة على الماء فيلائم عليها الماء ويغوص السر في البحر دون أن يخلع أقنعته .. وبذلك يبقى للسر نصيحة من اسمه في المياه .. وهنا تكمن عظمة المياه المستعارة..

قلت عظمة المياه المستعارة.

وكل خلائق الكون العظيمة تستجدي من بهاء العظمة السرمدية .. تدرك خلائق الكون العظيمة في قرارها نفسها إنها صائرة إلى الموت. كلها باستثناء الإنسان.

وحده الذي ينسى .. وحده الذي يتآله .. وحده الذي يدور بغزور الخلود رأسه .. لو كان فمي الوحشي يستطيع أن يضحك هازئاً لفعلت. لا أضحك .. لا أعرف غير تقطيب الجد المتوجه ..

لا أحب الإنسان .. وكل الحيتان لا تحب الإنسان ..

عداء قديم له قصة ستجيء في موضعها .. عفواً ..

يفور دمي حين أذكر الإنسان فأهوي في المياه لأبعد الأعمق ثم أضرب المحيط بذيله وأندفع خارجاً.

ها هو سطح البحر.

أففر من السطح لأعلى نحو السماء. قفزة جباره مثل.

هذا سجود الحيتان، يهوي الناس سجوداً نحو الأرض وتهوي الحيتان سجوداً نحو السماء .. أليست أرضنا سوء المجرة.

أسيح في بحار الشمال حيث لا تطرف عين الشمس ولا تغرب. أرى الشمس من مكانٍ فرضاً أصفر سقط في مياه خضراء ..

هذا العري المتألق للشمس، المنطفئ في المياه، يوحى بالوحدة.

وليس كالوحدة رفيق للعطماء.

وليس في عظمة حوت العنبر أحد.

ومن بين كل حيتان العنبر السابحة في المياه، وقع اختيار القدرة الخالقة على شخصي لا بتلاع يونس.

لم أكن أعرف .. عرفت بعد التقامه انهنبي ..

كانت أقسى تجربة في حياتي المائة المديدة .. أعترف بذلك

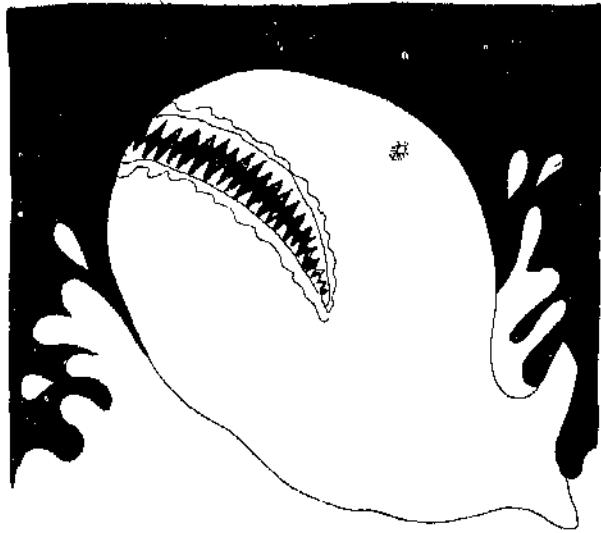
ليس هناك حوت يتجمع العرق على جبينه حبات ..

ليس هناك حوت يبكي رقة وجبا.

تجمعت العرق على جبيني وبكت ..

كنت أحذر أن يراني وحش من وحوش المحيطات وأنا أبكي .. إن هيبي في المياه عرش قديم لم يخداش، ولم أكن لأتركه. يخداش.

إن جسدي الذي يزيد طوله عن طول جزيرة متوسطة، وزني الذي يصل إلى مائة ألف



صخرة.. واندفعاتي في أعماق المياه بعد ذلك.. هذا كله يكفي لجعل أخطر أسماك القرش الوحشية تنفع هاربة حتى تحطم جسدها في الصخور خوفاً ورعباً.

ورغم ذلك بكثـٰت..

لا أريد أن أقفز إلى النهاية..

هزني ما حدث إلى حد الانفعال فمرضـٰت..

بدأت أمعائي تصنع العنبر، لا تصنع الحبيتان العنبر إلا إذا مرضـٰت وأشرفت على الهاـٰث..

رأسي يدور وذيلي يتحرك نصف دورة فأندفعـٰ.

على الماء أكتبـٰ.

المياه تلشمـٰ على السر فأكتبـٰ.

حين كان البحر طفلاً لم يتجدد جبينه بـٰلـٰين السنين والأمواج كان أجدادنا يعيشـٰون على الأرض..

في مكان ما من جسدي الهاـٰثـٰ.

في نقطة ما من عقلي المخبـٰء..

وفي نقطة تحتفي وراء عرش من الزيـٰت.. وتقع بين اللحم والدم والاعصاب ترقد صورة قديمة..

أرض رمادية مضـٰبة.

يتتصاعدـٰ من البراكين فيها بخار أرجواني يختلط باللون الاصـٰفرـٰ

تدبـٰ على التراب أقدام الـٰيناصـٰرات وأقدام أجدادنا..

كان أجدادنا وحوشاً أعظم حجماً من الديناصورات.. وكان الديناصور قد بدأ ينقرض من الأرض..

كان حجمه هائلاً.. وعقله صغيراً.. ورغباته كثيرة.. ولم يكن قادراً على التكيف وسط ظروف الأرض المتغيرة..

وكان أجدادنا يقاسون من نفس المأساة..

كانت الأرض تهيأ لاستقبال جنس جديد يسمونه الإنسان. وكان هذا الجنس غير معروف لنا على وجه التحديد.. كنا نسمع عنه كلمات غامضة مثيرة.. وكانت الملائكة تتحدث عنه بدقة وحب، وكان اقتراب هبوط هذا الجنس على الأرض يحمل نذيراً بهول غريب لكائنات الأرض الوحشية.. لا أحد يدرى ماذا أصاب وحوش الأرض حتى اشتعلت بغضب هائل واندفعت تقتل وتسفك الدماء.

لم يعد باقياً من الوحوش البائدة غير جنس آباء الحيتان وأمهاته. كنا أعظم الوحوش حجماً فكسينا المعركة..

امتلأت الأرض بالدماء والخرايب.. وهرع أجدادنا إلى البحر جماعات جماعات.. نظروا إلى الأرض وأدركوا أن حياتهم فيها لم تعد ممكناً.. خلت الأرض من الوحوش المنافسة، خلت من الطعام.

وبدأ أسلافنا يقفزون في المياه.

لم يكن أمامنا غير حل من الثني.

أن نبقى على الأرض ونهلك جوعاً، أو نقفز في الماء ونجو..

وقفزت آلاف من أسلافنا في المياه.. كانت لنا أيد وأقدام ورؤوس وأنوف. يتصور الناس أن الحوت سمكة.. ليس كهذا القول إهانة لجنس الحيتان.. دم الأسماك بارد ودمنا حار..

نحن حيوانات ثدية عشنا على البر في عصور ما قبل التاريخ ثم بحانا إلى البحر لتخلي الأرض للإنسان.

عفواً.. دمي يفور كلها ذكرت الإنسان.. أغوص في البحر حانياً متدفعاً.. قيل لأسلافنا وهم يقفزون في البحار:

- طوبى لك أيتها الكائنات العظيمة..

تصيرون ملوكاً للبحر لا يناظركم عليه غير الإنسان، يطاردكم أحياها وأمواتها. بعد موتكم تصيرون عطراً لعدوكم، وزيناً لقناديله وطعاماً لأطفاله، ودواء لأمراضه.

لقد سخركم خالق الكون للإنسان.

لم يكن هبوطنا في البحر هبوط إهانة. على العكس من ذلك..

كان هبوط كرامة.. تماماً مثل هبوط الإنسان إلى الأرض.

إن حجم المياه أكبر من حجم الأرض أربع مرات.. وفرصتنا في النمو أكبر من فرصتنا على

الأرض أربع مرات.. وطعامنا أكثر أربعة أضعاف.. غير أننا نهبط إلى البحر وقد انغرس في
أعماقنا الصراع الوحشي ضد الانسان.. وشيء من الدهشة في نفس الوقت.
كان هذا منذ ملايين الملايين من السنين.

خلالها لم تعد لنا حاجة لايدينا.. تحورت أقدامنا ورؤوسنا وأنوفنا.. صغار وحوش الأرض
القدامي هم حيتان البحر الآن..

حدثني خلية في جسد أمي بكل هذه الأسرار قبل أن أولد.
لست أذكر أين ولدت.. أذكر وجه أبي..

كان رهيباً بوجهه الأبيض وحردبه العالية وذيله الجبار.. طوله ٩٠ متراً ونصف متراً، أمي
هي زوجته الثالثة.. لا يزيد طولها على ٢٥ متراً، حسناء رشيقه، لونها يميل إلى الرمادي الفاتح..
كانت أمّاً مثالية. لم أر أمي تبتسم أبداً.. لم أر أبي يضحك أبداً..

سألت: لماذا لا تبتسم الحيتان؟

قال أبي: اخرس.. كيف تبتسم أنت وحوش البحر..
نظر أبي لأمي نظرة حانقة بطرف عينه وقال:
ـ جاء ابنك رقيق المشاعر مثلث فعليك الغضب..
ـ أخذتنى أمي إلى البحر متعددة عن أبي وهمست لي:
ـ أنت وحش يا حبيبي فلا تخذل ماما وبابا.

كانت طفولي بسيطة.. لولا نظرات أبي وتعليقاته الوحشية. حين ولدت كان طولي يزيد
قليلًا على عشرة أمتار ونصف متراً.. دار أبي حولي متخصصاً وقال لأمي: لا بأس بطوله.. يعجبني
لونه الأبيض.. أرجو أن يأخذ طباع أبيه.
قال تعليقاته ومضى يغوص في المياه..

كانت طباع أبي معروفة في المحيطات كلها. اشتهر بالبطش والقوة والسرعة، وهي ثلاثة
صفات لا بد من توافرها في وحوش البحر وسادته.
ولقد أدركت حين كبرت أن أبي كان سيداً على البحار كلها..

بعد ستة عشر شهراً قضيتها في رحم الأم، رضعت ستة أشهر.

لم أر أبي فيها غير مرتين.. وأعترف أنني أحببت أمي طوال أشهر الرضاعة أكثر مما أحببت
أبي.. كانت حانية رقيقة، ولم أرها غاضبة غير مرة واحدة حين هاجمني سرب من أسماك القرش
الصغيرة.. تصبورت في البداية أنها جاءت تلعب معي ثم اكتشفت أنها تهاجمي وتعصبني.. كنت
طفلًا ضعيفاً طوله عشرة أمتار.. صرخت أنادي أمي فانشق المحيط عنها وقد تحول ذيلها إلى
مروحة جبارة تضرب ضربات خرساء عمياء في كل اتجاه.. وأدهشني أن ضربات ذيلها كانت تمرق
أجسام أسماك القرش فتولى هاربة.. لم يستطع أحدها أن ينال مني غير قطعة من لحم الذيل..
صارت فيها بعد علامه مميزة.. واندلع حقد ي عميقاً على أسماك القرش.. واشتهرت حين كبرت
بأنني ولوع بالتهم العشرات منها سداداً لدینها القديم.. ولقد أعطيت أسماك القرش في مقابل

لحظة الخوف الوحيدة في طفولتي .. ليالي من الرعب الأسود المتشابك وسنوات من الخوف المتصل ..
- أقبل حوت العنبر الأبيض، ذو الذيل المشوه ..

هكذا كانت حيوانات البحر تعلن عن مقدمي ..

ساعتدل تولي الأسماك واللحوش هاربة فامضي في طريق أخلاقه الخوف المخوف ذاته ..
أنهيت فترة رضاعتي وجاء أبي ..

سأل أمي مشيراً بذيله إلى ماذا حدث لذيله؟

قالت مزهوة: الحوت سر أبيه .. تركته وحده فهاجمه سرب من أسماك القرش ..

قال أبي: عظيم .. كيف تصرف الوحش الصغير؟

قالت أمي - وهي تنظر نحو خائفة - تصرف الوحش الصغير كأي وحش صغير ..

قال أبي وهو يضرب الماء بذيله: حمدآ لله .. حمدآ لله .. اتبعني إليها الوحش .. انتهت طفولتك
وبدأ دروسك ..

أدهشني أن أبي صدق أنني تصرفت كوحش .. ماذا لو علمتني صرحت أستنجد بأمي ، ما
أعظم دهاء الإناث وكيدهن .. كانت أمي تحميي بكلمتها من بطش أبي .. وفيما بعد حدثني أنه
لو علم ما حدث لقتلني ضرباً بذيله ..

قتل قبل ذلك ثلاثة حيتان ضعيفة ولدتها له زوجاته الآخريات وهو يقول:

- أفضل لللحوش أن تموت مستوراً من أن تعيش خائبة ..

قللت إنني أحببت أمي أكثر من أبي . استمررت فترة الحب ستة أشهر ..
هي فترة الرضاعة بعدها أحببت أبي عامين مما فترة المدرسة .. بعدها غاص حبي لأمي في قرار
المحيط ، وسط حبي لأبي في زبد الموج ، وصرت وحشاً حقيقياً حين كففت عن الحب ...
بعدها ، لم يعد هناك من يستطيع أن يتصدى لي أو يسبح أمامي أو يسمع عني ولا يرتجف .
أنت أعتبر أن من يراني ولا يتخطى رعيّاً هو مخلوق يتوقع على ، وتلك جريمة تستوجب العقاب
السريع ..

وهكذا تسبقني سرعتي نحو المتحدي فأواجهه .. ويتحرك ذيلي نحوه فأحاطمه ، وينفتح فمي
آمامه فيغيب في جوفي ..

ثلاث حركات موسيقية سريعة تتم قبل أن تدرك الضحية ما حدث .. وأحياناً أفتح فمي
وأنطلق .. بعد أن أمر تطبق المياه على الصمت .
يصير جوفي مقبرة للمتحدي قبل أن يموت .
التهمه صاحياً ليموت على مهل في بطني ..

بعدها أقفز من المياه لأعلى ، شاكراً أنعم الاله .. مرتعشاً من خشتيه طالباً رضاه ..
كان من الطبيعي أن يكون التدريب على استخدام الذيل أول درس نلقاه من أبي في
المدرسة ..

كانت مدرستنا تقع في بحار الشمال البعيدة ، حيث تقف جبال الثلج العائم شاهدة علينا
طوال الوقت بصمتها المازيء المتحدي .

كان فصلنا يضم ستة حيتان من الذكور.. وكان أبي هو المدرس العبوس الذي يتحرك ذيله نحو المخطىء فيصييه بالطمة خفيفة يظل تأثيرها ليالي طويلة.. كان جبلاً من الصخور يرقد فوق جنبك أو بطنك أو رأسك.. حسبما تقع الضربة..

في الأيام الأولى من المدرسة تذكرت بالأسى أيام الرضاعة الحلوة.. كانت أمي تuum على جنبها وهي تنظر نظرة ساجية، بينما أنا مقوس أنتصب بجانبها وقد التقمت ثديها في فمي، لا أحدق فيها وإنما أحدق بهدوء وثبات بعيداً عن الثدي، كأنما أحيا حيتين في وقت واحد.. يحتاج الحوت حين يمتص اللبن من الثدي احساس بأنه يستطيع ذكريات غير مائية، ذكريات تحييء من عالم الروح حيث يسود سلام رائع وأمن عظيم.. انتهى الأمر وتبدد السلام القديم في الأيام الأولى للدراسة.

كنت خائفاً من أبي.. لا أنكر.. وكنت أحس بالشوق لأمي.. لا أنكر. وكأنما أدرك المدرس العبوس ما يجهول بخاطرنا جميعاً فقال: - عندما يغادر الحوت أمه يغادر سجنه الأصغر.. فإذا غادر أباه غادر سجنه الأكبر.. بعدها ينطلق وحشاً في المحيطات لا يوقفه شيء.. قال أبي كلماته ثم قفز من الموج قفزة جبارية فانحدر الماء من حوله كان ألف جزيرة تقفز في الفضاء..

حين هبط ثانية إلى الماء ضرب المياه بذيله ضربة تقعقعت لها عظامنا الطفلة المسكينة.. قال المدرس: هذه أبسط ضربات الذيل.. أريد أن يهتز الأفق البعيد بأصوات الانفجار وأنتم تضربون المياه.. نبدأ بأكثركم وحشية.. وأشار بذيله نحوني.. سُئلت: هل أقفز أم أضرب الماء أولاً.. قال: أقفز أولاً أيها الغبي..

قفزت لأعلى.. صرخ يستحني أن أفجر عروقي وأنا أقفز.. صرخ إنني أقفز كأسماك القرش البائسة، ثم غير رأيه وقال إنها قفزة تشبه قفzات كلاب البحر المضحكة.. عاد يصرخ مطالباً بقفزة ملكية.. قفزة حقيقة.. لأعلى.. أريد أن تصل رؤوسكم إلى الشمس.. مرة ثانية لأعلى.. أضرب الآن بذيلك.. خيل إلى من فرط القوة التي أودعتها الضربة أن رشاش ضربتي سيطفي الشمس.. قال أبي صارخاً: لم أسمع غير تهيدة سمكة مريضة.. عاد يضرب ذيله في المياه وقد اشتتد هياجه عن هياج البحر.. وعدنا نضرب وراءه..

استمر التدريب يوماً كاملاً.. خيل إلى في نهايته أن جبال الثلوج قاربت أن تذوب من فرط مجهدنا المتصل.. حين سقطت الشمس في آخر المحيط قرصاً أحمر.. قال مدرستنا وهو يستدير ويكتسي:

- تنامون هنا حق الصباح ..
لم يفكر أحدنا في أمه .. ذابت فترة الأشهر الستة الماضية في عناية يوم واحد ..
ضاعت منا أيام الجنة الأولى .. وها نحن نهبط بحار الشقاء دون أن ندرى أي ذنب
كسبناه ..

نممت في مكاني من فرط التعب ..
وافتتحت عيني في اليوم التالي على الدرس الثاني في استخدام الذيل ..
أيقظتنا انفجار قوي هو صوت مدربتنا وهو يضرب الماء بذيله، كان أبي يحرك نفسه بيسير
ورشاقة يتوجهان خلال جبروت القوة .. بل لعل رشاقته كانت تستمد جمالها من قوته .. وفي كل
شيء جمبل آسر الجمال تلعب القوة دوراً سحرياً ..

قال أبي في ابتداء درسه الثاني دون أن يفتح فكه .. قال بشكل عملي:
ـ يختص ذيل الحوت خمس حركات كبيرة.

أولها أنه يستخدم كزعانفة تعين على الحركة والتقدم، والثانية حين يتخذ درعاً للهجوم أو
الدفاع ، والثالثة حين يحرف به ويكتسح المياه، والرابعة في استرخاء على المياه أثناء الصلاة،
والخامسة حين يرفع الشطريتين في اتجاه عمودي على المياه أثناء التسبيح .. ولئن بدت الحركات
الخمس سهلة على قراء المياه النظريين فإنها في المياه جهد مفتاح.

وبما أن ذيل الحوت أفقى في وضعه فإنه يتحرك على نحو مختلف عن ذيول جميع الحيوانات
البحرية الأخرى .. وهو لا يتعصّل أبداً .. فالتعصّل في الإنسان والأسماك من أمارات النقص ..
والحوت مبدأ من النقص، وذيله هو وسيلة الوحيدة للدفع، وبما أنه يلتف كالволجة أماماً تحت
الجسم، ثم يقفز بسرعة إلى الخلف، فهو الذي يمكن الحوت من حركة انطلاقه الفريدة الواثقة حين
يسبح بعنف وهياج .. أما الزعانف الجانبية فتعين على المخر ليس إلا ..

أفهمتنا الدروس أن حوت العنبر حين يقاتل حوت عنبر آخر فإنه يستخدم رأسه الجبار
وفكيه .. فإذا انتقل الأمر إلى الصراع مع الإنسان فعل الحوت أن يستخدم ذيله فقط،
ليس في الأمر استهانة بالانسان أو ازدراء له ..

كل ما في الأمر أن استخدام قوة تزيد عن الحد، مع مخلوق يقل عن الحد، ليست غير جهد
معيب بغير حد ..

الرأس والفك إذن لصراع الوحوش والحيتان ..
والذيل وحده للصراع مع الإنسان والسفين ..
وفي ذيل الحوت حساسية مرهفة .. وأحياناً يقف عصفور مائي على ذيل حوت سابق ..
ويحس الحوت على الفور نوع الطائر من وزنه، يعرف أي طائر هذا ومن أي الجزر جاء ..

في اللحظات التي تشرق فيها الشمس ..
وحين يكون قرصها أحمر اللون لم يدركه اصفار الشبخونحة تصطف آلاف الحيتان وتبد
تسبيحها للله ..

ترفع جيئاً شطيري ذيلها منصوتيين في الفضاء، عمودية على البحر متوجهة للسماء.. ومن قرار الأعماق التي لا قرار لها.. يبدو الذيل الضخم وكأنه يحاول التثبت متثنياً بالسماء السابعة. وليس أعظم في الطبيعة الحية من هذا المنظر.

قلبي يخشع حين أذكره، وأذكر كيف تأرجح أجساد الحيتان وأذناها عمودية على البحر ضارعة إلى الله بتسبيح الصباح.. ساعتها يشهد لنا البحر أن الحيتان هي أشد مخلوقاته تقوى وأعظمها ورعا.

في العام الثاني من دراستي أبديت نبوغاً مميزاً عن رفافي الحيتان، وكان بشيراً بعجد يتظمني فيها بعد.

كان ذيلي الذي شوهته أنني سمكة القرش بقعة من نار تشتعل في الماء وتلهبني كي أتفوق.. لم تكن أسماك القرش طعامنا الأساسي، كان الأخطبوط وجبننا الدسمة.

غير أنني آثرت أن أجعل أسماك القرش طعامي الأساسي مع الأخطبوط.. كنت أندفع وسط قطعانها برأسى مفتوحاً عن آخره، محركاً ذيلي في نفس الوقت حركاته القاتلة، وكانت أخلي البحر منها في ثوان قليلة، وأترك القطيع بعد أن أغسل فمي من دمائه في المياه.

مررت الأمواج وانتهت فترة الدراسة..

لم يكن باقياً غير عام نقضيه في دراسة التيارات البحرية..
بعدها نخرج للقاء الإنسان..

أذكر أول مرة خرجت فيها لرؤيته..

قاد أبي القطيع متوجهًا نحو بحار الجنوب الدافئة..

شاهدنا لعبة خشبية صنعت من نباتات على البر يسمونه الأشجار.. فوق هذه اللعبة الخشبية مخلوقات غريبة تتشي على أقدامها وتحرك أيديها وتتنفس من فمها دخاناً..

قال قائدنا الأشهب: هذه هي السفن.. وهؤلاء هم أبناء الإنسان

رفعت رأسي وتأملت هذه الديدان التي تعلي ظهور عيدان وملائني الدهشة.. وهذا عدونا الخطير القديم..

إن حجمه لا يزيد عن حجم ندبة صغيرة في ذيلي المشوه..

كيف يكون المخلوق بهذا الحجم الضئيل، ورغم ذلك يحسب له الجبارية منا كل هذا الحساب.

قلت لأبي ونحن عائدون: وهذا هو الإنسان؟.

قال: أظنك تحقر حجمه.

قلت: نعم.

قال: وترى نفسك أقوى منه؟

قلت: نعم.

قال: وتحسب أنك تستطيع أن تخطم سفنه وتلتهمها معه؟
قلت: بالتأكيد.

قال: مخطيء أنت بكل تأكيد.. هذا المخلوق الذي رأيته من بعد كبقعة أو ندبة، هو أخطر أعدائنا على الاطلاق.

قلت: أين تكمن خطورته؟.

قال أبي: هل لاحظت رأسه.. إن رأسه مغطى بشعر أسود..

قلت: رأيت ذلك فأين وجه العجب؟.

قال أبي: يكمن سر قوته في رأسه المغطى.

قلت دهشًا: رأسه كله في حجم نهاية أصغر أسنان العاجية.

قال أبي مؤكداً: أسنانك بارزة.. ورأسه مغطى.. والفرق بينكما لا يزيد على ذلك. أنت قوي لا تخفي قوتك، وهو ضعيف يخفي قوته.. لن تعرف أبداً من أين تأتيك ضربة الإنسان.. لن تعرف أبداً كيف تتقىها مقدماً.. إنه لا يعلن لك عن أفكاره، إنك تقترب منه في دهشة لتأمل هذا الحوت الخشبي العائم الذي يحمل فوقه مخلوقات تدخن.. وفجأة.. يتمزق قلبك وتختبط في دمك وتهلك.

لا تعرف من أين جاءتك الضربة.. ولا كيف جاءتك، إنك ترى الإنسان يقف في مكانه كأنما هو يحرك يده بشيء.. أنت تضرب بجسمك حين تضرب، أما الإنسان فلا يستخدم جسده.. يستخدم أشياء نجهلها تماماً.. لم يقل لنا أي حوت قتيل كيف أردوه، أو بأي أداة سحبوه نحوهم ولا كيف مزقوا جسده قطعاً صغيرة.

كل ما ندريه أن حيتان العنبر حين تقع في أسر الإنسان.. يزداد النور في سفنه حتى لتسير السفينة أثناء الليل مثل شعلة من الضوء.

زاد الأمر غموضاً بعد حديث أبي..
ملأني اليقين أن الإنسان يملك قوى لا تملكها الحيتان، وحاولت عبثاً أن أفك في هذه القوى فلم أصل لشيء، وسرعان ما نسيت الإنسان.. ظلت دهشتي منه غريقة في أعماقي، وظل سؤالي عن أسرار قوته بغير رد. انصرفت مؤقتاً لشئوني.
كان عليّ أن أو كد ذاتي في بحار الشمال والجنوب والشرق والغرب. وكان عليّ أن أصارع أجناس الحيتان الأخرى حتى تتوجني عليها، ثم انتقل من صراعها إلى صراع بقية أنواع الوحوش، ثم انتقل منها إلى ترويع المحيط بمخلوقاته حتى تتوجني عليها.. بعدها أبدأ الصراع مع حوت العنبر المتوج فإذا انتصرت عليه صرت سيد المياه. استغرق الصراع مع بقية الأنواع عشر سنوات.. كان أبي خلاماً قد هرم وثقلت حركته وزداد الشحوم حول جسده وصار يتحرك كجزيرة عائمة تنفس.

وكعادة الحيتان.. أحالت الأمواج أبي إلى المعاش وصار أقوى حيتان العنبر سيداً على

البحر.. كان الحوت الذي احتل مكان أبي حوتاً جباراً أسود أبيض الذنب. كان أبي يرقب تقدمي
البطيء الواثق في هدوء أقرب إلى التأمل.
لم يعذبني يوماً عن آماله القديمة في اعتلاشي عرش المحيط..
ولم أحدثه أيضاً في ذلك.. كان كلانا يعامل الآخر بتحفظ حذر واحترام بالغ.. ضاع حبي
له وبقي الاحترام.. كنت أسأله كلها رأيته..
- كيف حال الحوت العجوز؟.

وكان يجيب: ثقلت عظامه ويداً فمه يجد طعم العنبر.
وأسأله: ماذا يعني ذلك أنها الحوت العجوز؟.
ويجيب: بدأ الموت يغزو والدك فمكى تركب قمم الأمواج ل تستقر عظام أبيك على عظام
المحيط..
وكنت أجيه: قريباً أنها العجوز.. قريباً.. ربما شهدت قبل موتك تاج المياه يتنتقل
لابنك..

كان انتقال التاج يقتضي معركة وحشية مع الحوت المتوج، وكان هذا الحوت صاحب فك
عظيم وذنب جبار.
وكنت في مثل قوته، ورغم ثقتي أنني أستطيع هزيمته فقد أرجأت القتال معه قليلاً.
لم أكن أريد هذا النصر المزري الذي ينتصر فيه المنتصر لأنه صمد أكثر أو ضرب أكثر أو
أجهد نفسه أكثر..
كنت أريد تفوقاً ساحقاً لا يسمح لي بأكثر من لحظة صراع أمرقه فيها. ولقد اقتضاني هذا
أن أوّل الصراع بعض الوقت.

كنت أثناءه أتدرب على شيء لم تتدرب عليه الحيتان من قبل..
شيء أوحى به إلى ذات يوم موجة عاتية..
شاهدت موجة تحطم صخرة من صخور الشاطئ... أعرف أن الموجة ألين من الصخرة
وأضعف، كيف يحطم الأضعف الأقوى.. جرى تفكيري للإنسان الذي حذرني منه أبي.. قلت
لنفسِي. ربما انكشف سره مع سر هذه الموجة. راحت أدرس الموج أياماً وشهوراً متابعة..

أخيراً عثرت على السر.
اكتشفت أن الموج لا يكفي أبداً عن حركته المعتمدة، إنه لا يسام من لطم الصخور..
يتدرُّب الموج كل يوم.. هذا سر قوته..
عدت بذاكرتي إلى أيام الدراسة الأولى وتذكرت كيف تكتفِّي الحيتان عن التدريب اليومي
بعد انتهاء الدراسة، وتكتفي بالحياة العملية.
قررت أن أشد عن جنبي وأتدرب في الخفاء..
وهكذا اعتدت الاختفاء كل يوم نصف نهار في نفس مكان مدرستنا القديم. كان المكان
مهجوراً لم يعد يتدرُّب فيه أحد.

كانت جبال الثلوج التي طالما شهدت عقابنا ونحن أطفال لم تزل تقف شامخة هادئة كما هي .
وأندلعت داخلي رغبة غير مفهومة في تحطيم أحد هذه الجبال .
أليست هي الشاهد الوحيد على ضعفي أيام الطفولة .. ينبعي أن يزول أكبر هؤلاء الشهود
حتى تخاف بقية الجبال .

اخترت أعنى الجبال وقررت البدء به .. كنت أحرك ذيله وأنقض على جبل الثلوج برأسى
وفكي .. في المرة الأولى أصابتني الضربة بالدوار .. وظل الجبل على حاله بغير خدش واحد .
وعاودت المحاولة برفق، ثم بقوة أكثر .. ثم بعف .. في نهاية اليوم .. كانت هناك ثغرة في الجبل
تشبه الكهف .. وكان رأسى يوجعني قليلاً .. وإن أحسست أنه يزداد صلابة . كان طول رأسى
يزيد عن ثلاثة متراً .. وكان الجبل هائلاً لا يريد أن يتزحزح ، قلت لنفسي وأنا أنصرف عنه :
- سيسقط التدريب كل شيء .. غداً يزول الجبل ..

ظللت ثلاثة أعوام أضرب الجبل كل يوم آلاف الضربات برأسى ، ثم جاءت اللحظة
الخامسةأخيراً وتحطم الجبل ..

انشق نصفين محدثاً صوتاً هائلاً جعلني أسبح بعيداً عنه ، ثم وقفت رافعاً رأسى في المياه
متأنلاً هذه الكتلة الهائلة التي تميل على جنبها في المياه ..

هزني الزهو الوحشي فعدت .. لم أنسف الجبل ولم أحركه من مكانه ولكنني كسرته
نصفين .. صنعت فيه شقاً طويلاً جعله جبلين صغيرين . انتهى الأمر .. وصار بقاء الحوت
الأسود ذي الذيل الأبيض على عرش المياه مسألة قد فرغ منها ..

خلال فترة التدريب القاسية التي فجرت فيها عروقي من الجهد ، وعقلني من العناء .. كان
ملك الحيتان المتوج على المياه يقضي أوقاته في البحار الدافئة مستمتعاً بأنائه الجديdas ، تماماً مثل
سمكة سمينة وكسولة من أسماك البوري ،

انتهى الأمر بوحش الأعماق ورعب الموج فصار سيداً للحب والغزل .. واضطربت الأحوال
الداخلية في دنيا الحيتان ، صارت الأناث الضعاف والحيتان المرضى تقتل كل يوم بالعشرات
واصطبغ المحيط بدمنا الدافئ المتدفع العبيط ، وبذا واصبحاً أن البحر لم يعد ملكاً لبني الحيتان ،
أغار الإنسان على البر وها هو يمد فنوده إلى البحر .. ولم تكن مشكلة بهذه تتحمل التردد .
ينبعي أن يخلع ملك الحيتان عن عروشه ..

لا يستحق هذا العجوز المتهالك على الأناث تاج الأعشاب الخضراء التي تلتف حول رأسه
حين يخرج من القاع ..

لم أكن أفهم هذا التزوع للأناث والتهالك عليها ..
لم ألس حوتة منذ أن ولدت ..

لم أعرف ملمس جسد لأنثى غير جسد أمي التي أرضعني .. بعدها آمنت برأي أبي في
الأناث .. آمنت أن الحوت الذي يعيش طويلاً مع الأناث يكتسب كثيراً من عاداتهن ولا يستطيع
أن يظل على وحشيتها .

كنت أعرف أن الحيتان تجتمع كل عام في موسم الحب في البحار الدافئة..
وهنالك يتصدر قيادها حوت واحد..
ومن حق أي حوت آخر أن يصارعه لو أراد اعتلاء عرشه.. ويكون الصراع عادة على
الأناث..

كان الوقت لم يزل مبكراً على اجتماعنا السنوي، لم أكن مستعداً للصبر طوال الشتاء.. كان
أبي ينحدر نحو نهايته بسرعة، ولم أكن لأخذله قبل أن يموت.
وجاء يوم خرج فيه القطيع كله وقد تصدره الحوت الأسود ذو الذنب الأبيض..
طاردتنا سفينة صيد..

نزلت منها ثلاثة قوارب وبدأت تسحب وراءنا.. كنت أستطيع أن أستدير وأهشم القوارب..
غير أنني آثرت أن أنتظر قليلاً لأرى كيف يتصرف القائد المسؤول عن القطيع.. ضرب قائد
القطيع المياه بذنبه ضربات متغيرة لكنه ظل بعيداً عن السفينة. استطعت أن أستنشق لضرباته
رائحة خوف خفي..
في إحدى المرات التي غضنا فيها شاهدت شيئاً يندفع نحو أبي... بعدها انطلقت آهه
الحوت العجوز.. جريت نحو أبي أسأله..
ـ ماذا حدث أيها العجوز.

قال: مرق جسدي شيء لست أدرى كنه.. أرأي تحول إلى ضوء للمصابيح.. أرأي
معلقاً على البر مدل من أسقف المنازل.
قلت: ستعيش فلا تقلق..

خرجت من الماء واستدرت متدفعاً نحو السفينة.. كانت تقبل بكل سرعتها نحوه..
وصرخ عليّ قائد القطيع يحدري من الصدمة.. لم أعبأ بصرخته وازداد انطباق فكي وازدادت
حركة ذيله وازداد اندفاعي..
كان صوت الصدمة هائلاً..

انشطرت السفينة من مقدمتها نصفين.. وقالت الحيتان صارخة:
ـ تحطم جبهة الحوت الأبيض ذو الذنب المشوه. استدررت بعد الصدمة واستخدمت ذيلي
في كل اتجاه.. لم تكن السفينة أقوى من الجبل، وكانت مدرباً على الجبل.. بعد لحظات كانت
السفينة بقواربها وناسها قد اختفت تحت صفحة المياه وانطبق عليها اللون الأزرق.
كان أبي جريحاً.. واقترب منه الحوت الأسود محاولاً اكتشاف عنته ولكنني صرخت عليه من
موضعي أمام الحيتان جميعاً أن يظل في مكانه فهو سمكة خائرة وليس حوتاً..
توقف الحوت واستدار نحوه..

ضرب أبي ذئبه في المياه وراح ينفث.. أدركت أنه فهم ما أقصد.. كان أبي يختضر..
واردت أن يراني سيداً للبحار قبل أن يموت. لم يستغرق صراعي مع الحوت وقتاً..
اندفعت نحوه قبل أن يندفع نحوه وأطبقت فكري على رأسه. غاصت أنفابي العاجية
الجبارية في رأسه.

هشمت رأسه مثلما أهشم بيض الأسماك حين أربع جسدي على قاع المحيط..
كانت قوتي تكمن في رأسي، وكانت قوته تكمن في ذيله.. وقد هشمت رأسه قبل أن يستخدم ذنبه.

وهوى الحوتان في المياه..

جسد أبي وجسد سيد البحار بعده..

رفعت ذيلي عمودياً على الماء ونفخت.

رفعت الحيتان بعدي أذناها عمودياً على المياه ونفخت..

قدمت خصوشعها لي، بصفتي ملكاً متوجاً على المياه، ثم قدمتنا معًا خصوشعنا لله.. بوصفة رب الموت والحياة.

ومرت أمواج وأمواج..

لم يعد في المحيطات الأربع حوت مثلي.. دانت لي وحوش البحر بالطاعة، ودانت لي الأمواج بالخصوص.. وانكشف لي سر التيارات البحرية، وبقي سر الإنسان مختلفاً أمام عقلي.. وأقسمت إلا يمر الإنسان وسط أمواج شهدت مصرع أبي واعتلت فيها عرشي.. أقسمت أن أحطم كل سفينة تمر من هذه المياه..

لقد جاء الإنسان من الأرض فأنخرجنا منها..وها هو يبدأ غزوه للبحر فينبغي التصدي له وإعادته إلى البر..

انعقدت جبهتي على ذلك..

وظللت وفيًا لقسمي سنوات..

على امتداد سنوات لم تكن سفينة تمر في البحر وتستطيع أن تنجو..

لم يكن إنسان يجرؤ على هبوط مياه البحر ويعود سالماً..

حتى لو استقر في جوف سميكة قرش، فلما يُكْنَى ليهنا باستقراره.. إنما كنا نحمل سمكة القرش ذاتها إلى جوفنا..

ورغم استمرار الصراع مع الإنسان.. ورغم هزيمة الإنسان فيه وانتصار الحيتان.. بقي سر الإنسان طلسمًا لا يعرف حله أحد..

كيف ينجو الإنسان من جوف الحوت؟

عذبني السؤال طويلاً ثم جاء يوم.

كنت راقداً في أعمق جزء في المحيط.

أرسّيت عظامي على عظام القاع وفت.. صدرِي يمتلء بهواء يكفيه حتى النجاة..
ثم فوجئت أنني مستيقظ ومشلود الحواس..

لم أدر السبب فيها حدث.. رأيت نفسي أصعد إلى سطح البحر دون سبب مفهوم.. خيل إلى أن يد القدرة التي تسير أصغر الأمواج كانت تحرك ذيلي..
وصلت إلى سطح البحر.. كان هائجاً مزبداً.

أتكون العاصفة قد بدأت.. نشت قليلاً وقررت أن أعود إلى القاع.. كان الجزء الذي اخترته من القاع هادئاً بالقياس إلى هذا السطح.. فجأة لمع في ذهني سؤال كالبرق.
كيف يكون السطح عاصفاً والقاع هادئاً.. أعرف من تيارات الماء متى تحيي العاصفة..
أعرف ذلك قبل أن تحيي.

.. أتكون قوانين الموج قد تغيرت خلال إغفاءتي القصيرة؟

وقفت أمام السؤال حائراً.

فوجئت بأن سفينتي تتأرجح هناك.

أسرعت نحوها بهياج وعنف.. قلت أساعدها على الغوص بضربي.. لم أكذ أصل إليها حتى
فوجئت بأنني نسيت ما جئت من أجله.. رأيت نفسي أسبح خلف السفينية وكأنني خرجت في
نزة بحرية..

لست أعرف ماذا أصابني.. كان الظلام كثيفاً ومنطبقاً فقلت: لعلني لم أستيقظ بعد..
شاهدت شيئاً يسقط من سطح السفينية.

تقدمت نحو هذا الشيء فرأيتها أمام عدو القديم.

إنسان يتختبط في جوف الهياج الجامح.

تقدمت نحوه وفتحت فكري.

دفعته موجة قوية داخل الفك.

أغلقت عليه أنني العاجية والتقمته.

هزني رعدة قوية وأنا أسمع صوتاً ولا أرى أحداً.. كان الصوت يحيي من كل مكان ولا
يحيي من مكان محدد.. كان الصوت لأحد ملائكة الله.. كان الصوت يقول:
ـ لم يجعله لك رزقاً بل جعلناك له حرزاً ومسكناً، خده ولا تكسر له عظاماً، ولا تخدش له
لحماً.

في بداية الأمر، لم أفهم قصد الكلمات، تنفست نفساً عظيماً وغضبت في أعماق البحر..
ظللت أغوص حتى وصلت إلى القاع.
أرحت عظامي وأغفيت.
لم أكن أحس أنني أنا.

اعترف أنها كلمة تثير الدهشة ولكنها تعبر عن إحساسي الحقيقي وقتئذ، قبل أن أنام فكرت
في الغرائب التي شاهدتها.

تساءلت كيف يكون السطح هائجاً عاصفاً بينما القاع ساكن راقد.

تساءلت لماذا أستيقظت. ما الذي أصابني حين رأيت السفينية فلم أحطمها.. من هو

الانسان الذي سقط منها .. هل ألقى نفسه أم ألقاه أحد .. لماذا ألقى بنفسه .. ما الذي فعله ..
لماذا التقمته.

ما معنى الكلمات التي حذرتني من المساس به .. كيف أبتلعه ولا أخدش له جسدا؟
دارت الأسئلة في رأسي وثقلت وطأة السر عليّ فاستسلمت للنوم.
أستيقظت حين انتهت كمية الهواء في رئتي.

خرجت إلى السطح .. كان هادئاً صافياً بغير موجة واحدة .. راحت أنفث
تذكرت ما حدث ليلة الأمس .. وخيل لي أنني كنت أحلم.
جاء موعد إفطاري فهرعت نحو خليج تكثر فيه الانحطاطات. وصلت إلى الخليج وحاولت
أن أفتح فكي لأنناول وجبة الإفطار فلم أشعر داخلي بأي رغبة في الطعام.
ما هذا ..

أكون مريضاً دون أن أعلم.

مررت جواري سمة متواحشة من أسماك القرش.

كانت عادي أن التقمها صاحية، وأهضمها على مهل في جوفي .. حاولت أن أفتح فمي
لابتلاعها فلم أستطع .. لم أجد داخلي رغبة كافية تمكنني من فتح فمي . أدركت أن الغرائب التي
عايتها في الليلة الماضية لم تكن حلماً كما ظنتت.
كانت واقعاً لم تزل آثاره مستمرة.

فكى المنطبق وبطني الزاهد دليلان على تغير لست أدريه.
قفزت ساجداً نحو السماء سائلاً تفسير ما وقع.
أحسست بحضوره دون أن أراه ..

ثنيت جسدي تحية للملك وقلت:

- أيها الملك الكريم .. إن الحوت الأبيض ذا الذنب المشوه مريض ويرى أحلاماً. ليلة
الأمس وقع لي حادث مرروع.

قال : وقعت ليلة الأمس معجزة.

قلت: أيسماح سيدي الملك الأمر في البحر أن يحدثني عنمن أبتلعت ليلة أمس.

قال: أبتلعت ذا النون.

تساءلت: معدنة بجهلي .. من يكون ذو النون؟.

قال:نبي وديع ونسمة كريمة.

قلت: هل ألقى نفسه من ظهر السفينة؟.

قال: ساهم فكان من المدحدين.

قلت: التقمته دون أن أعرف أنهنبي .. لم أكن أعرف أن ابتلاعه سيستدعي حضورك ..
أو حضور أي ملك من الملائكة.

قال: لم يجعله الله لك رزقاً؟.

قلت: ولكنـه في جوفي .. انتهى الأمر وصار لي رزقاً.

قال: لا.. هو في جوفك ولكنه ليس رزقاً لك.

قلت: لماذا ابتلعته إدن.

قال: أنت له حرز ومسكن؟

قلت: كيف يكون الوحش حرزًا ومسكناً لبني هو الوداعة؟

قال الملك: أيها الحوت.. تأمل جسد الإنسان.. وهو أعظم منك وحشية.
تأمل نفس الإنسان أو روحه.. أليست هي النقاء والوداعة؟ تأمل كيف يعيش الاثنين معاً.. الجسد رداء للنفس، والنفس لب للجسد، والجسد هو الوحش، والنفس هي الوداعة.

قلت: كيف تنجو النفس من الجسد؟

قال: كما تنجو الوداعة من الوحش.

قلت: كيف تنجو الوداعة من الوحش؟

قال: مثلما ينجو يونس من جوفك.

قلت: كيف ينجو يونس من جوفي؟

قال: سترى كل شيء.. تذكر فحسب أنك صورة لحوت.
أنت وحش حقاً ولكنك لست أعظم وحشية من جسد الإنسان.
انطبق الجسد على النفس فلنرى كيف تنجو النفس.

انصرف الملك وتركني وحدي.. أصبح فوق سطح أزرق غامض صرت أشك في زرقته.
زاد كلامه الأمر غموضاً في عقلي.. يقول لي إنني صورة لحوت.. أيعني هذا أنني لست حوتاً حقيقياً.. أيكون ما يقع لي الآن أحلااماً لا تقع لي.. أيكون كياني الوحشي جسداً لمعجزة دون أن أدرى، أو يكون رمزاً لشيء لا علاقة لي به.

اعتنقت الشمس عرশها في قلب السماء.. لم أزل سابحاً أنفث.. تعبت، من السباحة فقلت
استريح قليلاً في أعماق البحر.. ثيت ذيلي الجبار وغضت.
أغوص في مياه سوداء متفكراً.

ماذا يصنع ذو النون في جوفي الآن.. وكيف تنجو الوداعة من الوحش؟

للمرة الوحيدة في حياتي أحسست أنني أشفق عليه.

ليست كلمة الاشفاق معروفة في قاموس الوحش.

هي كلمة متحجرة بائدة لا يستخدمها من الوحش أحد إلا إذا مرض وتراءى له وجه الموت.

أتراي مريضاً يتظاهر الموت.

أتراي لم أعد وحشاً كما كنت.. لكنني طوال طريقي إلى الأعماق كنت أشهد مخلوقات الفاع تفر أمامي.. تخبط بالرعب وتحطم على الصخور وتهرب.

وحش لم أزل كما كنت.. فمن أين تأتي هذه الرقة.. أيكون هذا الذي التقمته بالأمس هو المسؤول عنها أصابني من ضعف.. أليس نبياً.. أليس نسمة مباركة.. أليس وديعاً.. لا ريب أنه المسؤول عنها أصابني من وداعه وبؤس.. وليس أعظم بؤساً للموحش من مرضها بالوداعة.

أردت أن أكرهه فلم أستطع.. أردت أن أنساه فلم أتمكن.. احتل النبي جوفي وعقلي معاً.. حدث الله أني لم أبتلع سمكة القرش الوحشية في الصباح.. لو ابتلعتها لأكلته السمكة.. نسيت أننا طردنا من البر بسبب الإنسان.. نسيت كل العداوة السحرية بين جنسنا وجنسه.

تركز تفكيري في شيء واحد.

ماذا يفعل النبي في جوفي الآن؟

فكرت في المياه السوداء التي أغوص فيها، وجوفي الذي ينطبق عليه، وأحسست بوطأة مأساته.

اصطدمت بالقاع فأوقفت حركة ذيلي وتوقفت.

مررت جواري آلاف الحيوانات البحرية والوحوش وهي تؤدي التحية بسرعة المخوف والتخبّط.. رأيتها تتشي مضيئه ينبعض ضرورها منها.. في الأعمق البعيدة من البحر.. تنكسر قوانين الشمس وتقوّت الشمس ذاتها بعد ثلث البحر الأول.

بعدها تتطبق مملكة الظلام.. ذكرني ضوء الوحوش السابحة بظلمة جوفي وتساءلت: كيف يجلس النبي وسط هذه الظلمات؟

- لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

كان الصوت غير معروف لدّي.

أعرف أصوات الوحوش والحيوان والأسماك.. ليس هذا صوت أحدٍها بالتأكيد.

حركة ذيلي حولي لأرى من يكون مختبئاً في أعماق الظلمة فلم أجده أحداً.

- لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

لم يزل الصوت يتعدد.. بلا انقطاع يتعدد.. لا يكف ولا يمل ولا يسكن ولا يسام..

كلمة وراء كلمة.. لا تكاد تنتهي الجملة حتى تعود كما بدأت من جديد.. دورة كدورة الشمس أو دورة القمر.

اعتصرت ذهني تفكيراً لأعرف من أين يجيء هذا الصوت.. ثم لمع في عقلي فجأة أن الصوت يصدر مني.

شاهدت شيئاً يشبه النور يخرج من جسدي مع كل تسبيحة.. أدركت أن النبي السجين في جوفي يسبح الله.. أصابتي رعدة شملت جسدي كله.. أحسست أن العرق ينعقد على جنبي الأشهب حبات كحبات اللؤلؤ.

حركة ذيلي وأوقفته عمودياً على القاع.

قلت أتبع ذا النون ما دام لم يتبعه أحد.

- لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

ترتعش الكلمات بحب يضيء ظلمة القاع، وتتوهج المياه بحنو لم أكن أحسب المياه تنطوي عليه.. اتصلت الشرارة من جوفي بذرات المياه وأعشاب القاع المتحجرة وصخوره القديمة ورماته الطينية.

استيقظ قاع البحر وأنصت لتسبيح ذي النون.

- لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

يفرد النبي ربه بالألوهية، ويقدسه بالخصوص، ويرمي نفسه في نفس الوقت بالظلم.. راحت أنفك في معنى الظلم، ما الذي تعنيه الكلمة.. كيف كان ذو النون من الظالمين.. مادا فعل. أحست أن الأسئلة تطبق على عقلي وتکاد تهشمـه فاندفعت خارجاً.. ففررت من المياه ساجداً لأعلى وتساءلت:

- مـاذا فعل النبي الذي أحـملـه في جـوـفي يا رب؟

لا صـوت غـير صـوت الأمـواجـ.

لم يـبـيـنـي أحدـ.

أـيـكـوـنـ سـؤـالـيـ تـجـاـوزـاـ لـرـتـقـيـ فـيـ الـخـلـيقـةـ.

ملـاتـ رـئـيـ بـهـوـاءـ الـبـحـرـ وـرـاحـتـ أـنـفـثـ.. الشـمـسـ تـغـربـ هـنـاكـ.. والنـبـيـ دـاخـلـيـ لـاـ يـكـفـ عـنـ
التـسـبـيـحـ.

تأملت غروب الشمس.

قلبي ثقيل وصدرـيـ ضـيقـ كـأـنـيـ أـلـقـيـتـ خـارـجـ المـيـاهـ.. حـزـينـ مـنـ أـجـلـهـ.

مـثـلـ ضـرـبةـ الـأـنـسـانـ الـمـجهـولـةـ الـتـيـ تصـيـبـ الـحـوـتـ فـيـهـوـيـ مـتـخـبـطـاـ فـيـ دـمـهـ، أـصـابـتـيـ ضـرـبةـ
حزـنـ دـاهـمـ فـهـوـيـ مـتـخـبـطـاـ فـيـ بـحـارـ الـحـزـنـ.

أـيـكـوـنـ حـزـنـ النـبـيـ السـجـيـنـ يـتـقـلـلـ إـلـيـ.. تـذـكـرـتـ فـجـأـةـ أـنـ مـعـدـتـيـ تـعـمـلـ، عـصـارـتـهاـ تـعـمـلـ..

ربـماـ هـضـمـتـ صـاحـبـيـ الـدـيـ يـسـكـنـ جـوـفيـ.

أـقـولـ صـاحـبـيـ وـأـحـسـ صـدـقـ مـاـ أـقـولـ.

أـرـدـتـ أـنـ أـقـفـ عـصـارـاتـ الـمـعـدـةـ فـلـمـ أـسـطـعـ، أـيـكـوـنـ الـمـخـلـوقـ وـحـشـاـ وـرـغـمـهاـ لـاـ يـسـتـطـعـ
الـتـحـكـمـ فـيـ عـصـارـاتـ مـعـدـتـهـ.. أـيـ وـحـشـيـةـ تـبـقـىـ لـهـ إـنـ كـانـ جـزـءـاـ فـيـ جـسـمـهـ لـاـ يـطـيعـهـ.. بـذـلـكـ

جـهـدـاـ يـائـاـ مـحاـوـلـاـ التـحـكـمـ فـيـ مـعـدـتـ فـلـمـ أـنـجـحـ.. قـرـرـتـ الصـيـامـ. قـلـتـ لـنـفـسـيـ: لـعـلـ الـصـيـامـ
يـنـقـذـهـ.. رـاحـتـ أـفـتـحـ فـكـيـ وـأـمـلـاـ رـئـيـ بـهـوـاءـ لـعـلـ بـعـضـ الـهـوـاءـ يـنـقـذـهـ.. يـتـسلـلـ إـلـيـهـ فـلـاـ يـخـنـقـ.

مـاـذـاـ لـوـ اـخـتـنـقـ أـوـ هـضـمـتـهـ؟

مـاـذـاـ أـقـولـ لـلـمـلـكـ الـذـيـ أـمـرـنـيـ أـنـ أـحـافظـ عـلـيـهـ؟

هـزـنـيـ الـخـوـفـ فـرـحـتـ أـضـرـبـ ذـيـلـيـ فـيـ الـمـيـاهـ ضـرـبـاتـ جـبـارـةـ مـهـولـةـ، وـأـنـاـ أـصـبـحـ:

- أـرـيدـ أـنـ يـعـيـشـ يـاـ رـبـ.. أـرـيدـ أـنـ يـنـجـوـ.

أـصـابـيـ ذـعـرـ غـامـضـ.. رـاحـتـ أـغـرـصـ وـأـنـدـفـعـ خـارـجـ الـمـيـاهـ لـغـيرـ مـاـ سـبـبـ.. ظـنـتـيـ الـحـيـاتـانـ
مـرـيـضاـ وـهـرـعـتـ إـلـيـ.

تسـاءـلـ حـوـتـ: مـاـذـاـ أـصـابـ الـحـوـتـ الـأـبـيـضـ ذـاـ الذـنـبـ الـمـشـوـهـ؟

قـلـتـ: دـاخـلـيـ سـرـ لـاـ يـسـتـطـعـ الـافـصـاحـ عـنـهـ فـانـصـرـفـ.

انـصـرـفـتـ الـحـيـاتـانـ وـبـقـيـتـ وـحـديـ تـمامـاـ.

الموج يرتفع وينخفض.. والتسبيح يرتفع ويرتفع.. لا ينخفض أبداً ولا يتوقف ولا يهدأ
ولا يستريح ولا يكف.

سقطت الشمس تماماً في البحر.

ارتدى الليل آخر ثيابه السوداء.. وارتدى قلبي آخر ثياب الحزن.

ملأت صدري بالهواء وحركت ذيلي وهوبيت نحو القاع.

أرسست عظامي على عظام القاع وسكتت.

أحاول أن أفكر.

حاولت أن أتصل به فهمست في جوف الليل وجوف البحر وجوف الخوف: أيها النبي الكريم.. ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟

قال ذو النون: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

قلت: أيها النبي الكريم.. كيف أساعدك على النجاة؟

قال ذو النون: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

أدركت أنه لا يستمع إلي.. كان مشغولاً بتسبيحه عنِّي.

أغلقت قلبي على الصمت وكففت عن الأسئلة.

رفعت ذيلي عمودياً على القاع ورحت أسبح بطريقي الخاصة.

وانعقد في القاع مهرجان من الخلاائق.

رفعت الرمال رؤوسها وسبحت.. اجتمعات الأسماك وراحت تسبيح.. جاءت الحيتان والوحش وراح كل واحد فيها يسبح بأسلوبه الذي علمه الله له.

كنت مستمراً في التسبيح شاعراً في نفس الوقت بخوف هائل.

كنت جسداً وحشياً لكنني كنت أرتعش، أخفاف الجسد من النفس حين تبدأ التسبيح.

كل ما أدريه أنني كنت على استعداد لأن أفعل أي شيء لإنقاذ يونس.

انتهى ما ادخرته من الهواء فعدت مسرعاً إلى السطح.

رحت أسبح وأنا أنفث.

مرت إلى جواري سفينة فلم أغresaها التفافاً.

جائح لحد الأعياء.

منذ يومين لم آكل شيئاً، والمفترض لا يقل طعامي اليومي عن ألف كيلو من السمك.
قررت أن أستمر في الصوم.

بدأت معدتي تتقلص.. وراحت أمعائي تصنع العبر.

لا أستطيع أن أغامر بابتلاع أي طعام بعد أن ابتلعت يونس.

لو تحركت معدتي فسوق أقتله.

لتبق المعدة هادئة بغير حركة، أو بحركة التقلصات المؤلمة وحدها دون حركة المضم.

- لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

لم يزل تسبيح النبي مستمراً.

أدركت أنني أقتل نفسي بالصوم .. لكنني أدركت في نفس الوقت أن يونس لن ينجو من جوفي إلا إذا قتلت نفسي .
كان يونس قد صار نفساً «ثانية» لي .
وكان كياني قد صار جسداً «ثانياً» ليونس .
ولا تنجو النفس إلا على حساب الجسد .

جاء اليوم الثالث .
صائم لليوم الثالث .. دم القوة ينسحب من جسدي فيعلو صوت تسبيح النفس .
في العمق البعيد من روحي يشرق نور يجل عن الوصف .
امعائي تمتلئ بالعنبر .
تقلصات معدتي تزيد وصوت تسبيحه يتزداد :
ـ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين .
أطوف البحار الباردة والدافتة جميعاً قبل أن أرحل .
ألقي نظرة السلام الأخير على الخلجان والصخور والجزر والحيتان والأسماك والطحالب
والزبد والملح .
أتوقفت عند جزيرة .

تقلصات معدتي تمرق معدتي .
أسمع صوتاً يحيى من كل مكان ، ولا يحيى من مكان محمد «فلولا أنه كان من المسيحيين ،
للبث في بطنه إلى يوم يبعثون» .

فتحت فكري وتبعادت أنيابي العاجية من الألم . وبدأت أفرغ ما في جوفي ..
أطلقت السجين من جوفي على الجزيرة .
عرفت السر قبل أن أموت فيها أقصى المعرفة .
على الماء أكتب .

بالعنبر العطري أكتب .
تدوب الكلمات في البحر وتنطوي الصفحة الزرقاء على السر فأكتب .
 أحلم أنني زيت معلق في قناديل تهتز مع الريح .. تهتز مثل هزات الموج .
تهتز ..
تهتز ..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذَبَّحُوا بَقَرَةً، قَالُوا أَتَشَخَّذُنَا هُرُواً، قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

(سورة البقرة - آية ٦٧)

النظرة المستسلمة الساجدة في عيني الواسعتين لا تتغير أبداً.
الطعام كاف أو غير كاف.
الماء متوفّر أو شحيح.
الشغل قليل أو كثير.
تحتّل الظروف والأحوال، وتغيّر المعاملات والأقوال، ورغم ذلك تبقى نظرة الاستسلام
الساجدة في عيني كما هي .. لا تتغير ولا تتبدل.
الاحظ أن عيون الناس تتغيّر طبقاً للتغيير مزاجهم .. فهل يعني ثبات عيني أنني لا أفعل.
ربما نفعل .. غير أنه انفعال مقيد على شرط، وليس له غير حالة واحدة.. عندما تقف
ذبابة «سئيلة» فوق ظهري أفعل .. أهز ذيلي إلى الأمام محاولة طرد الذبابة .. إذا ظلت متمسكة
بمكانتها فوق ظهري كففت عن هز الذيل واستسلمت ورضخت، والرضوخ متعتي في نهاية الأمر،
إذا كان هذا حالـي مع الذباب، فلا شك أنكم تقدرون موقفـي مع الإنسان .. لا أفعل أبداً
معه .

أخاف أحياناً حين يضربي .. غير أنـي استسلم لخوفي من خوفي منه .. حـيـاة رائـعة .
بقرة وراضـية عن حـيـاتي تمام الرضا .. نـعـمة أنا ولكن لغـيرـي .
لا أعرف متـى أذبح .. أعرف أنـآلاف البقر يذبح، ويـدـوـاـنـاـ نـحـسـ بـنـوـعـ مـنـ السـعـادـةـ
الـغـامـضـةـ حين نـذـبـحـ .. هـذـاـ معـناـهـ أـنـاـ نـحـقـقـ ذاتـنـاـ .. نـتـحـولـ إـلـىـ طـعـامـ هـنـيـءـ يـدـخـلـ جـوـفـ
الـإـنـسـانـ . كـمـاـ نـتـحـولـ إـلـىـ نـعـالـ يـتـعـلـهـاـ أـبـنـاءـ آـدـمـ .. نـطـعـمـهـ وـنـكـسـوـهـ وـنـقـومـ عـلـىـ خـدـمـتـهـ .
شيـءـ كـرـيمـ أـنـ يـكـوـنـ العـطـاءـ طـبـيـعـةـ وـحـيـدـةـ لـلـمـخـلـوقـ .
نـعـرـفـ أـنـ الـإـنـسـانـ يـأـخـدـ مـاـ نـعـنـ الـبـقـرـ .. كلـ شـيـءـ .. حقـ مـاـ يـعـطـيـهـ لـنـاـ يـعـطـيـهـ لـنـاـ بـنـيـةـ
الـإـسـتـرـدـادـ فـيـمـاـ يـعـدـ .



إذا كان يعطي الفول والشعير فهو يريد أن يأخذ لحماً سميناً في المستقبل.
ليس هناك شيء لوجه الله.

المسألة محاسبة ومقدرة ومحروقة، ورغمها لا تنفع.

الانفعال في عرفنا لا يجوز، مثلنا الأعلى أن نقول: دعونا نأكل الفول ونعيش أما شعارنا في
الحياة فهو: الرضوخ هو السبيل للحياة.
هكذا تعلمنا وهكذا عرفنا وهكذا ورثنا.

قال لنا الشيطان يوماً - لو ثار البقر لوقع انقلاب في دنيا البشر.
إن الإنسان يستغل مجدهم في المقول، ويصنع من ألبانكم جبنة وقشدة وسمنًا وعسلًا،
وأخيراً يذبحكم ويأكلكم.. أيها البقر.. إن عدونا وعدوك واحد هو البشر.
لو ظللتم على استسلامكم له فلن تتطوروا أبداً.. لقد ولدتم بقرًا وستعيشون بقرًا وتموتون
بقرًا.. ثوروا.. تحركوا.. أفعلاوا شيئاً.

استمعنا إلى كلام الشيطان، وقالت إحدى الأبقار تحدث زميلة لها:
ـ كنت تتحدثين أيتها الأخت عن الفول الذي أكلته من الحقل الجديد، أكان طعمه مختلف
عن فول الحقل القديم.

قال الشيطان: تحركوا.. كفوا عن الكلام في الأكل وثوروا.
قالت البقرة: كان طعم الاثنين واحداً أيتها الأخت.. هذا الفول وذلك الفول.
انصرف الشيطان يائساً وهو يغمغم بكلام لم تتبينه عن البقر والبشر.
بعد أن مضى الشيطان سألت إحدى الأبقار:

- من كان هنا؟

قالت زميلة: واحد لا أعرفه.

قالت بقرة: أكان يتكلم؟

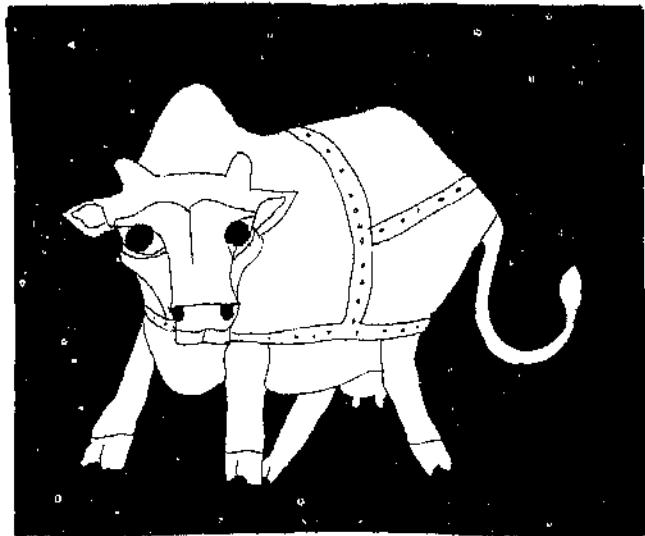
قالت أخرى: كان مفعلاً.. قال شيئاً لم يعلق في رأسي.

لا يعلق في رؤوس البقر شيء.. تسمع الكلام من الأذن اليمنى فيخرج من اليسرى..
رأسنا كبير لا يحمل المهموم ولا المشاكل ولا المتاعب وهذا السبب يعيش البقر طويلاً.. نعتبر أن
يوم الإنسان عاماً بأكمله من السرور والهناء والفول والرضا.
أعيش في بني إسرائيل.

بقرة مملوكة ليتهم.

لم أكن بقرة عادية في الحقيقة.. كنت جميلة وسط البقر. صفراء فاقع لوني يسر الناظرين..
لم يكن في جسمي كله أي أثر لللون آخر.. لم أكن كبيرة ولم أكن صغيرة.. متوسطة كنت ولطيفة
يندر العثور على مثلي في البقر. أريد أن أتكلّم قليلاً عن بني إسرائيل.. ناس يثيرون دهشة
البقر.

تسمع الكلام فيعجبك.. وترى الأفعال فتستعجب.
كلامهم في وجوه بعضهم حلو.. فإذا استدارت الأفقيّة تحول الحلو إلى مر.



اسمع طبعاً عن سيدنا موسى .

هذا نبيهم الكريم وكليم الله ..

لم أره أبداً ولكنني سمعت عنه .. وكان الكلام عنه متناقضاً وغريباً .
إن عدد الذين يحبونه من بني إسرائيل أقل بكثير من عدد الذين يكرهونه .
وهذا طبيعي فيما اعتقد .

جاء موسى بالحق .. وما أثقل الحق على النفوس الظالمة .

لا أفعل أو أرفع صوتي بها .

أقولها بربضاً .. ما لي أنا بهم .. هم أحرار في أنفسهم .

أعيش في حالي .. ومن عاش في حاله ذبح في النهاية . وعظمة البقر أنه يذبح في النهاية .
كان اليوم مشمساً دافئاً .

اسمع هذا التعبير دائماً .. أستطيع أن أفهم معنى الدفء .. أستطيع أن أعرف معنى النظافة .

ليس البقر كالجاموس يشرب من ماء عكر ملوث .. أو ينام في فراش مبلل أو غير نظيف ..

نحن نعشق النظافة ونرفض ما عدتها ..

الشيء الذي لا أفهمه هو الشمس .

اسمع الناس تتحدث كثيراً عن يوم مشمس .. وشمس حارة .. وشمس شرق وشمس تغرب .. ولكنني لم أر الشمس في حياتي مرة واحدة .

أحس أحياناً أن هناك شيئاً حاراً يتخلل جسدي كله و يجعلني أعرق .. فهل هذا هو الشمس ؟

لا أعرف.

يقولون أن الشمس في السماء.

وهذا يزيد الأمر تعقيداً.. فلماين هي السماء؟

من المعروف أن البقر يستطيع أن ينظر أمامه.. أو خلفه.. أو يمينه أو شماله.. لكن البقر لا ينظر لأعلى أبداً.. لا تنظر البهائم لأعلى.

ليست هناك بقرة تنظر لأعلى وتأمل الشمس.. لو صح أن هناك شمساً.. على أي حال.. إذا كان وجود الشمس غير مؤكداً.. فإن الشيء المؤكد هو وجود الفول.. أكلت في الصباح قدرأ عظيمًا من الفول.. زلطة الفول بنصف مضيق.. توفيراً للوقت والجهود وتأكداً من التهام أكبر كمية ممكنة.. بعد ذلك أرقد على بطني على الأرض.. أجتر ما أكلته في الصباح.

جحيح.. جحيح.. جحيح.

صوت فمي وهو يمضغ.. متعة هو المضغ.. والبلع أمنع.. والأرض نظيفة.. والتراب رطب.. والنطل منت.. والسكنون تام السكينة.

اندلعت الصرخة فجأة.

حولت رأسي بيضاء.

لا يهتز البقر ولا ينفعل.

عادت الصرخة تشتبك بصرخة ثانية.. ثم اشتعلت القرية كلها بالصرخ.

- قتل اييلياتيل.. أغنى أغنياء بني إسرائيل.

لا أعرف هل كان اسمه اييلياتيل أو بنiamين أو شعورايم.. اسمه صعب فلم احفظ به في رأسي.

الأمر لا يهمنا ولا يتصل بنا فلماذا نهتم.

لم نستطع أن ننام هذه الليلة من فرط ضجيج القوم.. اختصم أهل القتيل ولم يعرفوا قاتله، ويبدو أن هذا القتيل كان رجلاً له مركزه في بني إسرائيل، ويبدو أن خفاء قتله كان داعياً لشيء يشبه الفتنة.

قرر القوم أن يلجموا النبي الله موسى.

سألتني إحدى الأبقار: هل ذهبت القرية لموسى؟.

قلت: نعم

سكتتنا على ذلك يومين.. ثم سألتني في اليوم الثالث.

- ماذا قال موسى؟.

قلت: لا أعرف.

قلنا نسأل.. سألنا بقرة قابلناها في حقل.

- ماذا قال موسى؟.

قالت: أسأل لكم.

سكتنا على ذلك يومين.. ثم صادفنا البقرة فسألناها ماذا قال موسى فقالت نسيت أن
أسأل؟.

ونسينا الموضوع كله، ثم فوجئنا أن الناس تتحدث فيه.

عرفنا من الناس أن موسى قال لقومه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾.

الموضوع يتصل بنا إذن.. هذا شيء يثير الاهتمام.. والاهتمام شيء والانفعال شيء آخر.. الاهتمام في عرفنا جائز.. والانفعال لا يجوز.

سألنا - أي بقرة ذبحوها؟.

فوجئنا انهم لم يذبحوا بقرة.

سألنا - كيف؟! لم يبلغهم موسى أن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة؟.

فوجئنا مرة ثانية أن بني إسرائيل قالوا لموسى: «قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين».

جرأة لا حد لها على النبي الله موسى.. لقد أمرهم أن يذبحوا بقرة.

وكان المفروض أن يذبح القوم أول بقرة تصادفهم.. غير أنهم بدأوا مفاوضاتهم باللجاجة،
إتهموا موسى بأنه يسخر منهم ويتحذهم هزواً.

إن البقر لا يتصرف هذا التصرف لو كان في مكانهم.

استعاد موسى بالله أن يكون من الجاهلين ويسخر منهم.. أفهمهم أن حل القضية يكمن في ذبح بقرة.. إن الأمر هنا أمر معجزة لا علاقة لها بالمؤلف في الحياة أو المعناد بين الناس.
ليست هناك علاقة بين ذبح البقرة ومعرفة القاتل في الجريمة الغامضة التي وقعت.. فليضرب بنو إسرائيل القاتل بجزء من البقرة المذبوحة.. قتيل مات.. وبقرة ذبحت.. لو ضرب بنو إسرائيل شيئاً ميتاً يبعضها لعرفوا القاتل.. سيستيقظ القاتل من موته ويبوح باسم قاتله.

ما هو الغريب في هذا؟

معجزة.

نعم معجزة.

ليست منطقية ولا معتادة.

لكن متى كانت الأسباب المنطقية هي التي تحكم حياة بني إسرائيل.. إن المعجزات الخارقة هي القانون السائد في حياتهم.

لقد ضرب موسى البحر بعصاه فانشق البحر نصفين وعبر بنو إسرائيل وغرق فرعون وجنته.

أيندهش الناس بعد هذه المعجزة من معجزة ثانية.

لو كان البقر مكانهم لما تصرف هذا التصرف.

أكاد أن انفعل لو لا أن الانفعال لا يجوز.

ليس استمرار المعجزات في حادث البقرة أمراً يوحى بالعجب أو يثير الدهشة.

لكن بني إسرائيل هم بنو إسرائيل .
 مجرد التعامل معهم عنت .. و مجرد التفاوض معهم تعب .
 أتعبا قلب نبيهم أتعب الله قلبهم .
 أقوها بلا افعال .
 لا ينفعن البقر .. يلاحظ ما يلاحظه بغیر افعال .
 لم تزل المفاوضات مستمرة .
 بنو إسرائيل يعودون إلى موسى .
 ﴿قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾ .
 مرة أخرى يتحدثون عن البقرة .
 مرة أخرى يسأل موسى ربه و رب العالمين . و يعود إليهم بالجواب .
 ﴿قال: إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر.. عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون﴾ .
 الكلام شديد الواضح .. البقرة ليست صغيرة ولديت عجوزاً .. هي وسط بين ذلك .. كان المفروض أن يذبحوا أي بقرة متoscلة .
 لكن ماذا تفعل في بني إسرائيل .. إنهم لا يطعون الأمر .. لقد ذهبوا لموسى حل القضية ومعرفة القاتل وها هم يؤجلون المعرفة بلجاجتهم وتنطعهم .
 ﴿قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ما لونها﴾ .
 عجيبة ..
 أهذا يصح يا بقر .. لن نقول يا ناس .
 أهذا يجوز .. ما هي القيمة التي تكمن وراء لون البقرة .. إن البقر كله لا يلاحظ لونه ولا يلتفت إليه ولا يهتم به .. ما هو الشيء الخطير الذي يحتاج إلى ذهاب موسى إلى الله تعالى لسؤاله عن لون بقرة .
 ثم لاحظ كيف يقولون له - أدع لنا ربك .. أدع لنا ربك .
 كأنه ربه وحده .. كأنه ليس ربه .. كأنهم يتصلون من عبوديهم لله .. لا نظن أن بعد هذا التنطع تطبع .
 رغم ذلك .. فعل موسى الحليم الكريم ما سأله .. علمًا بأن موسى رجل سريع الغضب .. لقد ثار قبل ذلك حين عاد من ملاقات ربه ووجد قومه يعبدون عجلًا وألقى ألوان التوراة من يده .
 إلقاء ألوان التوراة على الأرض تصرف خطير .
 فقد الرجل حلمه .. ما رأه يفقد الحليم حلمه وهدوءه .
 إن البقر لا يعبد العجل .. فكيف يهبط الإنسان من مستوى لأدنى من مستوى البقر .
 يعبدون عجلًا !!
 يعبدون زوجنا نحن البقر !!
 رغم كل شيء ذهب موسى إلى ربه يسأله عن لون البقرة .

﴿قال إله يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين﴾ .
ظننت أن المسألة قد انتهت.

قتل موضوع البقر بحثاً ودرساً وتنطعاً ولجاجة وتسويفاً وتأجيلاً وسوء أدب واستهتار . .
قتل الموضوع قتلاً . . ورغم ذلك ، ما زال عند بني إسرائيل مزيد من اللجاجة والتنطع . .

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾ .
بعد كل ما حدث لم يتبيّنوا ما هي . . بعد كل الأوصاف السابقة لا زالوا لا يتبيّنون .
مدهش . .

يكاد جنبي يطق وتنفجر بطني وينشق كبدى . .
رغم ذلك . . عادوا يقولون لموسى :

﴿إن البقر تشابه علينا وإنما إن شاء الله لهتدون﴾ . .

عاد موسى الحليم الكريم يسأل ربه . . وعاد يقول لهم . . ﴿قال إله يقول إنها بقرة لا ذلول
تشير الأرض ولا تنسقي الخروث مسلمة لاشيه فيها﴾ .

انطبقت الأوصاف عليّ . .

ماذا تظن بني إسرائيل قالوا؟ .

﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾ . .

كانه كان يلعب قبلها معهم . .

كانه لم يكن قد جاء بالحق من أول كلمة لأنخر كلمة . .

أكاد أفقد طبعتي وذاتي وانفعل . .

حين انتهت مفاوضات البقرة . . كنت أنا البقرة المقصودة أكاد أطق من جنابي الأربعه . .
روحى في أنفي من فرط الضيق . .

مت قبل موقي من حاجة بني إسرائيل وتنطعهم . .

أسيـر نحو قـدري ومصـبـري . . أـسـيـر نحو السـكـين وـأـنـا أـهـزـ ذـيـلـ رـاضـيـةـ . .

كلـها تـصـورـتـهم عـلـى موـائـدـ المـفـاـوضـاتـ معـ نـبـيـهـمـ مـوـسـىـ . . كلـها تـذـكـرـتـ لـجـاجـتـهـمـ وـتـنـطـعـهـمـ
سـاعـلـتـ نـفـسـيـ :

- إذا كانت هذه صورتهم على مائدة المفاوضات مع نبئهم الكريم موسى فكيف تكون
صورتهم على موائد المفاوضات مع غيره؟

عَصَّا مُوسَىٰ

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْ مُوسَىٰ أَنَّ الَّتِي غَصَّافَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

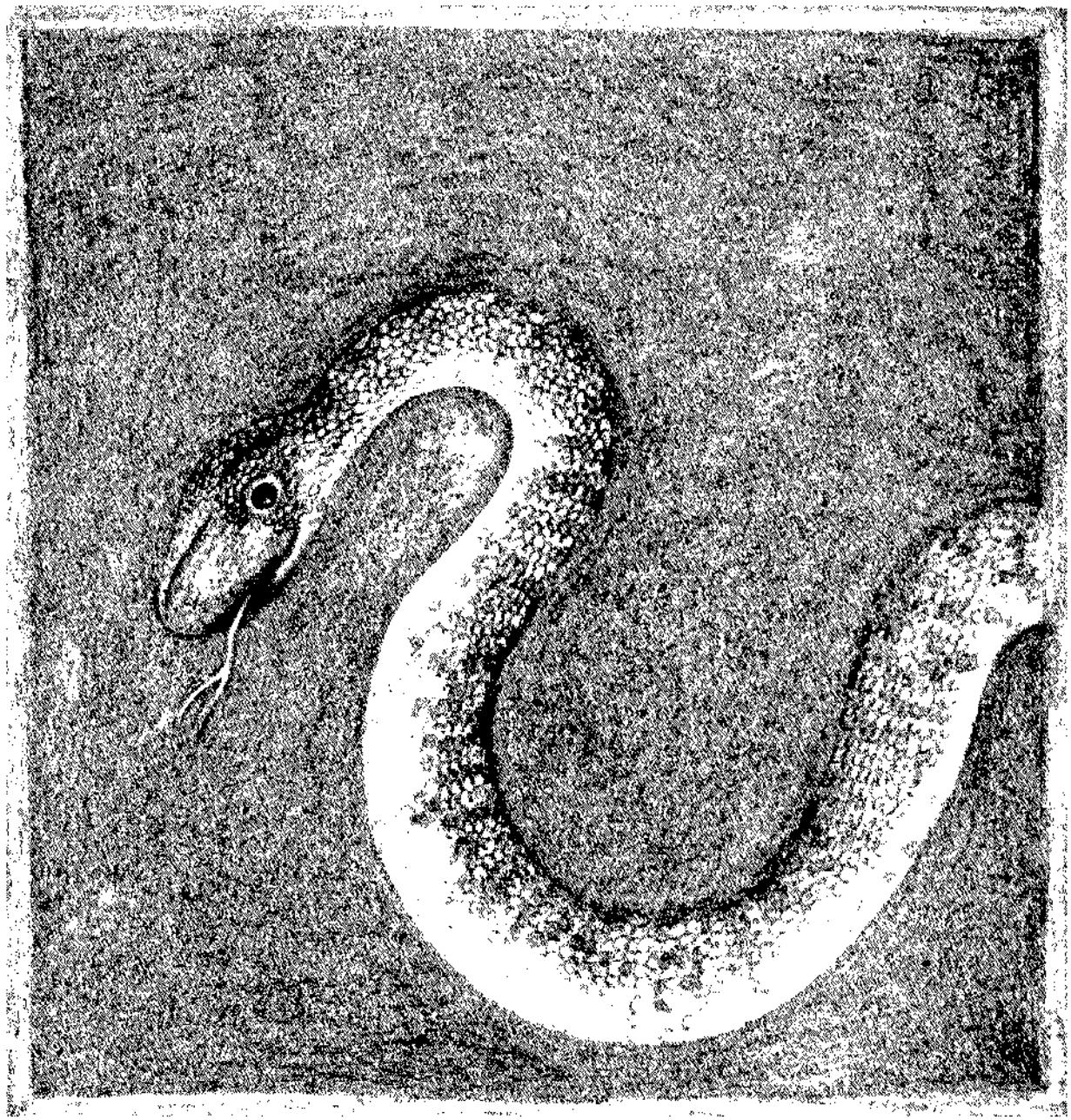
(سورة القراءة - آية ١١٧)

لماذا يرتدي البستان لون الخضراء حيناً، وحياناً يتعرى؟
لماذا تخترق الصحراءات بالعطش ويتجمد الثلج كالدموع على قمم الجبال..؟
لماذا تشرق الشمس في لون النار ثم تتحول عند المغيب إلى لون الدم؟
ولماذا يتغير القمر وهو أجمل من النجوم ويعدو من فرط التحول صورة للهلال..؟
لست أعرف جواب كل هذه الأسئلة، وحتى لو عرفت فلن أقول، إنني أعرف كيف أتجنب
البوج بما يكتشف لي من أسرار.

كل ما أعرفه إنني كنت نباتاً، ثم تحولت إلى جماد، ثم تحولت من جماد إلى حيوان، ثم
ولدت من صوري الحيوانية آية كبرى من آيات الله.. كان اسمي عند موسى... عصايني،
وكانت حقيقتي عند الله تعالى « شيئاً آخر تماماً».
عصا موسى... هذه أنا... .

أدب على الأرض.. ارتفع ثم أهوي أثناء سير النبي.. لا أعرف السر في حكمة الأشياء
ولا أعرف لماذا وكيف؟
في البدء كانت الشمس تتحيني الخضراء والليونة، فلما مت صارت الشمس تتحيني الصلابة
والقوه.. .

اليس هذا مدهشاً! إن الموت نهاية للقوة كما نرى في الخلاائق، الموت تدمير للقوة.. لكنني
كنت فرعاً في شجرة فلما مت زدت قوة، وهكذا يحمل الموت لبعض الخلاائق تدميراً كاملاً لقوتهم،
ولكنه عند بعض الخلاائق الأخرى يكون إيداناً بزيادة القوة، وكلما مر وقت على الموت زادت القوة.
إن فروع الأشجار حين تموت تحول إلى عصي، وهذه العصي لا تكتسب قوتها إلا حين
تغادرها العصارة الحية من الماء وتزايدها كل صور الحياة.. .



وهكذا تولد القوة من قلب الموت وهو الفناء.. فسبحان الله خالق الصور والتحولات..
أؤمن بالله.. تؤمن النباتات بالله كما تؤمن به الجمادات.. مختلف تسبيح النباتات عن
تسبيح الجمادات.. ولكن شيئاً في الوجود لا يكفي عن التسبيح لله..
أنا عصا موسى إذن.. أعرف شهري في تاريخ النباتات، ولم أكن أعرف بعد اختياري
كعصا، وإرسالي إلى فرعون أن العصا لم يعصي، لقد عصى فرعون ولا شيء يقنع العصابة
إلا العصا.. لا أريد أن أتمايل مع الأفكار كها ثمايلت مع الرياح حين كنت فرعاً في شجرة..
أريد أن أبدأ منذ البداية الأولى..

شجرة..

كانت بدايتي الأولى شجرة.. غصناً كنت في شجرة تنتهي للحدائق الملكية في قصر
فرعون.. هذا انتهائي الذي عرفني به الناس، ونحن كأشجار لا ننتهي أساساً للناس،
يزرعنا الناس ونتسمى إلى الله بالعبودية، ونولد من بذرة أبوها هو الماء وأمها هي الشمس..

شمس.. شمس..

دفء جميل يغطي فروعي كلها، وشمس استحم في سخونتها، وإحساس رائع بالثبات
وجلوري تغوص في الأرض وتسلل إلى حيث يمتد النبع القريب بمائه البارد..
أطرافي في الماء ورأسي في الشمس.. إتصال بالأب والأم طوال الوقت، وذلك إحساس ممتع
لا تعرفه سوى الأشجار، يظن كثير من الناس أن الأشجار لا تحس، وهذا وهم، إن غرور بعض
الكائنات يصور لها أنها هي وحدها التي تحس، وهذا أيضاً وهم، ليس هناك كائن لا يحس..
الفرق بيننا وبين الإنسان أنها نعبر عن إحساسنا بالصمت والحضور، وأحياناً نعبر عنه بالصمت
وأنعدام الحضرة، لنا أسلوبنا الخاص في الإحساس، ولنا أسلوبنا الخاص في التعبير عنه، ليست لنا
إرادة مع إرادة الخالق.. وليس لنا مراد غير مراد الخالق، وليس لنا اختيار، لا نعرف الخير ولا
نعرف الشر، نحن مسخرون لأشياء، ونحن نؤدي وظائفنا دون خطأ واحد وبلا إبداع أيضاً...
محبورو نحن ولكنه جبر يضعنا في قلب الأمان العظيم.

في بداية الخليقة عرض الله تعالى أمانة التكاليف على السماوات والأرض والجبال، فأبین أن
يحملها وأشفقن منها وحملها الإنسان.. الحمد لله أنني واحدة من المخلوقات التي نجت من حمل
الأمانة، ونجت وبالتالي من المحساب والمساءلة..

يرى بعض الناس أن المخلوقات التي لا تحمل أمانة التكاليف الشرعية أقل من المخلوقات
التي تحمل هذه الأمانة، وليس من حقي أن أقول أينما أقل أو أكثر، ولا هو من حقي أن أقول أينما
أكبر أم أصغر.. لقد نجوت برحمه الله حين خلقي شجرة، لو ابني خلقت إنساناً مثلاً - والإنسان
أرقى من الأشجار دون شك - لو حدث هذا - لا قدر الله - لكان هناك احتمال أن أفعل ما يفعله



بعض العصاة، أن يكون المخلوق عصاً.. أفضل من أن يكون عاصياً، أن يكون المخلوق شجرة
نجت من عقاب الله أفضل من أن يكون إنساناً غضب الله عليه.. الحمد لله الذي خلقني
شجراً.. قد أكون أقل رقياً من الإنسان أو أقل تعقيداً منه ولكنني لا أغضب الله.. وهذا حسي
من الوجود، وهذه هي الثمرة العظمى التي لا يراها على فرعوناً أحد سوى أصحاب القلوب
المبصرة، وما أندرهم في كل عصر ومصر.

من مصر أنا... .

ولدت في مصر لتأديب جبار في مصر.. .

لا أريد أن أسبق الأحداث.. .

أعرف أن هذه الحياة سر.. .

لا أعرف سر حبي للنماء والشمس، ولا أعرف لماذا أتمايل مع الرياح حين تهب الرياح.. .
لست أعرف لماذا أحب الماء وأثمو حين أشرب، ولست أعرف لماذا أموت كل شتاء وأبعث في
الربيع، ولست أعرف ما هو احساس الخلاائق المتحركة التي تدب على الأرض وتتحرك فوقها.. . لم
أجرب أبداً أن أمشي.. .

جربت أن أغوص بجذوري في الأرض، ولكن المشي بالنسبة لنا تجربة غير مفهومة.. .
لنا أسلوبنا في تسبيح الخالق، ولنا طريقتنا في حمده، وهي طريقة تعلمها الأشجار أثناء
طفولتها كنواة أو بذرة.. .
وهذه الطريقة سرنا الذي لا نبوح به لأحد.. .

ولنا أيضاً سجودنا الذي تعرفه الأشجار كما تعرفه النجوم.. نحن نسجد لله بأسلوبنا الخاص الذي علمه الخالق لنا.. لا تعرف بقية الخلائق إننا نسبح أو نسجد، ولكننا حين نفعل نحس باحساس مدهش لا أعرف هل يحسه الناس وهم يسجدون أم لا يحسونه..

كنت فرعاً في شجرة في الحديقة الملكية لفرعون...
لم أكن أرتاح لفرعون، أحياناً كنت أراه وهو يمشي في الحديقة، أحياناً كان يتوقف تحت ظلي ويقول كلمة الحاد ينكر بها الله.. كانت العصارات الصاعدة إلى من باطن الأرض تقشعر وهي تصعد.. أن فرعون يقف تحت ظلي.. وليس ظلي سوى نعمة من الله.. كانت نعمة الله تتطلّب فرعون ورغمها كان يتجاهد خالق النعمة
لست وحدي التي أحس هذا الاحساس.. كل الخلائق تقشعر اذا صك سمعها جحود البشر
أو الحادهم..

لقد قبلنا نحن الخلائق النباتية ان نقيد في الأرض ولا نمشي، وقبلنا مرتبة اقل في سلم الخليقة، وقبلنا الا تكون أحراراً لكي لا نقع في احتتمال معصية الله، فكيف نشعر بنعمة الله نعمة الحرية والاختيار والرقي فكان رده على هذه النعم كلها هو جحود الخالق، كنت أقشع كلها من فرعون جوار سافي أو وضع يده على، كنت أقشع حين يلمسني وكانت أحس بما يشبه الاختناق حين تهب على أنفاسه..

لم أكن أكرهه.. نحن لا نعرف الكراهيّة كنباتات، نعرف الألم ولكننا لا نكره.. يبلغ تواضعنا حد الألم وحده، لكنه لا يصل أبداً لحدود الكراهيّة..
في نفس الوقت، كان هناك ثلاثة أرثاح لوجودهم تحت ظلي.

زوجة فرعون.. ورجل مصرى من آل فرعون.. وطفل بني إسرائيل الذي كبر الآن وصار رجلاً، هؤلاء هم الثلاثة الذين كانوا يحبون ظلي ويجهتون تحته، كنت أرتاح لوجودهم قريباً مني، فقد كان الثلاثة مؤمنين بالله، وكان الثلاثة يكتمون ايمانهم.. وفي قصر فرعون لم يكن مسماحاً لمن يؤمن بغير الفرعون أن يعلن ايمانه. كان الرجل جباراً من جبارية الأرض، كان لا يتورع عن شيء ولا يوقفه شيء، وكان أسهل حل لديه هو القتل، ورغم أنه كان يبعث الخوف في أشجع النفوس، لم نكن نحن الأشجار نخاف منه.
كنا نشمئز فقط.. نقشع ونشمئز.. لكننا لم نخاف أن نعلن عن ايماننا بالله، وكنا نعلن بالخضرة والجفاف عن هذا الایمان..

اقرب الشتاء واقترب موعد موتي، تموت الأشجار في الشتاء وتبعث في الربيع، كان فرعون يرى موتنا ويعذنا من الموت ورغم ذلك كان يشك في يوم قيامة البشر..
اذا كانت الأشجار تموت وتبعث أمام أعين الناس في كل عام، فهل يكون البشر أهون شأنًا من الشجر.. أعرف أننا نعرض معجزة الموت والبعث على عيون الدنيا وقلوب البشر كافة.. ولم تكن هناك غير ثلاثة قلوب تعي في قصر فرعون..

كان العدد قليلاً فما أشد غربة الأشجار حين يقل عدد المؤمنين في الأرض.
 جاء الشتاء أخيراً وحان وقت موتي.

موت الأشجار واقفة.. أغمضت خضرتي وراحت أورافي تساقط.. كنت أشعر بأورافي
تنفصل عن فروعي وتبدأ رحلتها مع الهواء حتى تصل إلى الأرض.. لا تخزن الأشجار عندما
موت في الشتاء، ننطوي على جوهر الفرح ونعطي الشكل الخارجي للحزن..
لا نرى.. لا نسمع.. لا نتكلم.. يبطئ تسبينا في الشتاء.. يبطئ سجودنا في الشتاء
ويطول..

مررت أيام الشتاء الأولى دون حوادث.. ثم هبت عاصفة شتائية ذات مساء.. مع البرق
وددم الرعد وراح يسبحان بحمد الله.. لا أعرف ما الذي حدث بعد ذلك..
هوت شرارة من السماء على حديقة فرعون.. كانت الأقدار تنسج بيد اللطف الخفية التي
تحرك الكون أموراً تتظارني فيما بعد، وكان سقوط الصاعقة خيراً يرتدي قناع الشر.. وقعت
الشرارة على رأسي فانقسمت نصفين ثم هويت مشتعلة..
اشتعلت بعض أطرافي ثم هطل المطر فانطفأت النار.. حين انجلت العاصفة كان الجزء
الذي سقطت فيه في حديقة الفرعون قد صار خراباً.
حطمت بقلي حين سقطت نصف أشجار الحديقة.

حطمت حين هويت جزءاً من معبد قريب كان يخلو لفرعون أن يعتكف فيه ويتأمل.. وأكاد
أقسم - لو جاز للأشجار أن تقسم - أن فرعون كان أغنى من أن يتأمل.. كان يهوي الأماكن
المفتوحة والحدائق، وكان يوحى له أنه يفك أو يتأمل، وكانت ذاته المتضخمة توحى عادة
إليه أنه أحكم الناس وأذكي الناس وأقدر الناس.. ولكنه في الحقيقة كان طاغية يرتدي قناع
المهرج.. وكانت قدراته العقلية مختلفة عن القدرات العقلية للأشجار - لو كان للأشجار قدرة
عقلية، وكثيراً ما كنت أحس بالدهشة من اعتقاد فرعون أنه حكيم أو ذكي أو مسيطر..
لم يكن فرعون يفعل شيئاً على الإطلاق.. كان جهاز القهر الذي يحكم مصر يبدأ من هامان
وينتهي بأصغر جندي من جنود الفرعون في الوادي.. أما فرعون ذاته فكان لا يفعل شيئاً
سوى تتبع أخبار المعارضين له، والتتكيل بهم، وكان هذا الجهاز العجيب يحكم فرعون وإن كان
فرعون لا يدرى أنه محكوم..

ذلك شيء يشبه الطين الذي يحيط بالجذور.. تتصور الجذور أنها هي التي تمسك الطين
وتحصل منه على ما تريده من الطعام والشراب، والحقيقة أن الطين هو الذي يمسك الجذور ويحيط
بها ويمدها بما لديه لا بما تريده..

كان نظام حكم فرعون يقوم على القهر والتهريج معاً.. وهذا شأن الأنظمة التي تقوم على
عبادة الفرد وانكار الله.. ومن أرض هذه الأنظمة تولد بدور الدمار النهائي الشامل..

ومن سوء هذه الأنظمة تهوي الصواعق على الأشجار.. اشارة موجية لما سوف يقع للأنظمة ذات يوم ..

وقد كان فرعون مبصرا، ولكنه لم يكن يرى بقلبه، وهكذا لم يفهم ان الصاعقة التي هوت على الأشجار في حديقته الملكية كانت انذاراً من الله تعالى له.. كانت رحمة من الله لعله يفتق او يرجع .

لم ير فرعون فيما حدث غير شيء أطلق عليه اسم الصدفة، وهذا صدريت أوامر فرعون أن تقتلع الأشجار الممحظمة، وأن تعاد زراعة الحديقة، وأن يتم ترميم المعبد الذي كان يجلس فيه ويعبد هواء دون أن يدرى أنه يعبد هواء.

وهكذا حملوني من الحديقة الى تاجر أخشاب وياعونى له، وقد فرح هذا التاجر بوجودي فرحاً شديداً، فقد كنت شجرة خشبها من نوع ثمين.. وهكذا عكف الرجل على صنع مجموعة من تماثيل الآلهة الوثنية من خشبى .. كما أنه صنع مجموعة من العصي الجميلة التي أهديت للباطل الملكي ..

تفرقت بعد وجودي كشجرة في عدة أصنام ومجموعة من العصي ..

وقد وقعت عصاة مني من نصيب موسى .. صرت عصا يمسكها موسى .

تغير احساسى حين صرت عصا، كنت نباتا فأصبحت جمادا، كجماد تحدمت على كراهية فرعون واشتدت صلابتي تجاه طغيانه، والجمادات أقل احساسا من النباتات ولكنها تحس، لها أسلوبها الخاص في الاحساس، الفارق بين النباتات والجمادات ان الجمات لا تنمو ولا تتحرك ولا يبدو على ظاهرها ما يدور في باطنها ..

صرت عصا موسى ..

لم يكن موسى يحملني في القصر، كان يحملني عندما يخرج، داخل قصر فرعون لم يكن مسماحاً لأحد أن يحمل عصاه باستثناء فرعون، كانت عصا فرعون قصيرة قد صنعت من خشب الابنوس الأسود والذهب وطعمت بالجواهر، وكان هذا الزي الغالي الذي ترتديه العصا لا يمنع العصا من الاحساس بالشكاء ..

تشقى الجمات وتسعد ..

ينبع شقاء الجمات حين توظف في أمر يعارض طبيعة الكون الذي يتوجه خالقه بالتبسيع والعبادة ..

كنت أسمع تسبيع عصا فرعون لله رب العالمين، وكانت أسماعها تلعن حاملها اذا صدمها بانكار او الحاد او جحود لرب العالمين.. ورغم ذلك .. كانت عصا فرعون رمزاً لسلطته عند الناس .. وكانت اشارته بها لشيء تعنى صدور أمر ملكي بشيء .. وبالتالي كان يحرم على أي انسان داخلي القصر ان يحمل عصا ..

لم يكن مسماحاً في نظام الفرعون أن يوجد رمز يزاحم سلطاته .. كان موسى يضعني في غرفته، ويسكتني اذا خرج، وفي البداية كان موسى ينساني كثيراً. لم يكن معنادا على حل عصا،

كان الرعاه والمسنون هم الذين يحملون عصيا، وكانت هناك طبقة ارستقراطية في مصر اعتاد رجالها على حل العصا، ولم يكن موسى راعياً ولا شيخاً مسناً ولا ارستقراطياً.

لهذه الأسباب كلها كان موسى ينساني في بعض الأمكانه التي يزورها.. نسيبي مرّة عند هارون، ونسيبي مرّة عند زوجة فرعون الذي ربته وليداً وكانت له أمّا ثانية إلى جوار أمه الأولى، ونسيبي مرّة في بيت امرأة عجوز من بنى اسرائيل كان يعطف عليها ويودها.. وفي كل مرّة كانوا يهرونون بي إليه..

لم يكن موسى يحتاج إلى عصا وهو يعيش في قصر فرعون. كان هارون أشد حاجة للعصا من موسى ، ولكنه خجل أن يسأل موسى أن يهديه عصاه.

ومرت الأيام وجاء يوم ..

﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى. قال يا موسى إن الملا يأترون بك ليقتلوك فاخرج أني لك من الناصحين﴾.

كان هذا النذير قد جاء من مكان لا أعرفه.. وكان حديثه مع موسى سريعاً وحاسماً.. لم أفهم لماذا يتامر كبار رجال البلاط على قتل موسى.. عرفت أن موسى وكذا مصر يا فقضى عليه، لم يكن موسى يقصد قتله ولا كانت نيته معقودة على الشر أصلاً، كانت هناك مشاجرة بين رجل مصرى ورجل من شيعة موسى.. واستغاث أضعف الرجالين بموسى أن يهب لإنقاذه، وتدخل موسى فدفع المصري بيده دفعة يقصد بها ابعاده.. سقط المصري ميتاً.. أثار هذا القتل الخطأ حين انتشرت أخباره ما يشيره أي قتل خطأ.. ولكن عنصراً جديداً دخل وسط جملة العناصر المكونة للموضوع..

ان موسى لا يسجد لفرعون: ولا يسجد لأله المصريين الكثيرة المتعددة، وهو واحد من بنى اسرائيل. وهناك نبوءة غامضية بأن واحداً من بنى اسرائيل سيكون سبباً في القضاء على سلطان الفرعون، وأي محاولة للمساس بسلطان الفرعون هي جريمة لها طابعها السياسي، ان فرعون هو مصر، وأي اعتراف عليه تهديد لأمن مصر، وموسى يفعل هذا كله دون أن يدري.. هكذا نسج الجهاز المصري الحاكم صورة موسى في سجلاته، ويبدو أن هذا الجهاز كان يتنتظر أي خطأ من موسى ليقتله.. فلما وقع هذا الخطأ تقرر تنفيذ الحكم السابق عليه.. كان قتله اجراءً أميناً بحقه.

ورغم أن موسى لم يكن يدعو الله صراحة، ولا كان يكلم فرعون في موضوع الالوهية أو ادعائه الالوهية.

رغم موقف موسى المحايد من فرعون، تقرر قتل موسى.. وأرسل الله تعالى هذا الرجل الذي جاء يسعى من أقصى المدينة، وقد أرسله الله في توقيت محمد كأن سبباً في إنقاذ موسى. لم يكدر موسى يعرف ما دبروه له حتى اختطفني وانسل خارجاً من قصر فرعون..

سار موسى خارجاً من مصر..

سار موسى طويلاً..

كنت أنقدمه في السير.. أدب على الأرض.. خطوتان له وخطوة لي.. جاء الليل وتوقف
موسى فتوقفت.. جلس يستريح وسط صحراء موحشة..
خيل إلى أن وجودي مع موسى كان يحمل معنى الطمأنينة له.. وضعني على صدره ومد
ذراعه وتوسد الأرض ونام..
خرج موسى من مصر خائفاً يتربّ.. دعا الله تعالى وهو يخرج، قال: رب نجني من القوم
الظالمين..

استجاب الله تعالى دعاء عبده فابعد موسى عن مصر، نام قليلاً في الصحراء ثم أيقظه
حرارة الشمس فنهض وعاد سيره..
خطوتان له وخطوة لي..
يتقدمني موسى مرة وأنقدمه مرة..
اكتشفت ونحن نسير أن لي أكثر من معنى.. كنت عصا وخيمة وأداة للدفاع ضد هوا
الجبل وتعابين الجحور..

كان موسى إذا تعب من السير عرف أنه تعب، كان عرقه يتسبّب غزيراً على جلدي
الخشبي القاسي.. عندئذ يقف موسى وخلع عباءته ويغرس عصاه في الأرض ويضع عليها العباءة
ويجلس تحت ظلها في القيظ..
كنت أمنع الظل حينما كنت غصناً في شجرة، وما زلت أمنع الظل رغم موتي وصبر ورثي
لشكل آخر..

ظللنا نسير أياماً.. كان موسى يتوقف أحياناً ويقتات من شجرة.. أحياناً كان يعثر على بئر
قديمة فيشرب منها ثم يعود السير..

أخيراً وصلنا إلى قرية مشجرة تحيطها المراعي الخضراء.. تذكرت حياني السابقة ورحت
أسبح الله.. إن كل ما في الأرض من صور وأشكال كان في بدايته الأولى جزءاً من تراب
الأرض..

هل هناك صورة واحدة أم صور متعددة.

إذا كانت الحقيقة الأولى هي التراب.. فكيف يولد من التراب ما نراه من الخشب
والجرانيت والجواهر..

أي سر يحيل صفحة البستان خضراء، وأي سر يحيلها إلى قاع نهر، وأي سر يحيلها إلى
صخور.. سبحان الله.. تقف الأشجار أمام أسرار الله وقفه سجود طويل، ولا ينكشف السر
للأشجار فهل ينكشف للبشر؟..

وقع لموسى حادث حين وصل إلى مدين.. سقى لامرأتين ثم تولى إلى الظل وتذكر ماضيه
وحاصره وجاشت نفسه بشيء لست أدرية ثم قال:
- رب اني لما أنزلت إلي من خير فقير..

لم أفهم معنى دعائه، ولكنني رجحت أن موسى كان يسجد بطريقته الخاصة كأنسان. من أغرب أسرار الدنيا أنواع السجود التي تمارسها الخلاائق.. إن الطيور والنحل والزهور والسماحات والبرق والجن والانسان.. كل مخلوق قد علم صلاته وتسبحه من الله. وكل مخلوق يسجد لله بطريقته الخاصة التي علمها الله له.

مضت ساعة مال فيها الظل قليلا، وفوجئت أن واحدة من سقى هن موسى جاءته تمشي على استحياء.

قالت: ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا.. نهض موسى وسار..

بعد قليل دخلنا بيتا متواضعا لرجل يبدو أنه من الرعاعة.. كان الرجل شيخاً أشيب اللحية صافى الوجه عذب الملامع..

جلس موسى أمامه ووضعني على الأرض وقص قصته على الرجل.. قال له الرجل: لا تخف.. نجوت من القوم الظالمين..

كان موسى قد ابتعد عن مصر ودخل أرضاً لدولة ثانية لا سلطان فيها لفرعون.. وهكذا أدرك موسى أن الله تعالى قد استجاب دعاءه وهو يخرج من مصر..

حمد موسى الله وأثنى عليه وصمت.. رن في الغرفة صوت ناعم لواحدة من بنات الرجل.. كان الصوت هادئاً لطيفاً يوحى بالثقة - يا أبتي استأجره.. ان خير من استأجرت القوي الأمين..

ها هي امرأة لا تعرف موسى ولكنها تثني عليه..

كان لهذا الثناء في هذا الموقف وقع عطر لطيف يشبه عطر زهور البرتقال..

قال الشيخ موسى: أي أريد أن أنكحك أحدي ابنتي هاتين، على أن تأجرني ثمانى حجج، فإن أقمت عشرأً فمن عندك، وما أريد أن أشق عليك. ستتجدني إن شاء الله من الصالحين..

قال موسى: ذلك بيني وبينك.. أيها الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ، والله على ما نقول وكيل..

بعد لحظات كان موقف موسى قد تغير من النقيض إلى النقيض.. كان مطارداً فأصبح آمناً، كان خائفاً فلم يعد خائفاً، كان وحيداً بلا سكن ورحمة، وهو هو يتزوج فيسكن إلى امرأة فيها مودة ورحمة.. لم يكن الله قد استجاب دعاء موسى فحسب، إنما شاء سبحانه أن يمنح موسى أكثر مما دعاه..

دعا موسى بالنجاة من القوم الظالمين.. ولكنه لم يدع لنفسه بشيء، وشاء الله تعالى أن يمنه مع نعمة النجاة منه الأمان والزواج والفرح، ولقد كانت زوجة موسى لوناً نادراً من البشر، وكان مخطوطاً في اللوح المحفوظ أن تتربي هذه الفتاة في أحضان أبيها الشيخ الصالح، ثم تلتفي موسى المطارد ليجد في مجدهما الأمان والسكن..

وضعني موسى على جدار غرفته فمضيت أرقب بأجفاني المغلقة ما يدور حولنا في البيت ..
كان البيت لقوم صالحين يعرفون الله .

مرت عشر سنوات علينا في مدين ..
كانت هذه السنوات العشر فترة تأمل رائع لموسى ، كان موسى يرعى فيها أغnam الشیخ
الذی تزوج ابنته ..

كل صباح كنا نخرج إلى المراعي الواسعة .. الشمس لم تزل حانية لم تجف بعد ندى الفجر
من الأرض الرطبة .. وفي الجو تشيع رائحة العشب وبعض الزهور الجبلية المعطرة .. والأغنم تتبع
واحدا منها وتجري مستبشرة وهي تشغى، شيء ما في نسمة المنطقة يحركها إلى العدو فتعدو .. ثم
تنحنى برؤوسها على الأرض وتأكل .. وفي الزاوية القريبة من الصورة كان موسى يمد يده .. ويشير
في فيحدد للقطيع المسار الذي يسمح لهم بال الطعام والأمان .. كثت تأمل صور الأغنام بأنواعها
المختلفة، وأتأمل الأشجار والبيوت وأعجب ..

كل هذه الصور خرجت من بطن الأرض .. وهي تدب الآن على ظهر الأرض، ثم يحيىء
يوم وتنحنى الصور وتختفي وتتلاشى عائدة إلى الأرض، وتقضى دورة الكائنات ثم يحيىء يوم يقوم
في كل شيء من الموت.

رحت أسبح الله وقد تجمدت أطرافي من الخشية .. وكان موسى يجد وقتاً طويلا ليتأمل هو
الآخر .. كان يرى صور الكائنات خلال تحولاتها ويزداد دهشة وتسبيحا لله .

وكانت الذئاب قد ذاقت بأسى ذات يوم .. تصورت مجموعة من الذئاب أنها مجموعة،
وتصورت أن موسى رجل وحيد لا يملك غير يديه وعصاه، وجربوا الاقتراب من أغناننا، ولكن
موسى حركني بشدة في الهواء فصفر الهواء، ولست ظهر ذئب تصادف مروره تحقي فعوى من
الضربة وقف هاربا ومن وراءه بقية الذئاب ..

نعم .. ليست عصا الراعي مجرد عصا يهش بها على غنمه، للراعي فيها مأرب أخرى ..
أحيانا تحول العصا إلى خيمة وأحيانا تصير سلاحا يصد عشرات الأخطار ..

مضت الأيام ناعمة مشحونة بالمشاعر، كنت أحس - رغم صوري الخشبية - أن موسى يزداد
صفاءً وتوهجاً .. كنت أحس بحرارة جسده حين يغوص في ذكر الله ويتأمل آلاء فيسخن جسده
كانت هذه الطاقة التي يضمها جسد موسى أعظم أحيانا من طاقة الشمس ..

ومضى موسى يغوص في تأملاته حتى انقضت عشر سنوات ..

كانت هذه السنوات بخشونتها تشبه الأحجار الخشنة التي تستخدم في صقل المرايا
والأسلحة ..

حين لم يعد في نفس موسى خط واحد من عکاره الدنيا أو هراء العالم، حين أصبح موسى
مستعدا للتقاط صورة الكون كله في قلبه .. داعب الحين قلب موسى للرحيل .
دخل موسى على الشیخ الذي تزوج ابنته وجلس معه يحدثه ..

قال موسى : مرت عشر سنوات ..

قال الشيخ : نعم يا موسى ..

قال موسى : أريد أن أعود إلى مصر ..

ارتجف الشيخ وقال : ذلك حرقك يا موسى ولكنني سأفتقدك ..

ابتسم موسى ابتسامة مغتصبة ، وقال للشيخ ..

- سأفتقدك أنا الآخر .. لقد آويتني ورعيتني وزوجتني ابنتك و كنت لي نعم الأب .. ولكن شيئاً غامضاً لا أتبينه يدعوني إلى الرحيل .. لست أعرف ولكنني لست محظياً.

قالت زوجة موسى : في الرحيل ألف خطر لم يسفر عن وجهه بعد ..

قال أبوها الشيخ : انقضت عقوبة موسى بمضي المدة .. لا خطير عليه في مصر ..

قال موسى وهو يقطب وجهه : القانون في مصر رهن إشارة فرعون ، إن شاء أدخل في العقوبة بريئاً فعل ولا تشرب عليه ، وإن شاء أخرج من العقوبة ظالماً فعل ولا لوم عليه .. لا .. ليس هذا ما أفكّر فيه ..

قال الشيخ لابنته : أعدى موسى قدحاً من اللبن ..

والتفت لموسى وقال له : فيم تفكر يا موسى ..

قال موسى : صار الرحيل قدرًا مقدوراً .. لست حرراً وإنما أنا مأمور .. شاهدت نفسي في الرؤيا أقطع صحراء سيناء عائداً لمصر .. وقد فهمت أن هذا أمر ..

قال الشيخ : متى ترحل ..

قال موسى : غداً إن شاء الله تعالى ..

شرب موسى قدحاً من اللبن .. وراحت زوجته تعد ما سوف تأخذ معها في الرحلة .. وضع كل ملابسها وملابس موسى وطعاماً وفيراً وأقداحاً وأواني في كومة وراحت تحاول أن تذكر ما الذي نسيه؟ وأشار موسى إلى الكومة الكبيرة وسأل :

- ما هذا؟

قالت : ملابسنا وأوانينا وأقداحنا ..

قال موسى : لن نحمل معنا شيئاً .. دعى كل شيء لأبيك الشيخ .. سنخرج بملابسنا فقط ، لا نريد غير قدح نشرب فيه الماء ..

قالت الزوجة : كيف أهلك بملابس السفر ..

ابتسم موسى وسمح لها أن تأخذ رداء آخر ..

ونخرج موسى إلى المراعي أثناء الليل ووقف يتأمل السماء والنجوم ويد بصره في امتداد الخلاء ..

بدأت رحلة موسى في الصباح ..

سرنا طويلاً .. موسى وأهله وأنا ..

كنت أتقدّمهم جميعاً .. أدب على الأرض .. مررنا بمراعٍ خضراء ، ثم طريق طيني ، ثم

طريق مترقب، سرنا جوار جدول صغير، ثم مررنا جوار البئر الكبيرة التي تقع في مدخل مدين،
ثم خرجنا لصحراء عريضة، ثم تغيرت الأرض وقامت وتحولت إلى أرض جبلية..

سرنا يومين..

كان الجو يميل للبرودة حين خرجنا، ثم أسفى الجو عن أنياكه الثلوجية حين دلفنا في الجبال..
عدنا نسير..

سرنا أسبوعاً بأكمله..

كيف عرفت أن للثلج أنياكا من البرودة.. هذه معرفة لا تتوفر إلا لحية أو ثعبان.. كيف
تعرف العصا أن في الأرض خلائق لها أنياك.. لا أدرى.. كل ما أدرىه أن داخل أحشائي الجامدة
يتخلق شيء غامض ومحير ويستحيل التعبير عنه..

سرنا أياماً في البرد..

وجاءت ليلة شتائية.. اختفى القمر فيها وراء السحاب الداكن، ولع الرعد ودمدم البرق
وغلستني الأمطار..

ثم فوجئت أنني أهتز..

كان موسى يرتعش من البرد.. وكان الطلام كثيفاً.. أدار موسى رأسه حوله فلم ير
 شيئاً.. ثم رأها هناك..
ناراً تتألق هناك..

قال لأهله: امكثوا أنني أنسنت ناراً على أتيكم منها بقبس أو أجده على النار هدى..
وقف أهل موسى حيث كانوا يقفون.. وتحرك موسى مسرعاً نحو النار..
راح يسير وأنا أتقدمه..

فجأة لمع داخلي شيء كالتماع البرق.. أدركت حقيقتي في هذه اللحظة.. أنني لست عصا.
لست فرعاً في شجرة..

لست نباتاً.. هذا هو قناعي الذي أرتديه، لكن حقيقتي شيء آخر تماماً.. حقيقتي أنني
حية.. ثعبان هائل.. لست أعرف من أين جاء ولا لماذا جاء.. ولست أعرف لماذا يأخذ شكل
العصا.. تزايدت دهشتي ونحن نقترب من الحضرة الإلهية..

وتداعت ذراري سجوداً لرب العالمين، وفهمت منه حقيقتي للمرة الأولى..
واقرب موسى من النار.. فلما أتاها نودي..
قبل أن ينادي موسى نوديت..

دون صوت، ودون كلمات، وبلا شفاه، وبلا لغة..

صدر إليّ الأمر أن أخلق على صوري الحقيقة، ولزمني الأمر في هذه اللحظات الجليلة.
حين اقتربنا من النار، أدركت قبل أن يدرك موسى أنها نور وليس ناراً، وقبل أن يؤمر
موسى بالقائي صدر إليّ أمر الله تعالى أن أعرف حقيقتي..

عرفت أنني ثعبان مبين.. وعرفت أنني حية تسعى.. وفهمت للمرة الأولى خلال وجودي على الأرض أن لي دوراً أكبر من دور العصا والأشجار.. اقترب موسى من النار..

تغير الجو فجأة.. كانت السماء قطراً وكان البرد قاسياً! ولكتنا هنا في هذا الوادي، لا نحس البرد ولا نحس الرياح وثمة صمت جليل مهيب.. اقترب موسى من النار.. خشعت الأرض للنداء الجليل.. ان بورك من في النار ومن حولها، وسبحان الله رب العالمين.. نُوديَ موسى أن يخلع نعليه، فهو بالوادي المقدس طوى. وتجلت رحمة الله على عبده وهو يوقفه موقف المخاطبة.. «فَلِمَا أَتَاهَا نُوديَ يَا موسى.. إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلُعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالوَادِي الْمَقْدُسِ طَوِي.. وَإِنَا اخْتَرْتَكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى.. إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقْمِ الصلَاةَ لِذِكْرِي، إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيَهَا لِتَجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى، فَلَا يَصْدِنَكَ عَنْهَا مِنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتِّبِعْ هَوَاهُ فَتَرْدِي..».

كان الموقف أعظم من قدرة اللغات على التعبير أو الاشارة - ارتعد جسد موسى وهو يتحنى ويخلع نعليه.. أحسست أنه يرتعش من اهتزازي في يده.. كان الجلال غير المرئي ينشر هيبيته في الوادي.. وكانت النار نوراً فوضعاً موسى يده على عينيه خوفاً على بصره.

كان الله تعالى يخاطب موسى من وراء حجاب، وصدر إلى الأمر بحقيقة من وراء حجاب، لا تحتمل المخلوقات أن يتجلّى عليها رب العالمين.. لا يتحمل رداؤها البشري الجمال والجلال الألهيin..

نهار دكا.. تستوي في ذلك الأشجار والجبال والخلائق والسماءات والأرض.. من رحمة الله تعالى على موسى وعلى أنه خاطبنا سبحانه من وراء حجاب.. وقف موسى خائعاً أمام اختيار الله تعالى له.. ثم وقف مدھوشًا والله تعالى يسأله: وما تلك بيمنيك يا موسى؟.

ان الله تبارك وتعالى يتحدث عنِّي.. يشرفني ويجدني.. يسأل موسى عنِّي.. يسأله سؤال استفهام.. وما تلك بيمنيك يا موسى؟.. يعلم الله سبحانه وتعالى حقيقتي التي لا يعرفها موسى..

أحسب أن أوان كشف حقيقتي لموسى قد جاء.. أدركت ذلك في لحظة.. أجاب موسى: قال هي عصاي أتوّكأ عليها وأهش بها على غنمٍ ولِي فيها مأرب آخر.. استمعت إلى جواب موسى وأدركت أنه لا يعرف حقيقتي، لقد عشنا معاً.. موسى وأنا ما يقرب من ستة عشر عاماً، منها خمسة أعوام في مصر كفرع في شجرة، ثم عام كعصا لا يمسكها كثيراً، ثم عشرة أعوام كعصا لا تفارق يده.. وذلك ما كان يحسبه موسى.. كان بحسب أنني عصا..

أمره الله تعالى أن يلقي بي ..
قال: ألقها يا موسى ..
القاني موسى من يده .. في اللحظة التي غادرت فيها يد موسى كنت أتحرك بعنف
وأسعى ..

ها هي حقيقتي تكشف النقاب عن وجهها ..
حية عظيمة كنت .. لم يكن ثمة شك في ذلك .. لم أر صورتي ولم أعرف ماذا كان شكلني
كحية ..

لكنني لاحظت في عيني موسى خوفاً لم المعه في عينيه من قبل، ورجحت أن مظهري هو الويل
الويلي.

كان موسى يقف في الوادي المقدس .. يخاطب الله تعالى ويخاطبه الله ورغم جلال الموقف لم
أكذ أظهر حقيقي، حتى فزع موسى واستدار يعود.
كان يريد أن يتبعه عني .. أنا .. عصاته .. ثعبانه .. لم أكن أحسن نحو موسى بأي
عداء .. مطلقاً .. ولا كان داخلني أي عداء لاي خلوق .. أبداً .. كنت آية من الله ورحمة، ولكن
الرداء الذي ظهرت به كان قناعاً لجواهر الخوف المخيف ..

خاف موسى وانطلق ..
خاطبه الرحمن ألا يخاف.

﴿قال خذها ولا تخف سنعدها سيرتها الأولى﴾.

تقدم موسى نحوه وتردد قليلاً ثم مد يده إلى .. لم يكدر يمسك بي حتى كنت في وداعه
العصا التي يهش بها على غنميه ..
عدت سيرتي الأولى مؤقتاً ..

عدت أستمع إلى الله تعالى وهو يخاطب موسى ..
 أمسكتي موسى وراح يستمع ..

كانت الأحداث التي وقعت لموسى قد زلزلته .. إن رب العالمين يخاطبه، والعصا التي يمسك
بها في يده ليست عصا.

وانخلطت عليه مشاعر الرهبة بالحلال بالخوف، حتى كان الموقف متوقف قبض ..
أدركت هذا كله في لمح البصر حين أمسكتي موسى ..
كان يرتعد ..

وقد علم الله تعالى موقف موسى فأمره أن يضم يده إلى جناحه، فإذا موسى يثبت في الحال
ويهدأ روعه ويُشيع في قلبه السلام والأمن .. ثم شاء الله أن يطلع موسى على آية من جسده هو
ليزول روعه من الآية التي كانت جسداً لشجرة من قبل، فأمره أن يضم يده إلى جناحه تخرج
بيضاء من غير سوء ..
فوجئ موسى بيده تنير كأنها القمر ..

فاجأته هذه الآية، ولكنه احتمل حين هدأ الله للاحتمال وربط على قلبه فسكن جائشة.
بعد أن أفهم الله تعالى موسى أن هاتين الآيتين من آيات الله الكبرى أمره أن يذهب إلى فرعون..

﴿لَنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكَبِيرِيَّةِ. أَذْهَبْ إِلَى فَرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾.

حين أصدر الله تعالى أمره لموسى بالرسالة، فهمت أنا العصا سر جوهرى الشعبانى، ورأيت ثبات أخشاب العصا هو نفسه حركة الشaban السريعة، وفهمت أن الهدف النهاي هو فرعون، كانت المهمة أن يقول موسى لفرعون قوله ليناً.. فإذا رفض الاستماع القانى موسى من يده..

كنت أنا آخر الكلمات اللينة..

إن نعومة جلد الشaban بكل ما تبعه من قشعريرة الخوف هي كلمة لينة.. كنت أعرف أنني لن آكل فرعون ولن أؤذيه..

إن المراد تخويفه فقط.. ما أعظم رحمتك وحملك يا رب..

أليس هذا الحلم الالهي أكبر من قدرة العقول على التصور.. إنني أستطيع كعاصا أن أضرب فرعون ضربة واحدة فأشج رأسه وأقتله، وأستطيع كشعبان أن التف حوله وأسحق عظامه، وأستطيع بحجمي الشaban الهائل أن أبتلعه قبل أن يسرع إليه أي واحد من جنده وقبل أن يغشه أحد..

ورغم ذلك، كان المطلوب مني أن أتحول أمامه فقط من شكل العصا إلى شكل الشaban..
وبين قسوة العصا وليونة جلد الشaban مساحة كافية ليؤمن فرعون إن كان يريد أن يؤمن.. أي حلم الله على عبيده..

سبحان الله.. سبحان حلم الله..

حين هدا روع وموسى وسكن جائشة واطمأن قلبه. إننقل من مقام القبض إلى مقام البسط
فدعوا الرحمن:

﴿قَالَ رَبُّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيُسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُّ عَقْدَةَ مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وزيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي أَشَدَّ بَهْ أَزْرِي وَأَشْرَكَهُ فِي أَمْرِي كَيْ نَسْبِحُكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرُكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾. قال قد أتيت سؤلك يا موسى ولقد متنا عليك مرة أخرى..

استجاب الله تعالى دعاء عبده ورسوله موسى.. وامتلاً قلب موسى بالإيمان الجميل والرحمة السابقة والله يذكره بمنتهى السابقة عليه؛ ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَةً أُخْرَى إِذَا أَوْجَبْنَا إِلَيْكَ مَا يَوْحِي، أَنْ افْذَفْهُ فِي التَّابُوتِ فَاقْذَفْهُ فِي الْيَمِّ فَلَيْلَقُهُ الْيَمِّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذُهُ عَدُوُّكَ وَعَدُوُّكَ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحْبَةَ مِنِّي وَلَتَصْنَعَ عَلَى عَنْيِّي. إِذْ تَمْشِي أَخْتَكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدْلَكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أَمْكَ كَيْ تَقْرَ عَيْنَاهَا وَلَا تَحْزَنْ، وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَكَ فَتَوْنًا فَلَبِثْتَ سَنِينَ فِي أَهْلِ مَدِينَ ثُمَّ جَئْتَ عَلَى قَدْرِيَا مُوسَى وَاصْطَبَعْتَكَ لَنْفَسِي﴾.

أدركت من خطاب الله تعالى موسى مجد موسى كإنسان ونبي.

لقد اصطعنه الله تعالى لنفسه.

أيضاً فهمت الدور الخطير الذي كلفه به القدر الأعلى وعلمت أنني أداة انتقام من بنوة موسى، حين انتهى موقف المخاطبة الإلهي لموسى، قفل موسى عائداً لأهله.. فصحبهم ومضى يبحث خطاه قاصداً مصر. أدب على الأرض كما تدب العصا.

لاحت أبواب مصر. تذكرت مثل حلم بعيد غارق في الضباب طفولي كفرع شجرة في مصر. سار موسى جوار حلقة فرعون، هنا ولدت واليوم أمر على موطنی فاحس بالدهشة. لشد ما يتغير المخلوق.

لم يعد موطنني يشير في نفسي ما كان يثيره أيام الطفولة، لا ذكريات لي هنا، هكذا أحسست..
أيضاً أحسست أنني ألعب دوراً عظيماً في مشهد بشري. اختلطت سيرتي الأولى بسيرتي الثانية
وتوحدتا في تسبيبة طويلة. زار موسى شقيقه هارون وانفرد به في أحدى غرف البيت البسيط.
وضعني موسى جواره وأفهم أخاه سر مهمتنا نحن الثلاثة مع فرعون.
نحن الثلاثة، موسى، وهارون وأنا.

دخلنا قصر فرعون، ما أعظم الفرق بين بيت موسى وهارون وبين فرعون، ذلك بيت صنعت جدرانه من الطين النيء، وهذا بيت صنعت جدرانه من الحجارة المكسوة بالخشب المعطر وصنعت أرضه من الرخام، وأثاثه من المرمر واللأاج والأبنوس والذهب. كل شيء يضوئ في قصر فرعون.

يُتَلَّأِلَّا كُلُّ شَيْءٍ وَيُلْعَمُ كُلُّ شَيْءٍ بِاسْتِئنَاءِ التَّعْبِيرِ الَّذِي يَطْلُبُ مِنْ وِجْهِ فَرْعَوْنَ.
كَانَ التَّعْبِيرُ قَاسِيًّا بَارِدًا جَبَارًا لَا تَشْوِيهَ ذَرَّةَ رَحْمَةٍ، وَفَهِمَتْ لِمَذَا أُرْسِلَتْ لَهُ.
قَالَ فَرْعَوْنُ: مُوسَى أَخْيَرًا..

قال موسى: نعم وقد عدت إليك بخير الدنيا والآخرة، تغير تعbir وجه فرعون من البرود القاسي إلى الدهشة. قال بما يشبه الاستنكار المستكبر، وما يشبه الهزء المستتر.

انت تعود إلى بخير الدنيا والآخرة. ما كل هذا الكرم يا موسى. من أين جاءك هذا الخير لتعود به إلى. قال موسى بلطف: جاعني من الله وقد جئت رسولاً من الله أدعوك لعبادته.

نهض فرعون من كرسي العرش وسار قليلاً، ثم توقف يخاطب موسى: من زمان بعيد وأنت لا تؤمن بي يا موسى. سكت فرعون ثم عاد يقول: لقد كنت تنكرني دائمًا، لم تعرف بي يوماً واحداً كآلله.

سار فرعون أمام كرسي العرش، وراح يتأمل مجموعة من الرسوم على الحائط، ثم التفت إلى موسى وسأله، أنت لا تؤمن بالوهبي؟ يا موسى؟

قال موسى : اؤمن بالله رب العالمين .
قال فرعون : كأنه عتجة من دونه .
قال موسى : رب العالمين

قال موسى: رب السماوات والأرض وما بينها إن كنتم موقين.
الفت فرعون لمن حوله وقال له جهته تخوض في أوحال الهراء: ألا تستمعون؟

كان يسأل من حوله من رجال الحكم والوزراء والبلاط سؤال استنكار ويستشهد بهم على جرم هذا الذي جاء يعرض عليه الإيمان.

تجاوز موسى سخرية فرعون وعاد يقول: ربكم ورب آبائكم الأولين.

خرج فرعون من هدوئه وارتفاع صوته وقال: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون.

لم يكدر فرعون يتهم موسى بالجنون حتى ساد صمت. كانت التهمة جارحة بأي مقياس وكل مقياس، كانت جارحة لأنها كاذبة وكانت جارحة لأنها تهزأ من عقول الحاضرين وتستخف بهم جميعاً..

تقدم هامان وقال وهو يتحني لفرعون:

- هل أصدر أمراً لرجالي بطرد موسى من القصر..

انتشى فرعون بملق هامان وقال: لا... لم نسمع بقيمة كلامه بعد.. إن موسى يدعوني إلى الله.. إنني أرفض الدعوة..

ماذا بقي عندك يا موسى..

- قال موسى: لم يبق الكثير.. لا أريد أكثر من لفتتك إلى آيات الله في الكون.. خلق الله تعالى كل شيء يا فرعون.. هل يستطيع أي إنسان منا أن يوجه حركة السحاب وينشئ المطر..؟.

- هل يستطيع أي جبار من جبابرة الأرض أن يخرج أزواجاً من نبات الأرض.. لقد خلقنا الله من الأرض.. وإليها يعيينا بالموت.. ومنها يخرجنا بالبعث..

قال فرعون: بعد أن أصغى طويلاً وعكست ملامح وجهه علائم الملائكة:

- آه هذه قضية أخرى يا موسى..

دعنا منها ولننظر في قضيتك أنت..

قال موسى: أي قضية؟.

قال فرعون: هناك قضايا كثيرة.. أبسطها قتلك المصري وهربك من مصر.. أي اسم يسميه القانون لهذه العقوبة.

قال هامان: مقاومة السلطات الحاكمة.

قال فرعون: وهو يلتفت هامان: ما هي عقوبة من يتخد إلهاً غيري.

قال هامان: السجن مدى الحياة..

تحرك فرعون وسار نحو موسى..

قال: لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين..

قال موسى: ألو جئتكم بشيء مبين..

كان تحدي موسى لفرعون واضحًا، وكانت إشارته الغامضة لهذا الشيء المبين كافية لوقف تقدم فرعون.

وقف فرعون في قاعة المرمر وصرخ.. قال: «فأنت إن كنت من الصادقين».

تراجع موسى خطوتين إلى الخلف وألقاني من يده أنا العصا على أرض قاعدة المرمر.

خيل إلى فرعون أن موسى يتراجع إرتباكاً وخشية، خيل إليه أن العصا سقطت منه..
ابتسم فرعون ابتسامة واسعة.. ولست الأرض فتحولت إلى ثعبان مبين.. راحت أتلوي،
وافتح فمي، وخرج لسانه منه.
فوجيء فرعون تماماً..
جed في مكانه.. ماتت ضحكته على وجهه، زحف على وجهه إحساس لم يره واحد من
بلطه من قبل..

كان وجهه يتلون بين الأصفر والأخضر، ورحت أتلوي على أرض الصالة..
أراد فرعون أن يتكلم.. ولكن لسانه ارتعش في فمه ولم يطابعه على الحركة.. ساد صمت
عميق لم يكن يسمع فيه سوى صوت زحفي على الأرض واحتاكاه بالهواء وفحيفي المخيف..
بهت كل من في البلط من شهد الآية..
كان أول من تخلص من ذهوله هامان، صرخ بصوته:
-أيها الحرس..

إلتفت نحوه، ونظرت إليه بعيوني المفتوحتين اللتين لا تطرفان أبداً.. لا تطرف الشعابين..
ليس لها جفون.. لا نمام فغمض عيوننا.. نمام وعيوننا مفتوحة.. استدرت نحو هامان وأخرجت
لسان الربيع الأسود فماتت بقية كلماته في فمه..
حرس هامان، وظل الواقفون يحدقون فيّ حتى تدخل موسى وتقدم نحوه وأمسكني، فعدت
سيري الأولى وتحولت إلى عصا..
كان تحول إلى الجمود إذاناً بانطلاق السنة الحاضرين وفك عقالها.. تكلم فرعون أخيراً.
قال: آه.. أنت..
لم يقل أكثر منها.. لم يسعفه عقله بأكثر من كلمته المتورة.. أفاق هامان من ذهوله..
وقال:

-سيدي الفرعون.. هذه حيلة السحرة.. إن في مصر عشرات السحرة الذين يستطيعون
تحويل العصا إلى حية..

تقدم موسى من فرعون وقال:
-يا فرعون.. ليس ما رأيت حيلة من حيل السحرة.. هذه آية من الله لك.. وإليك الآية
الثانية..

وضع موسى يده تحت جناحه ثم أخرجها.. لم يكدد يفعل حتى ظهر وهج أبيض لا علاقة
له بضوء الشمس ولا بنور القمر.. سقط الوهج على قاعة المрам، وانعكس على ذرات المрам
الشفافة وزاد من كمية الحزن الشاحب الذي يلومنها..
كانت يد موسى بيضاء من غير سوء.. انتشر بياض اليد في المكان كأنه نصفى الثاني..
كان وجودي المخيف آية في يد موسى، وكان بياض يد موسى آية أخرى في يده..
أحسست بذبذباتي الخشبية، وبحركة خلابي الحية كشعبان، إن جسد فرعون يمر بحالة

تقرب من السجود القهري، كان فرعون ذكياً، لم يكن محبول العقل أو عديم التمييز.. وأدرك على الفور خطورة ما جاء به موسى، ولكنه انساع لصالحه الخاصة وقرر أن يدخل صراعه مع موسى.. بيت في نفسه فكرة القتل..

انتقل من معاينة آية الخوف إلى آية الصفاء.. ولكنه لم يخف ولا صفا.. عبر عليهما مغمض القلب ولو أنه خاف لصفا..

تقدّم فرعون من موسى ووقف على مسافة منه وقال:
موسى: ما الذي جئت تريله منا؟.

قال موسى وهو يتواضع لله - أريد أن ترسل معيبني إسرائيل ولا تعذبهم..

قال هامان: لقد انكشفت المؤامرة التي تخفي وراء سحر موسى..

لقد جاء موسى يخرجنا من أرضنا بسحره..!

قال فرعون: لقد انتهت المقابلة يا موسى.. انصرف الآن وسوف نتصل بك فيما بعد..

نظر موسى لفرعون.. واستدار وخرج.. انصرنا إلى بيت أخيه هارون..

جلس موسى للعشاء مع هارون..

قال هارون: هل شاهدت وجه فرعون وهو ينظر إلى الحياة؟

قال موسى: نظرت إلى قلبه.. خشخ وجهه للاوية ولكن قلبه لم يخش..

قال هارون: ماذا تظنه يفعل؟

قال موسى: سيثير علينا الدنيا..

سكت هارون وأمسك بي وقال لموسى فجأة:

- هل تعرف ما الذي جاش بفكري حين رأيت عصاك منذ سنوات.. كدت أسألك أن تعطيها لي.. ثم أمسك لساني شيء.

سكت الاثنان فترة ثم عاد موسى يتحدث.. قال: اقنع هامان فرعون أننا سحرة، وأغلب ظني أنه سيستعين علينا بالسحرة.

قال هارون: لو اقتصر الأمر على السحرة هان الأمر.. ولكنني أخشى أن يدبر لنا فرعون شيئاً..

قال موسى: كلمني الله تعالى قال: ﴿إِنِّي مَعْكُمَا أَسْمَعُ وَأَرِي﴾ انقض بنا إلى الصلاة.

الصلاحة أفضل من حساب التوقعات فيها يمكن أن يحدث..

نهض موسى وهارون وانخرطا في صلاة عميقة وراح يسبحان الله.

مررت الليلة..

في اليوم الثاني جاء رسل فرعون إلى موسى. الخبروه أن فرعون يريد رؤيته.. ذهبنا.. موسى وهارون وأنا..

في هذه المرة كان فرعون يحشد كل وزرائه وقادة جنده ورجال دولته. كان الاجتماع في القاعة الكبرى..

دخلنا نحن الثلاثة ..

كان موسى يرتدي ثوباً من الصوف الأبيض، وكان يضع في رجليه نعلًا قدية لم يغيرها ..
وكان هارون يرتدي ملابس أفضل من موسى ، ولكن الاثنين كانوا لا يستخدمان أساور الذهب للتزيين كما يفعل رجال الفرعون، وقد حرص فرعون على أن يدخل القاعة وهو يرتدي أخر ثيابه وجواهره وتيحانه ..

كان يسلك في يده عصا من الذهب الخالص التي تنتهي بياقوتة حمراء، وهكذا تلألاً فرعون تحت مشاعل القصر المتوجبة .. ووقف موسى وهارون في ملابسهما المتواضعة ..
أشار فرعون إلى ملابس هارون وقال:
- نفس ملابسك ليلة أمس ..

حتى هارون رأسه وابتسم بينه وبين نفسه .. وعاد فرعون يشير إلى موسى ويقول:
- لولا ألقى عليه أسوره من ذهب ..
كان معنى عبارة فرعون تكذيب موسى في نبوته، لو كان رسولاً حقيقياً فلماذا يحيى هكذا فقيراً، ولما لا يلقي عليه أسوره من ذهب .. لماذا يترك الله أنبياءه فقراء ..
رفع موسى رأسه وقطب وجهه وقال: يسخر فرعون من فقري ، بينما الغني فتنـة من الله والفقـر ابتلاء منه.

قال فرعون: اسمع يا موسى .. لقد بحثنا في أمرك وأمر ما تدعـيه من إرسـال الله لك ..
أنت ساحر يريد إخراج بني إسرائـيل من مصر بـسحرـه، وهؤـلاء قـوة عمل مـلكـها، ونـخـروـجـها من مصر يضرـنا مـالـياً .. ونـحنـ نـتـحدـاك ..
إن حـيـلةـ العـصـاـ الـيـ تـتـحـولـ إـلـىـ حـيـةـ مـنـ الـحـيـلـ الـيـ يـنـبـغـ فـيـهاـ صـبـيـانـ السـحـرـةـ فـيـ مـصـرـ ..
سـنـحـضـرـ لـكـ السـحـرـةـ .. مـاـ هوـ الـمـوـعـدـ الـذـيـ تـحـدـدـهـ .. وـمـاـ هوـ الـمـكـانـ؟ـ ..
قال مـوسـىـ: مـوـعـدـكـ يـوـمـ الزـيـنةـ وـاـنـ يـحـسـرـ النـاسـ ضـحـىـ ..
انـصـرـفـاـنـ قـصـرـ الـفـرـعـوـنـ بـعـدـ أـنـ قـبـلـ مـوـسـىـ تـحـدـيـ الـفـرـعـوـنـ ..

جاء يوم الزينة ..

نشر فرعون في أنحاء مصر كلها نـبـاـ التـحـدـيـ الشـهـودـ بـيـنـ مـوـسـىـ وـسـحـرـتـهـ .ـ كانـ موـعـدـنـاـ يـوـمـ الزـيـنةـ .. وـذـلـكـ أـوـلـ يـوـمـ فـيـ أـيـامـ قـيـامـةـ النـبـاتـ مـنـ موـتـهـ الشـتـائـيـ فـيـ الرـبـيعـ ..
ذـكـرـيـ هـذـاـ يـوـمـ بـسـيـرـيـ الـقـدـيمـ .. فـيـ مـثـلـ هـذـهـ الـأـيـامـ كـنـتـ أـنـهـضـ مـنـ الموـتـ كـفـرـعـ فـيـ شـجـرـةـ ،ـ وـكـانـ الـأـورـاقـ تـولـدـ مـنـ غـصـنـيـ وـتـعلـنـ بـخـضـرـتـهاـ الـمـبـهـجـةـ عـنـ قـيـامـةـ المـوقـ ..
كانـ الـيـوـمـ المـحـدـدـ لـلـنـزـالـ آـيـةـ فـيـ حدـ ذاتـهـ ،ـ لوـ أـنـ فـرـعـوـنـ عـكـفـ عـلـىـ سـطـورـ الـيـوـمـ وـقـرـأـهـاـ وـحـدـهـاـ لـكـانـ ذـلـكـ حـجـةـ كـافـيـةـ لـهـ عـلـيـهـ وـلـاستـتـبعـ ذـلـكـ إـيمـانـهـ ..ـ لـكـنـ فـرـعـوـنـ كـانـ لـاـ يـقـرـأـ فـيـ سـطـورـ الـكـوـنـ ..ـ كـانـ يـمـرـ بـقـلـبـهـ المـغـمـضـ عـلـىـ آـيـاتـ اللهـ فـيـ الـأـرـضـ وـالـسـماءـ ..
وـاـذـنـ فـإـنـ الـعـصـاـ تـلـزـمـهـ ..

ذهب موسى وهارون وحدهما إلى الموعد.. ووفد قادة فرعون وجندوه ووقفوا في أماكنهم.. حشر فرعون آلاف الناس ووقفوا يتفرجون كما لو كان ما يقع لا يعنيهم ولا يتصل بهم.. وصل السحرة فحياتهم الجهنود برفع أسلحتهم، وملعت نصال الرماح والسيوف في ضوء الشمس.. وكانت تحية الجنود فيها يبدو إشارة إلى الشعب الذي احتشد للفرجة.. فهم المصريون الاشارء، ارتفعت أصواتهم تحية للسحرة.. ووسط هذا الجو المثير ارتفعت ابواق الجناد ولعلت تعلن عن وصول فرعون..

وصل فرعون محمولاً على سرير ملكه.
لم يكدر يظهر، حتى سجد القادة، والجناد، والسحرة، والمصريون.. لم يبق غير ثلاثة لم يسجدوا لفرعون.

موسى.. وهارون.. وعصا موسى.. أخذت عن نفسي.. أي زهو تحس به الجمادات حين تنتصر على مهانة اللحم الانساني وضعته حين يسجد لغير الله..
أمر فرعون الناس أن تنهض من سجودها له.. احترق وجهه غضباً حين لم يبق متتصباً في الساحة غيرنا نحن الثلاثة.. كانت إشارة فرعون إيداناً للسحرة بالتقدم.. تحركوا نحو فرعون وقالوا له: بماذا يأمرنا فرعون..

قال فرعون: يقول موسى إن له إلهاً غيري.. وقد ألقى عصاه فصارت ثعباناً.. وقد فهمت أنه يتحدىاني بسحره..

استدار كبير السحرة وتوجه صوب موسى وقال بصوت آمر قوي:
يا موسى.. إما أن تلقى وإما أن تكون أول من ألقى.

قال موسى: بل ألقوا..
تهيا السحرة لألقاء عصיהם وحباهم على الأرض وصرخوا يقولون - بعزة فرعون أنا لنحن الغالبون..

قال موسى: ويلكم.. لا تفتروا على الله كذباً فيساحتكم بعذاب..
كان ما وقع بعد ذلك شيئاً مثيراً..

ألقى السحرة عصיהם وحباهم على أرض الساحة.. فإذا المكان يمتئ بالثعابين فجأة.. سحر السحرة أعين الناس واسترهبواهم وجاءوا بسحر عظيم، خيل إلى جميع الحاضرين أن هذه ثعابين حقيقة..

ساد صمت موحش.. وراح الناس يتأملون ما يجري على أرض الساحة بانبهار عظيم.. اتسعت ابتسامة فرعون وضاقت نظره موسى..

تقدمن هامان بحركة قصد أن تكون مهيبة وانحنى أمام فرعون واستدار يحيى السحرة.. هلل الجناد، فكان تهليلاً إشارة إلى الناس أن يهلكوا.. تصاعدت صيحة واحدة من الجمع المحتشد.. هزت الصيحة موسى، وأدهشه ما رأى على أرض الساحة.. واجس في نفسه خيفة..

أحسست بمشاعره حين اهتزت يده وهو يمسك بي .. طمأن الله تعالى موسى .. أوحى إليه .
﴿لا تخف. إنك أنت الأعلى﴾ .

كنت أعرف أن ما أشاهده أمامي على الساحة هو سحر بشري .. هذه الأشياء التي تتلوى على أرض الساحة ليست ثعابين حقيقة .. أنا وحدي الثعبان الحقيقي رغم صورتي الخشبية واهتزازاتهم الثعبانية .. إن الفرق بين الثعبان الحقيقي وثعبان الساحر، أن ثعبان الساحر لا يأكل ولا يشرب ..

إن الرسامين في قصر الفرعون يرسمون الثيران والأبقار على جدران المعابد، وهذه الثيران والأبقار أجمل من الثيران والأبقار الحقيقة، ولكنها لا تؤكل ولا يمكن شرب لبنها. كانت هذه الثعابين التي صنعتها السحرة لا تختلف عن رسوم الفنانين .. كانت سحراً سحراً الفن وإلياه .. وادهشني أن موسى خاف .. وسجدت لرحمة الله حين طمأنه الله :
﴿لا تخف. إنك أنت الأعلى.. وألق ما في يمينك تلتف ما صنعوا، إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتق﴾ ..

القاني موسى من يده .. تحولت إلى ثعبان مبين .. واكتشفت فجأة أنني جائع .. ثعبان جائع وسط مجموعة من العصى والحبال التي تتحرك .. لففت أقرب عصا جواري، زاد جوعي بعدها فانثنى إلى الحبل الذي يترافق هناك والتهمنه .. زاد جوعي وزادت دهشتي .. أيمكن أن أكون جائعاً لهذا الحد .. لم أكن قد أكلت شيئاً أو شربت شيئاً منذ ملايين السنين .. كانت وجة طعامي هي عصى السحرة وحبالهم التي ألقيت في الساحة .. انقضت انظر الساحة من كل ما فيها من كيد السحرة ..

كان الناس قد هلوا حين تحولت عصى السحرة وحبالهم إلى الحركة، وهكذا أكلت مع ما أكلت من هذه العصى تهليل الناس وضجيجهم ..

نظفت نصف الساحة فانخفضت أصوات الناس، وتحولت إلى النصف الثاني والتهمنت ما فيه في ثوان قليلة .. كنت افتح فمي وألتهم ما أجده أمامي ..

بعد ثوان قليلة كانت الساحة قد خلت تماماً من حبال السحرة وعصيهم وسحرهم وكيدهم .. وساد صمت ثقيل .. لم يعد باقياً في الساحة سواي .. وتحولت وزحفت نحو سحرة فرعون. كانت أعينهم تكاد تبرز من ماقتها من الدهشة .. نهض كبيرهم وقال: ليس ما رأيناه سحراً، هذه آية من الله .. انهزم السحرة واعترفوا بهزيمتهم .. كانوا أكثر الحاضرين على يامكانيات السحر وقدرة السحرة، وكان ما شهدوه أمراً يعلو على افهمهم ويتجاوز كيدهم، فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون. فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ..

وألقى السحرة ساجدين. قالوا: ﴿آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون﴾ .
لم يكدر فرعون يرى السحرة يسجدون لله حتى نهض واقفاً وصرخ **﴿قال فرعون ألم**

به قبل أن آذن لكم، إن هذا لامر مكرته في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون. لاقطعن
أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبئكم أجمعين. قالوا: إنا إلى ربنا منقلبون، وما تنقم منا إلا
أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا. ربنا أفرغ علينا صيراً وتوفنا مسلمين﴿.

جن جنون الفرعون حين سجد السحرة واسلموا الله... تحول غضبه من موسى إلى
السحرة.. كانت فجيعته فيهم أكبر من اجتراء موسى عليه في تصوره.. هؤلاء سحرته.. أدوات
حكمه.. اجهزة نظامه.. كيف يخلدونه كما خذلوه أمام كل هؤلاء الناس..

آثار هذا الأمر فرعون أكثر مما أثاره أي أمر آخر، غاظه أن يؤمن الناس
بغيره، وقتل فرعون المؤمنين وصلبهم في جذوع النخل، وطعنى وبغي واستكبار وعلا..
ونسى تماماً أن الفندة الإلهية كانت تعدد له نهايةه تلقي بطفلياته.

الغرق

فمه يمليء بالباء والملح ..

تلک کانت نہایتہ۔۔

ولقد كانت نهایته على يدي ..

حين رفض أن يرى الآية الكبرى في تحول من نبات إلى حيوان.. ومن شجرة إلى ثعبان..
اطلعله الله على حقيقتي من الماء والملح..
أوحى الله إلى موسى أن يخرج بقومه من مصر..
طاردهم جيش الفرعون..
قال أصحاب موسى حين اقترب منهم جيش فرعون: إننا لمدركون..
قال موسى: كلا.. إن معندي ربى سيهدين..
أوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه..
ـ أنا

نزلت على البحر فانفلق البحر نصفين.. كل نصف كالطود العظيم.. سار قوم موسى وعبروا..
تبعهم فرعون.. نظر موسى إلى جيش فرعون وأراد أن يضرب بي البحر مرة ثانية أيلشتم الموج وينجو موسى من فرعون..
أمره الله ألا يفعل..

قال تعالى لموسى : «واترك البحر رهوا إنهم جند مغرنون»
لو ضرب موسى البحر بعصاه مرة ثانية لنجا موسى ونجا فرعون .
ولكن الله شاء أن ينجو موسى ويغرق فرعون .. وصل جيش فرعون إلى منتصف البحر
وهنالك انطبق البحر على فرعون وجيشه .
تصاعدت صرخات الجنود من ال Helm .. بدأ فرعون الجبار يغرق ..
قال وهو يغرق : آمنت انه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ..

ردت توبته إلى وجهه وقال له جبريل عليه السلام : ﴿الآن وقد عصيت قبل و كنت من المفسدين﴾.

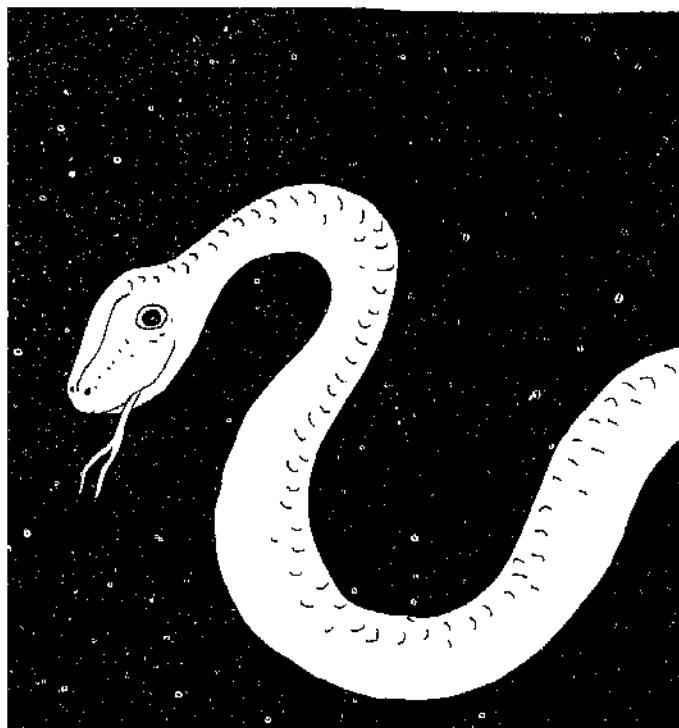
وهكذا أزاحت الستار عن عناد فرعون في قصره ، وأسدلت الستار على عناده في البحر .
غرق فرعون ولفظ البحر جثته .
وعاود موسى السير .

مرت سنوات وسنوات ..
لم تعد لي مواقف مثيرة ..
عدت عصاً كما كنت ..
وجاءت نهايةي ذات يوم في النسيء ..
وأدركت موسى عليه السلام وهو ينحدر يوماً من الجبل ..
ونظر موسى فوجدني استقر في جوف واد بعيد .. ولا أعرف لماذا تركني في مكاني وعاد إلى بيته بدولي .
أحسست بانقباض .

خيّل إليّ أن نهاية موسى تقترب .. وأن الفراق بيننا إشارة لهذه النهاية ..
وامطرت السماء في هذه الليلة .. وعرفت أن موسى يموت من بكاء السماء عليه .
بقيت في مكاني وتصلبت على الحزن ..

ومرت سنوات :
بحث عني بنو إسرائيل طويلاً ولكنني نجوت فلم يهدني أحد ..
من يدري ..
ربما كنت أتحول إلى فتنة لهم كما كنت فتنة لفرعون ..
حمد الله ..

لم أتحول لفتنة .. إنما تحولت إلى تراب ..
عدت لأحضان الأرض .. سراً يدفن نفسه في التراب .



هَلْكَ سِلِيمَان

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْهَدْهُدَ أَمْ
كَانَ مِنَ الْغَافِيْنَ . لَا عِذْبَةَ غَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَا ذَبْحَةَ
أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ .

(سورة النمل - آية ٢١ - ٢٠)

اسمي «مارهالا».

اسم لطيف اختارته لي «هيدان».

سيد أنا من سادة الرياح والسحب والماء.. أطير أياماً وليسالي دون أن أحس التعب.. لا أرى الأرض إلا من عرشي الشاهق في السماء.. وأراها جميلة كلما ارتفعت وابتعدت.. ليس إسمي اللطيف أقل من قدرتي من الطيران. وليس تفوقي في الطيران أقل من قدرتي على الرؤية، أستطيع أن أرى من ارتفاعاتي الشاهقة أين يوجد الماء في الأرض.. قد يعبر الجيش صحراء شاسعة.. نفترض أن الماء نفذ.. من أين نحضر الماء للعساكر والطيور والوحوش.. أنا المسؤول عن رى عطش الجيش كله.

أرتفع عمودياً حتى أجاوز السحاب ثم أتوقف وأخفض رأسي وأتأمل.

أحدق بنظري الثاقب في الأرض. تخترق نظراتي سطح التربة الرملية وتنفذ إلى ما وراءه. تخترق الحجارة الجيرية وتنفذ إلى ما وراءها.. تنزل نظراتي في الأرض وتغوص.. استخدم أشعة كونية للعثور على الماء.. إذا عثرت عليه هبطت من أعلى هبوطاً عمودياً وحددت المكان.. أشير بمنقاري إلى المكان الذي ينبغي أن يبدأ الحفر فيه.. وبيداً الحفر.

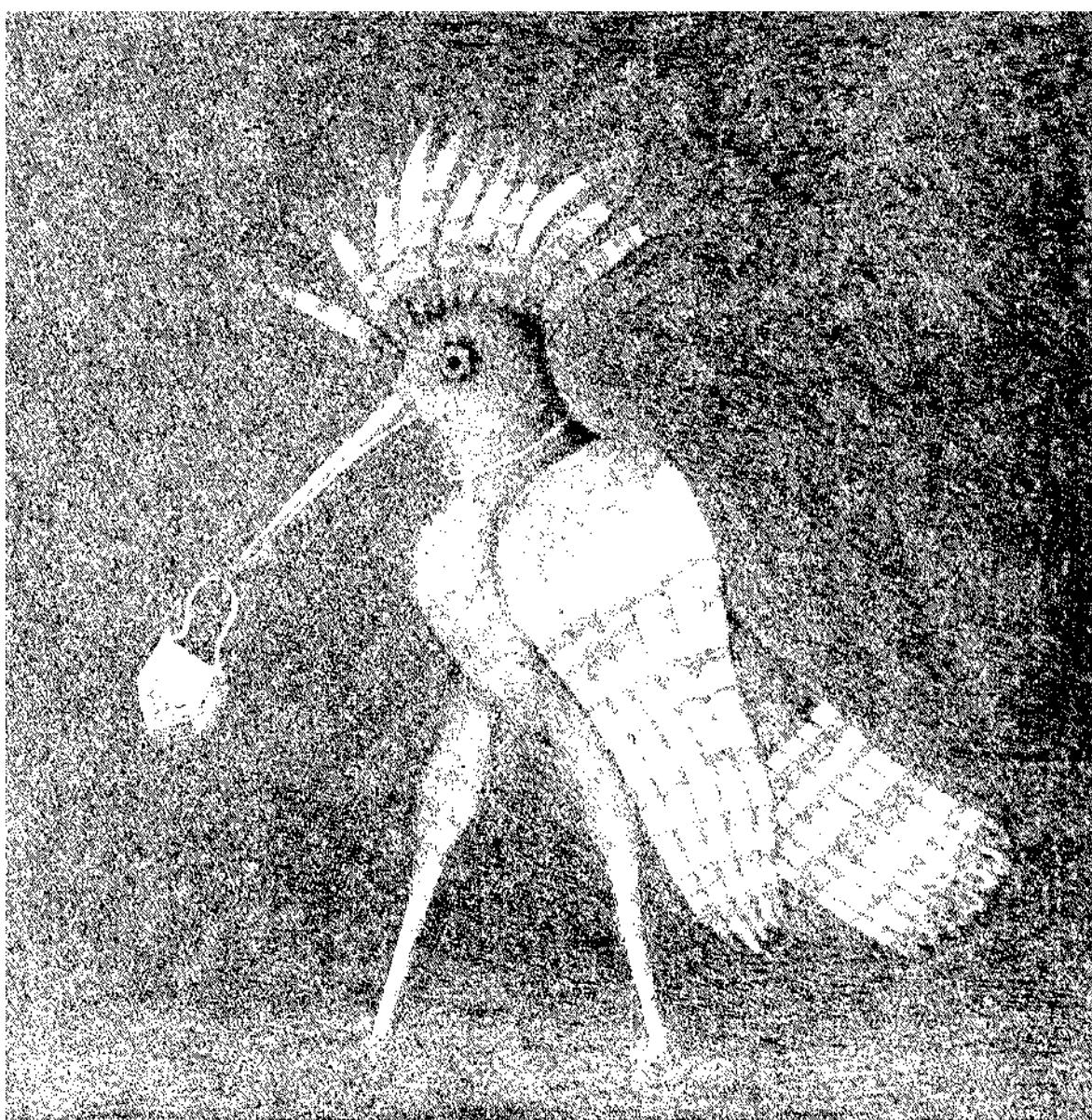
يتنهي حفر البئر فأهبط واستحم وأشرب. أخرج من البئر مبلل الريش فيشرب الجيش بعدي كله. لست في حاجة لتقديم نفسي إلى القاريء..

فهمتم أنني هدهد سليمان..

أشهر من نجوم السماء..

أعرف ذلك.

اعطاني الله ريشاً ملوناً حول رأسي لم يعطه أحداً من الطيور.. الطاووس في أحسن حالاته



لا يرتدي ثياباً مثل ثيابي.. ولا يؤدى جزءاً على ألف من مهامي الخطيرة العديدة التي أؤديها.. الطاوس مخلوق فارغ.. هو دائمًا معجب بنفسه دون مبرر مفهوم.. أما أنا فمتواضع رغم أهميتي الشديدة.. أقول لكم سراً.. أكاد أحياناً أحس أنني أهم من قائد الجيش.. راودني هذا الإحساس مرتين أو ثلاث مرات لا أنكر.. لكنني نجتني جانباً إيتاراً للسلامة وانتقاء لشر المتابعة.

أعترف أن سليمان ملك له هيئته.. أعترف أنني أخاف منه.

رغم خدماتي العظيمة التي أؤديها له.. أراني أخاف أحياناً منه.

لم أتحدث عن آخر مهمتي في خدمته.. أثرت أن أحافظ بأهميتي إلى النهاية.. هذه طريقتنا التقليدية نحو العاملين في المخابرات.. لا نقول أهم شيء إلا في نهاية الحديث.. نعم.. أنا «مارهالا» هدهد سليمان ورئيس المخابرات في جيشه..

ليست المخابرات مسألة سهلة.. ثم اختياري من بين عشرة آلاف هدهد.. امتحنهم سليمان جسمياً فوجدني أذكاء وأقدرهم على تحصيل المعلومات ونقشها في ذاكرتي والاحتفاظ بها حية طرية.. وتم اختياري يومها..

كان يوماً لا ينسى..

ملأني الزهو.. لا أنكر..

لا أنكر أيضاً أنني أحسست بخطر المسؤولية.. إن حياة الجيش كلهاأمانة في عنقي الجميل الذي يحيطه تاج إلهي من الريش الملون..

لا تتحرك الجيوش إلا إذا أعطيتها بنفسي إشارة التحرك الخضراء، وأنا الذي أحصل على المعلومات، وبغير المعلومات يبدو أعظم الجيوش مثل عمالق أعمى يستطيع أي طفل أن يكتبه على وجهه ويهزمه..

المعلومات هي حياة الجيش.. هي عينه الخفية التي يرى بها عدوه.. ويتصدر دائمًا في الحروب من يرى أكثر.. من يدرى عن عدوه أكثر..

مهمتي أنا أن أعرف..

وأنا دائمًا أعرف.. صحيح أنني أعمل بكل أعصايب، لكنني أيضًا ألعب بكل حيواني.. هناك فرق بين أوقات العمل الرسمية وأوقات الفراغ الحرة، أوقات العمل ملك لسليمان وجيشه.. أعمل فيها حتى النهاية، بعدها لا أهمل التسرية عن نفسي.. هذا حقي أنها السادة الطيور.. ليس من حق أحد أن يقول لي أين كنت.. انهيت أعمالني وكنت ألعب.. ما الذي يعنيك أنت أين كنت.. كنت أغازل هدهدة جميلة هناك، أو كنت نائماً فوق شجرة، أو كنت آكل وأشرب.. ماذا تريدون مني ما دمت أؤدي واجبي على الوجه الأكمل..

ليس دمي ثقيلاً مثل الأسد، ولست متصنعاً وقاره الكاذب وحركته البطيئة.. أعظم ما أكرهه أن يتقل أحد من عمله إلى بيته فينقل معه إحساسه بالأهمية ويعامل زوجته مثلها يعامل مرؤوسية.. بكبريات وعظمة.. اعتبر ذلك دليلاً على عدم النضوج..



العمل عمل واللهم هو.. ولن تجد أحداً يعرف اللهم حقاً إلا إذا كان يعرف العمل حقاً.
الخائب خائب في كل شيء. في العمل واللعب. هذه عقidi الثابتة. طبعاً أثارت طبيعي حولي
عديداً من المتاعب وجندت لي أعداء كثرين. لا أنكر أن لي أعداء أقوباء.
الأسد مثلاً أحد أعدائي القدماء.. المفروض أن الأسد يعمل جناحاً أين في الهجوم في
جيش سليمان.. تتبعه أسود ونمور عديدة.. نعرف يا سيدي الأسد أنك أسد.. أنك قوي..
أنك ملك الحيوانات لكنك يا سيدي الأسد منها سمات لا تستطيع أن ترتفع عن الأرض مثلـي.
أنا الطير الطائر الذي يقول لك في أي اتجاه تمضي وبأي سرعة تنطلق وأي هدف تنقض عليه..
يشير الأسد أعصابي كلها تذكرته.. .

إعتقدت الأسد كلها تغييت أن يسأل سؤالاً في ظاهره البراءة وباطنه الخبث.. إنه يقول: -

أين ذهب المدهد؟

وعادة يسمع سليمان كلمة الأسد، يزور الأسد إذا تحدث كان من حوله أصحابه بالصمم.
ملوّق سوقي.

أعرف أن الأسد يتعمد إهراجي بكل الوسائل.

لا تتوقف عداوته عند تنبية الملك سليمان إلى غيابي، وإنما يتغافل على أحياناً بالأسئلة. سألني ذات يوم.

- لماذا لم تتزوج حتى الآن؟

قلت: أرجو أن تعني بشؤونك الخاصة.

قال الأسد: أسائلك سؤالاً مجرداً فماذا أغضبك؟

قلت: يغضبني أن هذه مسألة شخصية بحتة. هل تحب أن أسألك أنا لماذا تزوجت؟

ضحك الأسد ضحكة هزت جدران الخيمة التي نعيش فيها فازداد نفوري منه. لماذا لا يهتم بشؤونه الخاصة ويستحم. إن رائحة الأسد تزكم الأنوف، وما كلامته يوماً إلا وأنا أدير منقاري بعيداً عنه.

استدعاني الملك سليمان ذات يوم.

نظرت إلى الشمس فرأيتها تتهياً لرحلة الغروب.

يقرب موعد صلاة الملك سليمان، فلماذا يستدعياني الآن؟ المفروض أن عملي ينتهي بعد قليل.. ذهبت إليه مهموماً، أخشى ما أخشى هذا الاستدعاء المفاجئ.. أجهل ما ي يريدني سليمان من أجله، وهذا أخاف. لو كنت أعرف لما هزني الخوف. هذه قيمة المعلومات والمخابرات. طرت نحو بيته.. وقف ونظرت كريستال الشباك.. كل شبابيك سليمان من الكريستال الملون بينما إطار النوافذ نحاس لامع عليه نقش من الفضة.. يغوص الجن في أعماق البحار لاحضار الرمل الناعم، ثم يشعلون تحته أحجاراً وأخشاباً حتى ينصلح الرمل ويدوّب ويصنعون منه الزجاج بأنواعه.. يعجبني سليمان..نبي صالح وملك مهيب، ورجل يعرف كيف يختار ثيابه وكلماته. ليس فيه من وجهة نظرٍ غير عيب واحد فقط. ذكاؤه الحاد.

أحياناً تتكلم معه فيخيل إليك أنه يقرأ أفكارك.. أو يقرأ ما بين سطور الكلمات التي تقولها والتي لا تقولها.. وفي مثل هذا الحوار الذي يجري بين طرفين غير متكافئين، لا بد أن تهزم.. وأنا لا أحب أن انهزم..

خلوق أنا أصلاً للانتصار.. سمح لي الملك سليمان بالدخول. دخلت الحجرة.. كانت إحدى زوجاته تجلس عند قدميه.

حنية رأسى بتحية عميقه وقلت: السلام على النبي الملك سليمان الحكيم.

أعرف أن هذه هي الألقاب التي يحبها سليمان..

قال سليمان ساخراً: السلام على المدهد الذي يعشق اللعب أكثر مما يعشق عمله. أحرجتني الملاحظة أمام زوجته، حنية رأسى ونششت ريشي الملون فانعكست عليه أشعة الشمس وظهر الناج الذي وضعه الله على رأسى أجمل من الناج الذي صنعه الجن لسليمان.. فهم سليمان مغزى الحركة وابتسم..

قال جاداً: لم تقدم إلى تقريرك الأسبوعي منذ ثلاثة أسابيع.

قلت - سيدى القائد.. ليس هناك جديد على الاطلاق.. يعمل الجن بمتنهى الاخلاص، ويشتغل الجند بأقصى الطاقة، وتقضى الأحوال هادئة في المملكة.. وقد فهمت من حديثك أنه لا داعي لتقديم تقرير إذا كان كل شيء في موضعه.

قال سليمان وهو يقطب: أنت لا تفهمين يا مارهالا.. لماذا تتصرّر أن عملك يقتصر على كتابة التقارير.. هذا أسلوب تقليدي في عمل المخابرات.. المفروض أن تعطيني إحساساً بأنك تبتكر في عملك..

قلت : حدثني الملك الذي قبل ذلك أنه راضٍ عن عملي.

قال سليمان برفق: تعرف ضعفي إزاءك يا مارهالا.. تعرف ابني أحبك.. راض أنا عن ذكائك ولست راضياً عن عملك. لم تقدم إلى فكرة عقيرية تجعلني أحس أنك تستحق دخول التاريخ.. ما زال عملك عادياً..

انحدرت قطرة من العرق على جبهتي.. أحسست الحرج وفكرت في حبيبي هيدان.. قال سليمان كأنه يقرأ أفكاري:

- هل تعرف اثنى من بني جنسك تحمل اسم هيدان؟.

قلت - نعم.

قال - سمعت أنك تنوی الزواج منها.

أحسست أن سليمان يورطني فانطوت على الصمت، أدرى أنه يعرف موقفي من الزواج. عاد سليمان يقول: لو كنت تعطي لعملك نصف عقريتك في اللهو لصار لك شأن عظيم. وأشار بيده أن انصرف فانصرفت مهموماً مثقلًا.. حائراً بين سليمان وهيدان. تقول لي: أنت دائمًا مشغول، ويقول سليمان لي: أنت دائمًا تلعب. وقد طالت حيرتي بينهما، ولم أعرف كيف أرضيه أو أرضيها. هي مأساة العباقة في كل الأزمات والعصور.. انصرفت إليها.

كانت خارجة من النهر بعد أن استحمت. لم تكن تراني حتى فردت جناحها الأيسر. ألمقت بتنفسها في أحضانها ووضعت رأسي على رقبتها وتنفست. تطاير الريش الجميل حول عنقها. سألتني وهي تغمض عينيها: سمعت أن سليمان يريديك.

قلت - قادم لتلوّي من عنده.

قالت بغيظ - لو كنت تعطيني نصف ما تعطيه لعملك لصرت أسعده هدهدة في الدنيا.

قلت بضيق - قال سليمان عكس ما تقوليه الآن.. يعطلي الحب عن النجاح في العمل.

قالت بدلال - سليمان يتجنّى عليك ويظلمك.

قلت بجسم - غير صحيح.. أنت وحدك الظالم يا هيدان.

قالت باكية - أنت دائمًا مشغول، دائمًا مسافر، دائمًا في اجتماعات مع مرؤوسيك. أنت إما ذاهب إلى سليمان وإما قادم من عنده. أين مكانك في حياتك.. أين أنا في قلبك.

قلت فجأة - اسمعي يا هيدان. أنت أجمل هدهدة في الدنيا.. وعندما أموت سوف أحلم حلماً واحداً يبدأ بمنقارك وينتهي بمنقارك. لقد أعطتني كلماتك فكرة عقيرية. تقولين إبني دائمًا أسافر. لم أسافر منذ فترة طويلة. هذا سر خوفي في العمل... سأسافر اليوم.. سأتجه جنوباً إلى جبال اليمن. قلبي يحذّنني أني سأعود بعمل طيب، وهناك أيضاً بدل السفر.

أطير مرتفعاً مخلقاً متعجباً من غرابة الأناث.. تقول كل هدهدة عرفتها ما تقوله هيدان. غير أنني أميل إلى هيدان. لو كانت أقل غيرة لتزوجتها. أخشى أن تفسد الغيرة حياتي. ما أجمل مشهد الأرض من ارتفاع شاهق. تبدو الصحراء مثل بساط من الذهب، ثم يحيي البحر مثل ثوب من

الفیروز الأزرق، ثم تحرى الحقول الخضراء تحت صدرك، أحس بيد الجلال الخالق وهي تسوق السحاب إلى قسم الجبال الملونة. يصطدم السحاب بالقمم ثم يهبط الثلوج مثل قبلات بيضاء.

خشع قلبي خلال طيرياني السريع.. رحت أسبح بحمد الله تعالى خلال طيرياني فازداد ارتفاععي دون أن أحس أو أشعر.. أنهيت تسبحي. فقلت أتأمل الأرض بحثاً عن المياه. عثرت على ثلاث مناطق للمياه لم تكتشف بعد في صحراء مهجورة.. حدثت في ذهني مناطق المياه وزدت سرعتي.. أليس مدهشاً أنني أطير دون أن أعرف سر الطيرياني !!

ها هي أسوار سبا..

الأسوار بيضاء والطرق واسعة والحقول كثيرة والقصور عديدة وهناك حرس كيف في الطرق، وثمة معبد هائل مكشوف تماماً الشمس ساحتة.

رجحت في نفسي أنهم أغنياء وأقوياء من شكل مديتها.. ان طرفهم مستوية لا تعرف المطبات، وأسطح المنازل نظيفة ومتلئه باصص الزرع.. اخترت شجرة عالية في أكبر قصر في المدينة ووقفت..

رأيت هدهدة لطيفة.

حييتها باحناء رأسى وأدرت وجهي عنها. رحت أفكر في طريقة لحملها على الكلام. لم استغرق وقتاً طويلاً في التفكير..

هوايتي المفضلة حمل الآخرين على الكلام.

قلت وأنا أنفض ريشي فجأة - أليست هنا أنهار قرية.

قالت المدهدة - هل أنت غريب؟.

قالت بحذر - سائح في أرض الله. أليست الأرض ملكاً لله؟

قالت المدهدة - وهي تقترب من غصني أكثر - الأرض هنا ملك للشمس.

شعرت بحاسة المخابرات الخفية أن في الجو رائحة عمل.. اقتربت منها قائلاً بود:

- كيف تكون الأرض ملكاً للشمس أيها المدهدة الوديعة؟

قالت المدهدة بسذاجة وصراحة - هنا يسجد الناس للشمس

فاجأتني كلمتها وقفز سليمان لذهني على الفور.. أخيراً عثرت على قضية خطيرة.. قضية لم أكن أحلم بها قط.. ناس يسجدون للشمس.. أليست هذه خيانة عظمى لتوحيد الله؟ أليس سليمان نبي الله وسفه في الأرض؟ تدخل القضية في اختصاصه إذن.. أحسست أنني قد صادفت يومي السعيد على الأرض.. خبطة هائلة..

ملأت صدري سعادة غامرة وأردت أن أطير واصرخ من الفرح وأفرد تاج الريش فوق رأسي وأقبضه.. ولكنني أمسكت أعصابي كأي رئيس عائد للمخابرات..

إلتفت إلى المدهدة متمنياً بهدوء ولا مبالغة:

- لطيف جداً.. لطيف جداً..

سألتني البلهاء - ما هو الشيء الذي تراه لطيفاً فيّ؟ .

فأنت مجاملاً - طريقتك في نطق الكلمات.. إنني هددهد يسافر كثيراً ويرى كثيراً ويعرف
كثيراً.. لم أر مثلك هددهدة تنطق الكلمات بهذه الوداعة.

ارتعش الغصن الذي تقف عليه، أصاب السهم هدفه، رأيتها تفرد اجمنتها بحركة تبدو غير مقصودة.. كأنما لتنفس عنها التراب. أرادت أن تريني رشاشتها.. لا بأس بها على أي حال. لم أكن في حالة تسمح لي بالتفكير في الحرب.. ما هي الخطوة التالية. أريد أن أعرف أكبر قدر من المعلومات عن هذه القضية على الفور.. لكنني لا أستطيع أن أبدأ استجوابي لها كي لا أثير شكوكها.. يحب أن يبدو كل شيء طبيعياً كجزء من حديث عفو عن الطقس أو الشجر أو الطعام أو الأنمار.

فرد تاج الريش فوق رأسي ونفشت صدري وصفقت بأجنحتي وأريتها كم أنا ساحر وجذاب.. واقتربت المهددة من العصن الذي أقف عليه أكثر.

قالت - لم تحدثني عن نفسك . من أين أنت قادم . إلى أين أنت ذاهب . هل عندك هداه
صغيرة .. ماذا تأكل . كيف تجد طعامك . اسمك . متى ولدت ؟

آه.. أراها هي التي تستجوبني.. قررت أن أجأّ لأسلوب الهجوم الساحق.

فرد جناحي الأين وضررت الغصن الذي تقف عليه ضربة قوية مفاجئة فكادت تسقط من فوقه. مالت قليلاً إلى الأمام واختل توازتها فلتقيتها بجناحي الأيسر. ورأت نفسها تقف على نفس الغصن الذي أُففَ فوقه وقد اقترب منقارها..

لو رأني سليمان لظن أني ألعب، ولو رأته هيدان لتصورت أني أخونها ومزقت الهواء بصرخاتها الغاضبة.. خطأ.. هذه النظرة خطأ.. هو عمل نؤديه من أجل مهنتنا.. وكل شيء يهون إذا تعلق الأمر بالمعلومات. عرفت منها عدد الناس في سباً. وحدّثني عن عدد الجنود والضباط. أخذتني لمخازن أسلحة الجيش فالتفقط لها صورة بعيني وأودعت الصورة في عقلي. أرني مداخل المدينة ومحارجها وأنهارها التي تشرب منها. شاهدت حقول الفلاحين ومصانعهم وبيوتهم. أخذتني من جناحي إلى معبد الشمس الذي يسجد فيه الناس للشمس. ورأيت قرصاً عظيماً من الذهب الملحى بالجوهر. وهو قرص تتعكس عليه أشعة الشمس فيخطف وهجه البصر.. ولا أنكر أن ضحكة أفلتت مني ونحن نشهد معبد الشمس فنظرت إلى المدهدة باستغراب. أخذتني لقصر الملكة التي تحكمهم فرأيت امرأة على قدر غريب من الحسن.. لم أر لها مثيلاً في قصر سليمان. ولاحظت أن ملابسها تغطي قدميها وتنسحب وراءها وهي تمشي، وقدرت أنها امرأة محشمة تحافظة، ثم افهمتني المدهدة أن في إحدى قدميها عيباً فهي تحفيهما معاً. لم تكن متزوجة.. ولكنها تملك شخصية امرأة تشبه شخصية الرجال.. رأيتها تعامل رؤساء قومها وزراء مملكتها ومستشارها معاملة حاسمة.

عَيْنَهَا الْوَحِيدُ هُوَ سَجُودُهَا لِلشَّمْسِ . رَأَيْتَهَا وَقَوْمُهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ .

كان عرشهما آية من آيات فن النحت العظيم .. سجلت في ذهني أوصاف عرشها الكاملة.

انتهى ما جمعته من معلومات . مكثت خمسة أيام في عاصمة المملكة وقرابها البعيدة. عرفت طول الطرق واتساعها وعرضها وقدرتها على احتفال المركبات الحربية لسليمان، بعد أن قدرت في ذهني أنه ربما يريد مهاجمة المملكة.

استطعت تجنب المدهدة اللطيفة التي التقى بها في سبا. دون أن أكشف لها شخصيتي. أثارت بعض المتابعة في البداية حين لاحظت أن اهتمامي بملكة سبا أكثر من اهتمامي بها، ثم أفهمتها أنني هدده فضولي هوايته طرح الأسئلة. اطمأننت منها إلى أن أحداً من الناس في سبا لا يعرف لغة الطيور والوحش والحيوانات مثل سليمان.. ورغم ذلك لم أحدها عن حقيقي أو مهمتي. من يدرى. الاحتياط أفضل ..

بعد انتهاء مهمتي تماماً في سبا. فكرت أن فهو قليلاً. أليس هذا حقي.. انتهى عملي على الوجه الأكمل فـأي ضرر في قليل من اللهو. قلت لزميلي وتلميذتي المدهدة: نريد مكاناً ريفياً فيه ديدان في الأرض ونهر قريب. وصحبتي لشاطئ ريفي جميل ..

قضيت ثلاثة أيام تشبه الحلم.. هدوء مطلق وريف وادع وخير عميم وصمت مريحة للأعصاب . رتبت المعلومات في ذهني أول يوم وصلنا فيه ثم قضيت اليومين التاليين مع المدهدة. لا شيء يريح عقل هدده مرهق مثل ثرثرة فارغة يسمعها من هدده تجاهه. كانت تسألني لماذا لا نسافر إلى مصر. يقولون إن هناك ريفاً رائعاً يمتد بالطريق وحظائر تحفل بالطعام. قلت لها ردأ على ثرثتها: إن في مصر زحاماً من الهداده ومشكلة اسكان هددهية وأنا لا أحب الزحام والضجيج .

كنت أقول أي كلام لأصد نفسها عن الذهاب سأله يوماً ألم أفك في الاستقرار والزواج؟ وما هو الشيء الذي أحلم به أفضل من ذلك؟ لم أقل لها هل تتصورين أنني هدده بلا عمل.. لم أقل لها أن ورائي مهاماً خطيرة في جيش سليمان.

تذكرت سليمان في اليوم الثالث. قلت لنفسي ماذا لو كان أحد الجن في جيشه يتمشى قريباً من هنا فرأني أعبث وألهو وأستمتع بهذا المصيف الريفي الهدادي .. ماذا لو نقل الصورة لسليمان.

يدبّحني سليمان لو عرف.
قلت للهدده فجأة: سارحل غداً.

قالت: خلني معك.
قلت: ليتنبي أستطيع.
قالت: لماذا لا تستطيع؟
قلت : ساعود إليك مرة ثانية.

بدأت تبكي وهي تلصق رأسها بصدري فقلت: دموعك تُرق قلبي ولكنني مضطرب للرحيل
وسوف تفهمين يوماً لماذا أرحل.. لقد أحببتك ولكنني يجب أن أسافر.

قالت يائسة منهارة مهددة: سأتوقف عن تناول الطعام والشراب لو ذهبت غداً.

قلت - بل أنا الذي يتصرّ إذا مكثت غداً. أنت لا تعرفي سليمان.

قالت - من يكون سليمان؟

قلت - أخي الكبير وسيدي وتابع رأسي.

هناك مشكلة عائلية تستوجب سفري غداً. أريد أن أسافر وفي ذهني صورتك وأنت
تضحكين.. ابتسمي أيتها الطيبة.. ابتسمي.. لم أستطع أن أنام ليلتها..

في منتصف الليل تركت فراشنا الدافئ وسط أغصان الشجر.. وطرت نحو السماء بلا
صوت..

قلت لأجنبتي: أقصى ارتفاع وأقصى سرعة. غدت أثناء الطريق فطرت طيراناً آلياً..
وصلت إلى خيمة الطيور في جيش سليمان.

وصلت فإذا الدنيا كلها مقلوبة على..

لم أكُد أدخل خيمة الطيور حتى أسرعت نحو عشرات الطيور فزعة متعددة تسأل - أين
كنت. أين كنت؟

تشاءمت من طريقة الاستقبال وقلت مدعياً رباطة الجأش - ماذا حدث.. ولماذا تصرخون
هكذا؟

قالوا خرج الملك سليمان في جولته على الجيوش.. مر على الجن، ومر على الروحش.. ثم
جاء إلى خيمتنا.. ناديت العصفور - وكان يعمل مديرًا لمكتبي - وسألته ماذا حدث. قال حدث ما
قالوه لك. جاء الملك سليمان.

«وتفقد الطير فقال مالي لا أرى المدهد أم كان من الغائبين. لأعذبه عذاباً شديداً أو
لأدبحنه أو ليأتني بسلطان مبين».

ارتعشت عظامي فتضطاهرت بالثبات وسألت:

- هل قال سليمان كل هذه التهديدات؟

قال العصفور - قالها كما تحكيها لك بغير زيادة وبلا نقص.

قلت للعصفور - ماذا كان ردك أنت.

قال العصفور - أردت أن أقول إنك في مهمة ولكن منقاري كان يرتعش ويصطرك فلم
استطع أن أكمل الكلام.

قلت مدير مكتبي - لا تخف.. مركزنا ثابت وقد كنت في مهمة. ماذا قال أعدائي
عني وكيف استغلوا الموقف؟

قال العصفور - برزت أنبيتهم جميعاً وقال كل واحد منهم كلمة كسم الشaban. قالوا أنت
طيب ولطيف ولكن؟ بعد كلمة لكن أحقوا بك نقائص الدنيا كلها يا سيدي، واتهموك باللعب
والاتهام.. نحن في مأزق يا سيدي.

قلت - لا تهتم .. سأخلص من المأزق.

تظاهرت بالثبات ورحت أتمنى ولكنني وجدت نفسي ساقع مغشياً عليّ ، كنت أرتعش ولا أعرف كيف يستقبل سليمان فصفي عن سبأ .

ربما لا يصدق . ربما تصور أنني اختلق له قصة وهيبة لبرير غيابي ..

وصلت هيدان مزقة الريش باكية . ارتفت علىيّ وصرخت :

- أين كنت . سليمان يهدد بذبحك .. وهو غاضب أشد الغضب . كان الموقف دقيقاً . إن هدهدي الحبيبة مرعوبة .. صرخت فيها أن تكف عن البكاء فكفت . قلت لها آمراً .. من يظنني سليمان .. يسيء فهمي هذا الملك العظيم ويتصور أنني ألعب ، سأحاسبه على رأيه في أفضل جنوده . نفشت صدري وقلبي يرتعش من الداخل .

سكنت هيدان واطمأنت من ثوقي .. ومضيت بتراب السفر نحو قصر سليمان . مضيت وقد تنازعني الاحساس المتضاربة المختلفة .. كنت خائفاً وحائضاً وياسأً وأملاً ومرعوباً وشجاعاً في نفس الوقت . قيل لي إن سليمان يأكل . وقد أمر ألا يدخل عليه أحد .
قلت للحارس : تنح عن طريقي فلم آت هنا لألهو أو ألعب .. معني أخبار لا تحتمل الانتظار لحظة .

لم يفهم الحارس ما قلته له . لا يفهم لغتنا أحد غير سليمان . سمع النبي وهو يأكل صرخاتي الغاضبة فأمر أن أدخل عليه .
دخلت غرفة الطعام ووقفت في الطرف الثاني من المائدة بعيداً عن يده .. قلت لسليمان وهو لم يضع سكينه بعد :

﴿أحاطت بما لم تحظ به ، وجئتكم من سبأ بنباً يقين﴾.

لم أكد أقول لسليمان «أحاطت بما لم تحظ به» حتى أحست أنني دخلت التاريخ . من الذي جرؤ قلي على قوله له . ومن الذي سيجرؤ بعدي على قوله له .
لأحد .

إنني أقول لسليمان بنبرة هجومية : إنني أعرف ما لا تعرف .

هي جرأة دفعني إليها اليأس والخوف . كنت مضطراً لهذا الأسلوب . أفضل طرق الدفاع أن تبدأ بالهجوم . يعلم الله - خالق سليمان وخاليقي - أنني كنت أرتعش من الداخل وأنا أقول لها . وضع سليمان سكينه في الطبق الذهبي وانحنى على المائدة وأطلت من عينيه نظرة دهشة . عدت أقول له قبل أن يفتق من دهشته :

﴿إني وجدت امرأة تملّكم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدتهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾.
كان سليمان يتبع ما أقول بدهشة في البداية ، ثم بغضب ، ثم بدأ على وجهه الاهتمام . أدركت أنه يصغي بعمق . قلت أستغل طوق النجاة الممدود فانشأت أحدث ﴿ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخباء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾.

كانت هذه الجملة الأخيرة أصلاً من كلمات سليمان التي يقولها للناس وهو يدعوهم إلى الله. وقد وجدت المقام مناسباً للاستشهاد بها في حديثي عن سباء. انهيت كلامي وانتظرت.

نكسر سليمان رأسه، وزوى ما بين حاجبيه، وراح يفكر.. وساد صمت. ارتفعت دقات قلبي حتى خيل إلي أنها تملأ فراغ القاعة الهائلة وتکاد تر prez ج الجدران من مكانها.. أخيراً رفع سليمان رأسه وتحدى قال «ستنظر أصدق أم كنت من الكاذبين».

احسست أن ضغط دمي يعود لحالته الطبيعية.. لقد نجوت مؤقتاً.. أنشأت تحدي سريعة. قلت لسليمان كل ما جمعته من المعلومات عنها.. حدثته عن عرشها الهائل الذي يعتبر تحفة فنية من تحف الصناعة الذهبية. حدثته عن معبد الشمس الذي يقيمون فيه شعائرهم ويسيرون..

حدثته عن عدد قوات المملكة والجيش واستعداداتهم، باختصار، وضعت أمام ذاكرته كل ما جمعته من المعلومات.

أمر سليمان بحضار ورقة وقلم.. كتب شيئاً في الورقة ثم أغلقها ومدتها إلىي.. وقال: «إذهب بكتابي هذا فالقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون» طرت من نهاية المائدة والتقطت كتاب سليمان بمنقاري ولوبيت عنقي وتهيأت للرحيل..

تحسست الخطاب بمنقاري وقلت لسليمان: سيدى القائد.. الرحلة طويلة وتيارات الهواء في أعلى الجو قد تمزق ورق الخطاب. اقترح أن نضعه في غلاف ذهبي يقيه الهواء.

أمر سليمان بصنع غلاف من الذهب للخطاب. وأمرني أن أحضر في الصباح لاستلامه والقيام بال مهمة.

كانت أمامي ساعات كاملة حتى يجيء الصباح.. خرجت من قصر سليمان مزهواً أحس أنني نجوت.

سألني مدير مكتبي (العصفور) - ماذا حدث يا سيدى المدهد.. أراك قد نجوت. قلت بكلبراء أوقفه عند حده - اهتم بعملك أنت.. هل رأيتني مهدداً لتقول إنني نجوت.

سألتني هيدان بلهفة - ماذا قال لك سليمان وماذا قلت له؟

قلت لها برصانة - هذه أسرار أمن عليا فاهتمي بريشك المزق.

مررت على أعدائي جميعاً. مررت على الشامتين بنا، كان الأسد قد قال كعادته كلمة ردية في حفي حين تحدث سليمان عن ذبحي.. قال الأسد بعد أن غادر سليمان الخيمة: المدهد فعلاً يستحق الذبح.

ها قد جاءت فرصتي لأرد له تحيته ..

سألني الأسد بصوته الجمهوري السوفي - أين كنت يا مارهالا؟. قلت للأسد: متى كان قادة المخابرات يحدثون الجندي أين كانوا.. أنت جندي أيها الأسد.. أنت مجرد قوة يوجهها عقل آخر..

أهتم بشؤونك وستعرف حين تصدر إليك الأوامر بالحركة أين كان مارهالا. كنت أختال مزهواً وقد أغفلت فمي تماماً. لم أقل لأحد ولم يعرف أحد ماذا دار بين سليمان وبيني. تركت كل واحد يحفر في ذاكرته ويجهد نفسه. ومضيت صامتاً يحف بي جو من الغموض والخطورة. قلت لكم إن مهنة المخابرات مهنة شاقة.

انتهى غلاف الخطاب فحملته وطرت به إلى سبا. دخلت غرفة نوم الملكة ووقفت على أحد النقوش البارزة في السقف وأسقطت الخطاب عند رأسها. استيقظت بلقيس.. عيناها جميلتان حقاً.. ولكنها تبعد الشمس للأسف. فتحت الملكة الخطاب وقرأته. رأيت من مكاني في السقف أن قلبها يدق بعنف. لا أعرف حتى الآن ماذا قال سليمان لها. دقت ناقوساً إلى جوار فراشها فحضر ثلاثة من الخدم، أمرت بعقد اجتماع للوزراء ومثلي الشعب على الفور. راحت تتلفت حولها لتعرف من أين جاءها الخطاب.. التصبت أكثر بالسقف كي لا تراني. دخلت هدهدتى السببية الحجرة.. طارت نحوى وهي تبكي وتصرخ.

- أين أنت يا مارهالا.. دخت عليك يا حبيبي فـأين أنت. ماذا تفعل في مخدع الملكة. هل تبحث عنى هنا.. ما الذي جاء بك بهذه السرعة، هل حللت المشكلة العائلية؟
قلت هدهدتى بحسسم - أصمسي قليلاً فإن وراءنا عملاً أهم.

ألقت الهدهدة بنفسها على وراحت تقبلى. ونظرت بلقيس إلى السقف فرأتنا معًا.. تأملتنا قليلاً ثم نهضت مسرعة تأخذ حام الصباح. كان واضحًا أنها مشغولة تفكير في خطاب سليمان.

مكثت في سبا يومين. وعدت طائراً بأقصى ارتفاع وأقصى سرعة. وجدت سليمان يتقدّم جيشه.. قلت له: هل تمد إلى يدك إليها الملك لأقف عليها فإنني مجهد من الطيران. مد إلى سليمان يده فوقفت عليها. سألي عما تم في أمر رسالته. قلت له ألقيتها على الملكة، فاستدعت على الفور وزراءها ومثلي شعبها و.. «قالت يا إليها الملا إني ألقى إلى كتاب كريم. إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تعلوا على وأتونى مسلمين. قالت يا إليها الملا افتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون. قالوا: نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانتظري ماذا تأمررين. قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلة وكذلك يفعلون، وإن مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون».

سألي سليمان - ما هي ملاحظاتك الخاصة على ما حدث.

قلت - أعتقد أن الشورى عندهم صورية.. فإنها سألهـم رأيـهم فـحدـثـوها عن فـوتـهم ثـم فـوضـوا إلـيـها الأمـرـ في النـهاـيـةـ. هـمـ قـومـ بلاـ رـأـيـ. ثـمـ إـنـهـمـ يـتصـوـرـونـ أـنـهـمـ يـحاـوـلـونـ شـرـاءـ سـكـوتـكـ بهـديـةـ. ضـحـكـ سـليمـانـ طـويـلاـ فـاسـتـراـحتـ أـعـصـابـيـ.

وصل رسول بلقيس يحملون هديتهم. كنت أول من عرف الخبر، أنبأتني هداهـد الاستطلاع بكل شيء، هناك هـداهـد طـائـرةـ في الجـوـ طـوالـ اللـيلـ والنـهـارـ. هـؤـلـاءـ هـداهـدـ مـخـابـراتـ يـتـبعـونـيـ وـيـعـملـونـ تـحـتـ أمرـيـ.. قـسـمتـ العـمـلـ فـيهـاـ بـيـنـهـمـ لـيـحـمـلـوـاـ إـلـيـ أيـ خـبـرـ عنـ أيـ قـدـمـ غـرـيـبةـ تـدـبـ فيـ

الملكة. عرفت أوصاف الهدية منهم وحدثت الملك سليمان عنها وأنا أقاوم الضحك. كانوا فرحين بهديتهم يتصورون أنها شيء عظيم. كانت الهدية بالنسبة إلينا.. أقصد بالنسبة لسليمان.. شيئاً عادياً، أخلط كثيراً بين سليمان وبيني هذه الأيام، وذلك شيء خطير.. أعترف بذلك. قابل الملك سليمان رسول بلقيس وهو جالس على عرشه وحوله أسود من الذهب وأسود حقيقة. ثناءب أحد الأسود الحقيقة فحمدته سليمان بلغته أن يكف عن التثاؤب، وسألة أين كان يسهر ليلة الامس. كان هذا هو الأسد السمح الذي لا يكفي عن ازعاجي. قلت لسليمان: إن الأسد كان يغازل اثنى جديدة ألحقت بسلاح الأسود.. اعتدل الأسد في وقوته وشد صدره لأعلى ثم زأر معتنراً. أغمي على رئيس وفد بلقيس من المفاجأة وكان عجوزاً شيخاً لم ير في حياته أبداً حقيقياً. رفض سليمان هديتهم وأفهمهم أنهم يخطئون لو حاولوا شراءه بالذهب. أشار إلى ذهب الحيطان والأرض والتماثيل وأفهمهم أنه لا يطلب سوى إسلامهم.

هددهم سليمان بالغزو.. يعجبني سليمان في إيجاز عبارته الدال على قوله. إنه لا يهوش ولا يعمد إلى التضخيم شأن الضعفاء.. تغنى قوته عن ذلك. دعوني أذكر نص عبارته لرئيس الوفد بعد أن أفاق: «فَلِمَا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتَمْدُونِي بِمَا أَتَاكُمْ، بِلَ أَنْتُمْ بِهِدِّيَتِكُمْ تُفْرِحُونَ. الرَّجُعُ إِلَيْهِمْ فَلَنْأَتَيْنَهُمْ بِجُنُودٍ لَا قَبْلَهُمْ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذْلَلَهُ وَهُمْ صَاغِرُونَ» النصرف الوفد وقد لمعت وجوه أعضائه بعرق الحرف البارد. وجلس سليمان مطمئناً وائقاً.

مررت الأيام.. عاودت حياتي الطبيعية ونجا عنقي من الذبح وظهر صدقى. مشكلة المشاكل بالنسبة للمهمين من أمثالى المداهيد، إنهم مهددون بالذبح في أي وقت.. إما قمة المجد أو سيف سليمان على الرقبة.. ليس هناك حل وسط في الموضوع ، هذه هي السمة البارزة في حياة العظماء. يعيشون دائمًا وسط الخطر. أعرف هدهداً متوسطاً في كل شيء. يعيش في أمان مطلق.. لكن أحداً لم يسمع باسمه، بينما أنا.. لا أريد أن أتباهى.. يعلمنا سليمان التواضع الشديد ويقول لنا دائمًا: إن العظمة الحقيقة تكمن في التواضع، لأن الله سبحانه هو الذي يملك وحده حق الكبرياء، إن قوته تستند إلى قوته، أما البشر القانون والمداهيد الفانية وكل ملوك الأرض وحكامها القانون، فهو لا يعطيهم الله، ولو شاء لامسك عطاوه عنهم فضاعوا.. كيف يفخر الإنسان أو القانون، فهؤلاء يعطيم الله، ولو شاء لامسك عطاوه عنهم فضاعوا.. كيف يفخر الجن أو المدهدد بذكائه أو منصبه أو ثراه أو قوته، إذا كانت القوة والذكاء والمنصب والثراء كلها ليست ملكاً لنا، وإنما هي عارية مسترجعة وقرض مسترد. يجب ألا أفخر أو أتباه أو أنكر.. ها إنذا أخفض رأسى وأفرد اجنبتي وأصلى.. الحمد لك يا رب.. خلقتني هدهداً ذكياً وكان يمكن أن تخلقني هدهداً غبياً. وخلقتني في مركز عظيم وكان يمكن أن تخلقني في مركز بسيط. وخلقتني أصلاً وكان في قدرتك ألا تخلقني أساساً.. لك الحمد. لك المجد. لك الكبرياء لك الملك. لك الحكم.

اللهم إن القضية توشك على الانتهاء فانصرني فيها. أريد أن أكون سبباً في إسلام الناس يا رب.

كان الملك سليمان يجلس على عرشه وحوله وزراؤه وقادته من الجن والأنس، والطيور

والوحوش، حين التفت إليّ يسألني فجأة: ما أهم شيء لفت انتباحك في مملكة سبأ؟ قلت: عرش الملكة، وإحساس الناس بأنهم متقدمون في فنون البناء والتشييد والصناعة والنحت.. تركني سليمان وأدار بصره في وزرائه وقادته ورجاله، أحياناً لا أفهم سليمان، أحياناً تبدو أسئلته غريبة، غير أن تقدم الوقت بي يجعل أشد استئنته غرابة يتكتشف فيما بعد عن حكمة عظيمة.. تكلم سليمان فجأة.. «قال يا أيها الملأ أيكم يأتي بي عرشها قبل أن يأتوني مسلمين. قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وإنى عليه لقويٍّ أمن. قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك. فلما رأه مستقرًا عنده قال هذا من فضل ربِّي ليبلوبي أشكُر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربِّي غنيٌّ كريم».

شاهدت بنفسي ما حدث.. وأعترف أنني ذهلت. أن عرش بلقيس كان قاعدة من الفضة المطعم بالذهب. وكان كرسيًا من الذهب المطعم بالفضة، وكان حائطاً عليه رسم الشمس، صنع كله من الذهب والفضة، كان الغطاء النقدي من الذهب والفضة لمملكة سبأ موضوعاً كله في العرش. وكان العرش ثقيلاً، يزن ما يقرب من عشرة أشجار ثقيلة، وكان بعيداً مسافة طيران يوم كامل من هدهد سريع مثلي.. ورغم ذلك جاء العرش. امتحن سليمان رجاله فقال العفريت إنه يستطيع احضاره قبل أن يقوم سليمان من مقامه، وكان سليمان يقوم من مكانه بعد ساعتين.. وقال الذي عنده علم من الكتاب إنه يستطيع احضاره في لمح البصر.. في اللحظة التي يربض فيها سليمان بعينيه كان العرش أمامنا..

أعرف أن الناس ستسأل: من هو الذي عنده علم من الكتاب؟.. ما اسمه؟.. وكيف أحضره؟.. وأي كتاب هذا الذي يمنح هذه القوى الهائلة؟.. وأعتقد بيني وبين نفسي أن هذه أشياء تخص سليمان وحده.. المهم في القصة وجود مخلوق بهذه القدرة في مجلس سليمان.. مخلوق ليسنبياً ولا ملكاً.. مخلوق عنده علم من الكتاب.. شيء آخر غير كتاب الجن.. فإن عفريت الجن كان سيحضر العرش في ساعتين.. لن أقول اسم من أحضر العرش، ولن المتحدث عن كتابه.. من لا يرى قدرة الله فيها حدث ويكتفي، ويسأله أسئلة فضولية لا يستحق عناء المناقشة.. ثم إنكم تنسون أنني رئيس المخابرات في جيش سليمان.. تنسون أن مهمتي الأولى هي كتمان السر بعد معرفته.

وأنا أعرف من الذي أحضر العرش.. أعرف كيف أحضره.. لكن عبثاً تتذمرون أن أحكي.. لن أقول أبداً.. من يدري ربما وقعت هذه المذكرات في أيدي غريبة.. ليقل سليمان إذا كان يريد أن يقول.. أما أنا فانيأغلق منقاري على السر وأصمت..

أمر سليمان بتثكير عرشها.. أمر بتغييره.. أمر بوضع الأحجار الكريمة واللآلئ في أماكن غير مكانها الأصلي حول قرص الشمس.

لم أنهem لماذا يفعل سليمان ذلك.. أحياناً لا أفهم سليمان.. أمر أيضاً ببناء قصر على البحر.. كان الأمر يقضي بأن يكون القصر عتداً بنصفه في البحر.. أمر سليمان بأن تصنع أرض القصر من الكريستال الشفاف، بحيث يرى السائر في حجرة الطعام مثلاً قاع البحر باسماته

الملونة وأحیائه المائیة.. أمر أن تصنع الجدران من خشب الصندل المعطر، وأن تصنع الأسقف من الزجاج الملون الذي يمسكه الذهب بحيث تسقط أشعة الشمس على السقف فتهار إلى ألواهها السبعة الأصلية وتلون الحجرة، وبذلك تستخدم الشمس خادماً للإنسان كما خلقها الله.. أمر سليمان أن يتم بناء القصر في أقل من الفترة التي يستغرقها وصول بلقيس من سبا إلى مكاننا.. انتهى بناء القصر. فأمر سليمان أن يوضع عرش بلقيس بعد تغييره وتنكيره وإخفاء معالمه في قاعة الاستقبال في القصر.. أمر أن تفتح الجدران أمام العرش، بدأت أفهم تصرفات الملك سليمان.. إنه لا يريد أن ينافش بلقيس كثيراً.. يريد منها أن تفهم حين ترى ملكه وجده، وتقارن ملوكها الصغير المتواضع به، يريد لها أن تفهم أن عبادة الشمس أو عبادة أي مخلوق آخر، لا يمكن أن تؤدي للنجاح أو التقدم، وإن أردت لما يشبه النجاح والتقدم.

لا يتقدم إلا من يسلم وجهه لله أولاً.. ثم يأخذ بأسباب العلم ثانياً.

أدركت ذلك وصدقت الأيام ظني ، وأسلمت بالقيس مع سليمان الله رب العالمين.

﴿قالَ نَكْرُوا هُنَّا عِرْشَهَا نَنْظَرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الظِّنَّ لَا يَهْتَدُونَ. فَلَمَّا جَاءَتْ قَبْلَةُ أَهْكَذَا عَرْشَكَ، قَالَتْ كَانَهُ هُوَ. وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ، وَصَدَرَهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونَ اللَّهِ إِنَّمَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ. قَبْلَهَا إِدْخَلَى الصَّرْحِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لَجَةً وَكَثُفْتَهُ عَنْ سَاقِيهَا. قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مَرْدٌ مِنْ قَوَارِيرِهِ. قَالَتْ رَبِّيْنِيْ ظَلَمْتَنِيْ نَفْسِيْ وَأَسْلَمْتَنِيْ مَعَ سَلِيمَانَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

لم تكد تقوها حتى وقفت أمام الملك سليمان.. صفت بأجنحتي وقلت:
- سيدني سليمان الحكيم.. ربحت لك القضية. وأنقذت نفساً إنسانية من دمار الهالك.
أنقذت معها شعيباً من غياب عبادة غير الله..

قال سليمان: ماذا تريد يا مارهالا؟ .. أنا راض عن عملك.

فلت: لا يكفيه، الأمران معاً.. أريد أن أدخل التاريخ.

قال: ساعطيك أسمى... سنسننيك هدهد سليمان.

تساعلت: ألسن هدهد سليمان.

قال سليمان: أنت هدهد سليمان.. لكنني سأعملن في أرجاء الأرض جميعاً نسبتك إلىّ.

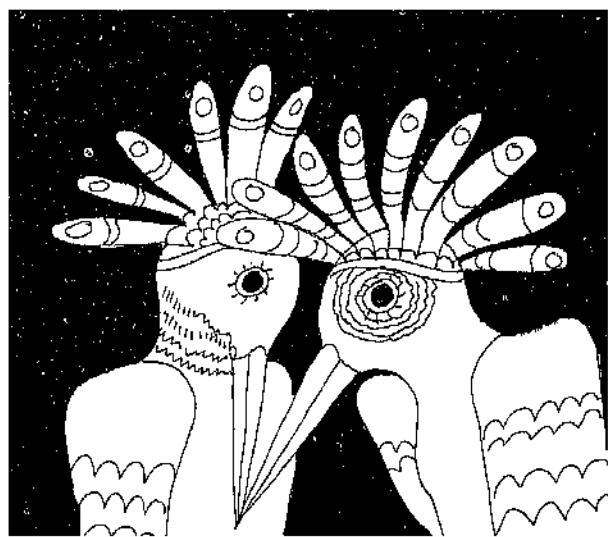
قلت لسليمان: لا تسعني الدنيا كلها يا سيدى.. لكننى أطمع فيها هو أكثر..

قال سليمان دهشًا: ماذا تريد يا مارهala.

قلت: أريد أن يمتد ذكري في التاريخ.. أريد أن يسمع الملايين عن هذه القضية.. أريد أن يعرفني الناس بعد موتي ابتداء من اليوم إلى يوم القيمة.. قال سليمان بداعية: ليس.. هذا ينبع، يا مار هالا.. هذا أمر عملكه الله وحده..

قلت: أعرف ذلك أهيا النبي العظيم.. أعرف.. لكنك تملك أن تدعوا الله أن يخا
على الزمن.. رفع سليمان رأسه وسألني فجأة:
ـ مارهالا.. أيكون الغرور قد أصابك. أ تكون قد ظننت نفسك شيئاً..
قلت بحيرة: ليس الغرور أهيا النبي هو مشكلتي.. أريد أن يعلم الناس أن
متواضعاً بسيطاً كان سبباً سخره الله تعالى لإسلام أمة كاملة.. هذا حقي أهيا النبي..
ومجدى في نفس الوقت.
تبسم سليمان ومد يده وربت على رأسي ودعا الله أن يعطر ذكري على امتداد الزمر
القيامة..

انتهى سليمان من دعائه لي..
انحنىت على يده التي تربت على رأسي وقبلتها..
صرفي بإشارة من يده.. قلت وأنا أتهدى للإنصراف:
ـ أعرف أن الله يستجيب دعاءك أهيا النبي العظيم.. لكنني أفكر دهشاً كيف ية
في التاريخ حتى يوم القيمة.. أي كتاب هذا الذي يعيش إلى يوم القيمة؟
قال سليمان: مثلك أنا يا مارهالا لا أعرف الغيب.. سألتني أن أدعوه لك فدعوه
صدقني.. لست أعرف كيف يتحقق الله دعوي..
مثلك تماماً تنتابني الدهشة من هذا الكتاب الذي يعيش إلى يوم القيمة..
أي نبي يكون صاحبه؟
لست أعرف يا مارهالا.. هذا كله غيب لا تدريه ولا أدريه مثلك..

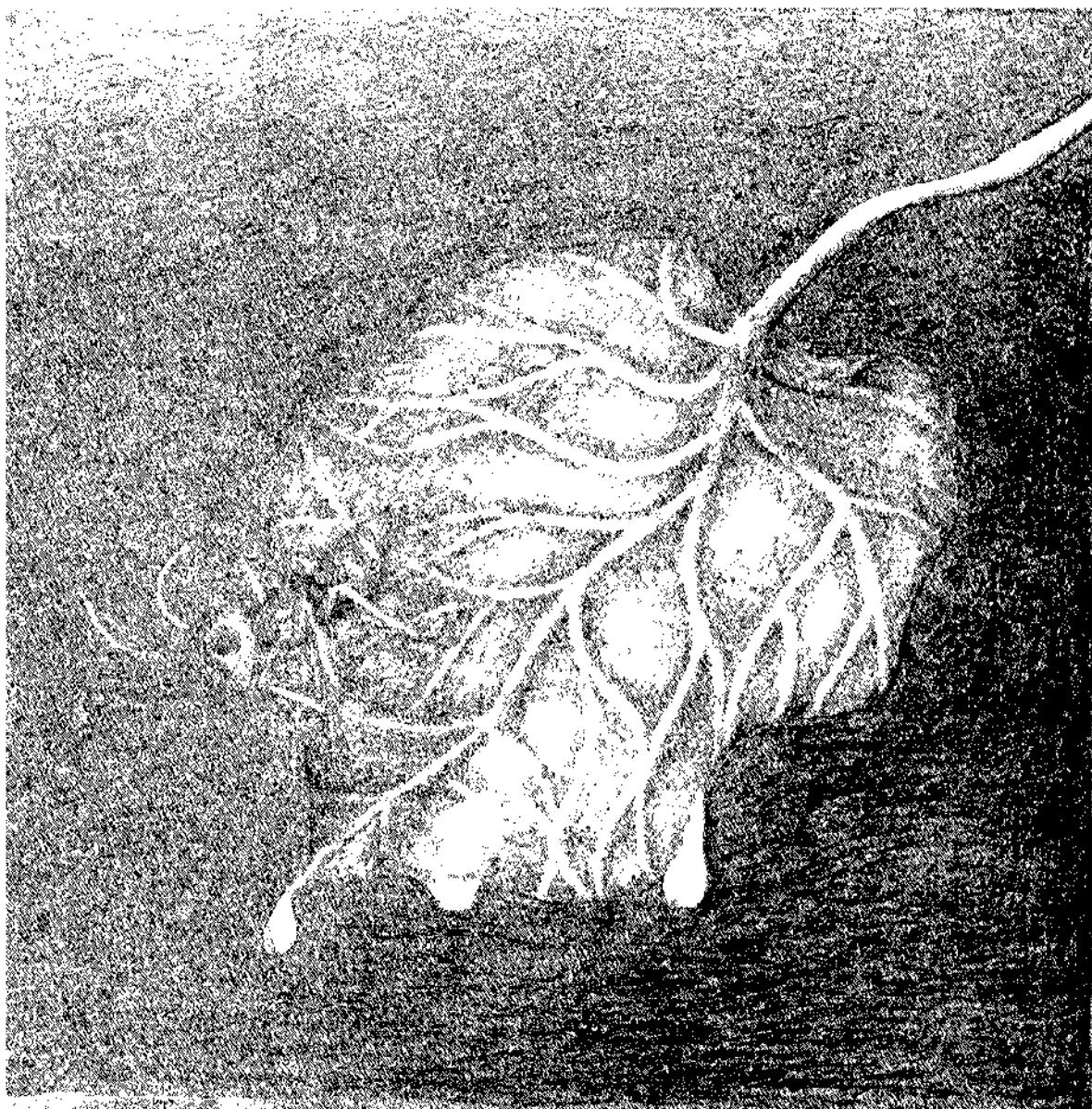


نَمْلَةٌ وَسِرْتِلْمَانٌ

لَهُ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَابْدِي النَّمْلِ قَالُوا نَمْلَةٌ: يَا
أَيُّهَا النَّمْلُ اذْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطُمْنَكُمْ سُلَيْمانٌ
وَجَحُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِهِ.

(سورة النمل - آية ١٨)

أعرف لماذا خلق الله النمل بوصفي نملة..
ولكنني فشلت أن أعرف لماذا خلق الله الإنسان..
هذا المخلوق الغريب المدهش... وأحياناً هذا المخلوق المزعج..
يسير هكذا بلا مبالاة.. يطأ بأقدامه مئات من جيوش النمل.
يحطم بخيله آلافاً من النمل..
دون أن يحس أو يشعر..
دون أن يعرف أو يدرى..
دون أن يدرك..
دون أن يلاحظ.. دون أن يفهم.. دون أن يغضب أو يحزن..
أي قسوة تنطوي عليها اللامبالاة حين لا ترى ولا تسمع..
أي قسوة..
نحن نحمل حبة الأرض في نصف يوم كامل..
ليست حياتنا سهلة..
أحياناً نتعثر على قطعة من السكر.. ويجتمع مجلس الخبراء الأعلى في الأمن الغذائي..
ـ هناك بعض فتات السكر
ـ أين?
ـ على بعد ألف مسيرة نملة من شجرة التفاح..
ـ كم نملة تلزم لنقلها?
ـ عشرة آلاف.



- احشدوا جيشاً من خمسين ألف نملة..

لماذا نسرف في حشد جيوش النمل..

لأن الإنسان يسرف في تحطيمنا دون سبب أو مبرر، لا أريد أن أسرف في الحديث.. المفروض أنني نملة.. والنملة شيء صغير.. حشرة صغيرة، والاختصار جزء من طبيعتنا، والحكمة جزء من طباعنا، وما قل ودل هو شعارنا في الحياة.

ورغم أن حجمنا لا يتجاوز مليمترتين.. إلا أن الله الرحيم الكريم عوضنا عن صغر الحجم وضعف الجسد بجوبه التنظيم والإدارة وإجراء الحسابات الدقيقة.

نحن لا نؤخذ على غرة، لا تذهبنا المفاجأة.. نؤمن بقضاء الله وقدره، ونعرف أن كوياناً من الماء يستطيع إغراق جيش من النمل.. ولكن إيماننا بالله لا يعنينا من إجراء حسابات وعمل دراسات للجدوى وتنظيم كل شيء وإدارة كل شيء باحكام.. بل إننا نفهم أن الإيمان بالله يقتضي هذا ويستوجبه.. فإن للكون قوانين لا تنكسر لأحد ولا تخرب على طبيعتها لمخلوق.. لا أريد أن أطيل عليكم.. كنت نملة من نمل الحراسة في وادي النمل.. هل تعرفون أين يقع وادي النمل؟.

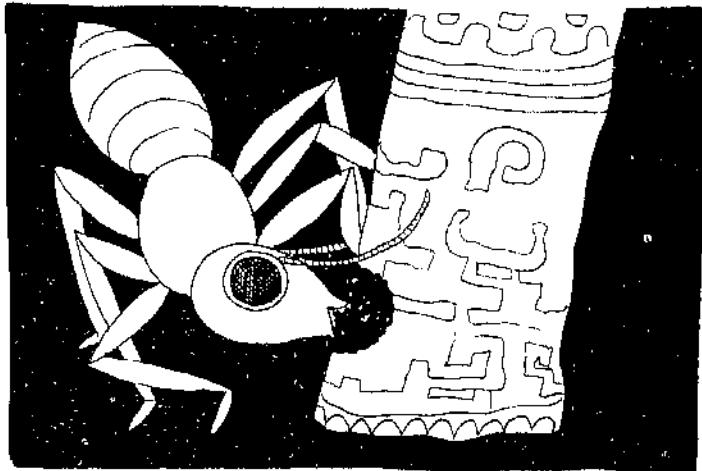
أنت لا تعرفون أين يقع وادي النمل..

هذا أفضل.. من الأفضل أن تخبيء المخلوقات الصغيرة أوديتها حرضاً على حياتها، إن الظن السائد أن ضآلة حجم المخلوقات يوشك أن يكون سبباً في هلاكها، ووسط غابة الحياة الدنيا، إما أن تكون ذبابة أو تأكلك الذئاب، وإما أن تكون ثمراً أو تأكلك النمور، أليس هذا ما يقوله البشر؟ ماذا يفعل النمل في الدنيا إذن وهو يكاد يكون أصغر الخلائق..؟ إن رحمة الله تعالى أجبت على السؤال فلم تعد لنا حاجة أن نصير ذباباً لكي لا تأكلنا الذئاب..

لقد زودنا الله تعالى بحياة مدهشة، وليس هناك كائنات يبلغ التخصص فيها ما يبلغه من الدقة في عالم النمل..

إن النمل لا يعيش وحيداً، إنما يعيش في مستعمرات يبلغ عددها مئات الآلاف، وتقسم العمل بيننا قاطع وواضح، إن عمل الإناث مثلاً لا يمكن للذكور القيام به، وعمل الشغالات لا يمكن لغيرهم أن يؤديه، ومدننا تقع تحت الأرض.. وهيمدن تتصل بشبكات معقدة من الطرق التي يستحيل على غير النمل أن يسير فيها، ونحن نبني مدننا تحت الأرض على أعماق تكفي لبعد أي خطير محتمل..

ونحن ثلاثة أنواع.. الإناث والذكور والشغالات.. وكل جنس منا يولد وهو يعلم وظيفته تماماً، وليس هناك من يعلمنا كالبشر، نحن نتعلم مباشرة من الله، تلقت أول نملة خلقها الله كل علم النمل، وورثته للأحفاد، لا تكاد النملة منا تولد حتى تعرف الجنس الذي تستمی إليه، وتبدأ على الفور بإداء كل واجبات هذا الجنس.. لا تتضرر.. ولا نطمحل ولا نحلم..



لا تنبت لنا أجنحة إلا عندما نحب.. في موسم التزاوج وحده تنبت لنا أجنحة، وما يتصوره الناس انه جنس خاص من النمل الطائر ليس في الحقيقة إلا الذكور والإثاث في موسم الحب.. وعندما ينتهي الموسم يسقط الذكر على الأرض ويموت، لقد انتهت مهمته ولم يعد لحياته معنى، وبموت الذكر تبدأ مهمة الأنثى.. تفرض أجنحتها لأنها لن تحتاج إليها مرة أخرى، ثم تقوم بعمل عشها في الأرض وتبيض، وهذا العش الصغير هو الذي سيصير فيما بعد مستعمرة من مستعمرات النمل، وهي مستعمرة يمكن أن تصير مستعمرات وتحوّل إلى وادٍ من أودية النمل.. ويقع هذا الوادي فوق الأرض وتحتها.. ويضم ساكن لكل فرد فيه، ويضم الأنواع الالزمه لإقامتها، ويضم نسباً محددة لكل نوع من الأنواع فيه، ومن الأسرار التي لم يكتشفها العلماء عنا بعد، ولا أظن أنهم سيكتشفونها، السؤال التالي..

لماذا ينمو النمل ويعطي أجذابه المختلفة من ذكور وإناث وشغالاته بإعدادها المحددة؟
لماذا تبيض النملة الأم بيضاً يفقس عن شغالات.. ولماذا تنمو هذه الشغالات بحيث توفر للنملة الأم أن تفرغ بعد ذلك لوضع ملايين البيض بقية عمرها..
ولماذا تبيض الأم الذكور بعد ذلك، ولماذا تبيض الإناث بعد ذلك.. ولماذا تختار هذا العدد المحدد من الذكور وهذا العدد المحدد من الإناث، بحيث يكفي جموع الاعداد لاستمرار الحياة وانتظامها بشكل مدهش.. هل تحسب النملة الأم وهي تبيض كل هذه الحسابات التي لا يستطيع أي عقل بشري أو الكتروني أن يقوم بها.. هل تفعل النملة ذلك؟..
إن البشر لا يستطيع التحكم في نوع الجنس، ولكن النمل يفعل هذا بمنتهى البساطة.. ويفعله دون أن يعرف أنه يفعله..
ولسوف يقف العلماء أمام هذا السر المثير لعالم النمل، وسوف يظل السر غامضاً عليهم، وأنا لا أعرف جواب هذا السر..

سأكتفي بالقول أن الله الرحيم الكريم قد علم قبل خلق النمل ما سوف نلقاءه من البشر، وعلم الله تعالى إن قدم طفل من أطفال الأدمنين تستطيع أن تقتل ألف نملة دون قصد لو سارت في مستعمرة للنمل.. ولهذا السبب زودنا الله بما لم يزود به البشر، وهدانا لما لم يهد إلينه البشر، ومنحنا أسلحة تعين على البقاء في عالم لا يهدأ فيه صراع البقاء لحظة.. أحدثكم الآن عن نفسي قليلاً.. ولدت نملة شغالة.. نملة كادحة.. نولد على هيئة البيض، ثم نصير بروقات، ثم عذارى.. ثم نعرف بعد ذلك جنسنا الذي نتمنى إليه..

عندما فقست البيضة التي كانت ملادة لي غسلت الأم البرقة بسانيها وقدمت إلى الطعام الذي اختربته في معدتها وقادت بحمائني من الأذى حتى كبرت.. بعد أن كبرت أدركت أنني نملة من مثل الحراسة..

إن النمل من الشغالات يعمل في مهام كثيرة.. هناك خدم لتنظيف المستعمرات، وهناك جند لحماية المستعمرة، وهناك شرطة للحراسة، أنا من شرطة الحراسة.. قائدة في شرطة الحراسة..

راقبت في بداية الحراسة مستعمرتنا التي كانت تنموا ببطء مثير ولكنها يشبه القانون في ثباته وتقدمه..

راقبت الشغالات اللائي يقمن بمهمة المرضعات للصغار، راقبت الشغالات اللائي يجلبن بقر النمل.. نعم.. نحن نجلب حشرات المن التي تصنع رحيق العسل، مثلما يجلب الأدمنيون البقر.. راقبت البنائين من الشغالات وهن يحفرون أنفاقاً ومساكن تحت الأرض.. كنت مسؤولة عن الأخطر الخارجية.. وهي تتلخص في كلمات متعددة أخطرها هي البشر..

نعم..

هناك مئات الأخطر التي تهدد النمل من قوى الطبيعة، وأول هذه الأخطر هو المطر، نحن مخلوقات لا تعرف السباحة في الماء، نحن نغرق في الماء، ولا يكاد البرق يبرق ويرعد الرعد من بعده حتى نطلق صرخة التحذير ونعلن حالة الطوارئ ويرفع النمل جميعاً إلى مساكه تحت الأرض.

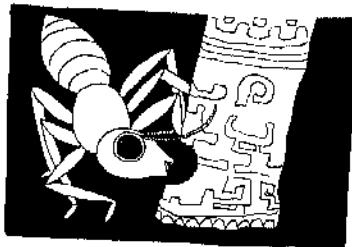
ونرحب نحن شرطة الحراسة الموقف من مناطق بعيدة عن المطر ولكنها أقرب إليه من بقية مساكن النمل.

عندما يتنهي المطر لا يهرب إلى سطح الأرض، نظل في مساكننا نرقب الموقف، ونتضرر ظهور الشمس.. والشمس مخلوق غريب لم يره واحد منا فقط، ولكننا نشعر بوجودها لأنها تأكل أعظم الأخطر التي تهددنا، إن الشمس تأكل الماء..

لا تكاد الشمس تظهر في مكان فيه ماء حتى يبدأ أمر مثير لا ندركه نحن، ويتمثل هذا الأمر في أن الشمس تشرب الماء.. إن الماء يختفي حين تظهر الشمس.. أين يذهب.. هل يتبعه؟ ما معنى ذلك؟ إننا نفاجأ دائماً بعد ظهور الشمس أن البحيرات التي صنعها المطر تختفي وهذا السر يثيرني كثيراً حين أتأمل الأشياء في أوقات فراغي من الحراسة.. لم أفهم.. لم أعرف.. لم أدرك.. هكذا مضيت أسبوع الله تعالى وأنا أعلن عدم فهمي أو معرفتي أو إدراكي لحكمته..

كل ما أعرفه أن الله رحيم بالنمل، ومن آيات رحمته فعل الشمس في المياه، ولكن كيف تفعل الشمس ما تفعله في المياه؟ .
هذا سر اعترف بعجزي عن حل غموضه.
بعد المياه في الخطورة يحيى الإنسان.. الإنسان يدمرنا ويقتلنا ويسحقنا وهو لا يحس.. وهو لا يشعر..

لماذا لا يحس الإنسان..؟ لماذا لا يشعر؟
اجتمع النملآلاف الاجتماعات وبحث هذا السؤال، كانت التبيجة أن الإنسان يسحقنا بأقدامه لأنه لا ينظر في الأرض وهو يسير، إنما ينظر أمامه أو خلفه أو حوله ولكنه نادراً ما ينكس رأسه.. ما أشد كبراءة هذا المخلوق المسمى بالإنسان..
لو انه نظر تحت أقدامه لما وقعت الكوارث التي وقعت خلال تاريخ النمل الطويل.



اعترف انني صادفت في حياتي الطويلة بشراً أو إثنين من البشر كانا يسيران وهم ينظران في الأرض. كانوا عابدين زاهدين لله، وكان تواضعهما يأخذ شكل رحمة تمتد آثارها إلى النمل. لا أعرف اسم الرجل الثاني، ولكن اسم الرجل الأول كان هو النبي الملك سليمان الحكيم.
عرفت سليمان الحكيم لأن معرفته كانت جزءاً من مهمتي في الحراسة.. وحراسة أودية النمل لا تقع داخل أودية النمل ذاتها، هناك حراسة ثابتة لنمل يأخذ موقع داخل المستعمرة، وهناك حراسة متحركة تدب بعيداً عن المستعمرة وترصد أي تحركات يمكن أن تؤثر على وادي النمل..

كانت حراستي من هذا اللون..
تحركت أدب ذات يوم.. سرت طويلاً طويلاً فقطعت ما يسيره الإنسان في دقائق، لم أشعر باليأس ولا أحسست بالكراهية تجاه جنس الإنسان. ميزة النمل إنه صغير الحجم كبير في تصرفاته..
نعم.. اعترف انني نملة حكيمة، والحكمة أفضل من الثراء بما يصاحبه من غرور وأفضل من الفقر بما يتبعه من كراهية..

سرت أدب.. خطوة بعد خطوة.. نسبح الله ونحن نسير.. وأحياناً نتوقف ونغير اتجاهنا
ونسير خطوة ثم نعود إلى مسارنا الأصلي، هذا الذي يراه البشر عجيبة في تصرفات النمل له
حكمة.. نحن نسبح الله في الاتجاهات الأربع..
وحيثما نولي فثم وجه الله تعالى.

أعرف ذلك.. وهذه هي المعرفة التي تتبع منها شجرة الحكمة، صادفت شجرة بعد سير
طويل.. صعدت إلى الشجرة.. وقفت.. نظرت.. سبحت الله واستدرت ونظرت..
تجمدت نظراتي كما يتجمد النسل إذا سار فوق العسل.. دهني خوف مفاجئ..
كان هناك ألف ألف خطر لم يسفر عن وجهه بعد،
كان هناك جيش رهيب يتجمع.. لم يكن هذا الجيش عاديًّا، ولا كان كجيوش هذا
الزمان..

الأصل أن يكون الجيش جنوداً من البشر.. إن جيش النمل جنود من النمل.. فقط..
لم يكن ما أمامي جيشاً من البشر..
كان هناك جيش من الجن والأنس والطير.

«وحشر لسليمان جنوده من الجن والأنس والطير فهم يوزعون» صفوف لا نهاية لها من
البشر، وصفوف لا نهاية لها من الحيوان، وصفوف لا نهاية لها من الطير.. ورياح تجتمع ويبدو
أنها مسخرة لهذا الجيش، ثم صفوف من الجن.. والجن مخلوقات غير مرئية.. نحسها نحن النمل
ولا نراها، ولا نشغل أنفسنا بها، ملائكي الرهبة حين شاهدت جيش سليمان..
لو سار هذا الجيش في وادي النمل فهذا معناه ان وادي النمل سوف يهلك.. سوف
يتحطم.. وسيتم هذا بغير أن يشعر الجيش..
نزلت من الشجرة..

أسير بسرعة الخطر.. هذه هي أقصى سرعة للنمل.. ولنا خمسة أنواع من السرعة هذه
أقصاها..

فتحت سرعتي على النهاية القصوى ونزلت من الشجرة.. كنت أطلق في نفس الوقت رائحة
لها مدلولها في عالم النمل، يعني إطلاق هذه الرائحة تحذير النمل وتجمعه فوراً على مشارف
المستعمرة.. هرع كل النمل الذي كان يعمل خارج المستعمرة عائداً إليها على الفور.. ووصلت
إلى وادي النمل..

كان هناك اجتماع طارئ للمسؤولين عن حراسة المستعمرة جمعتهم رائحة الخطر التي
أطلقتها..

وقفت أقدم تقريري لأعلى مسؤول في مستعمرة النمل..
كان هذا المسؤول ثلة صامدة ولكنها قديرة على اتخاذ قرار سريع في أقل من لمح البصر..
قلت: هناك جيش قريب يتجمع..
قالت النملة المسؤولة: كم عدد البشر؟.
قلت: ليس الجيش من البشر وحدهم..

قالت النملة المسئولة وهي تحك رأسها بيدها: ليس الجيش من البشر؟ قلت: هناك جيش من الجن.. والبشر.. والطير..

إنعقد اجتماع من أعلى المسؤولين في مستعمرة النمل، واستمر الاجتماع ثواني قليلة.. ولكن إجراءات الأمن صدرت لجميع النمل داخل المستعمرة وخارجها، كانت الأوامر الصادرة للنمل داخل المستعمرة أن يبقى في مساكه وبدأت الشغالات في تهوية المساكن توطئة لاحتمال البقاء فيها فترة طويلة.

صدرت الأوامر للنمل خارج المستعمرة أن يعود بأقصى سرعة إلى مشارف المستعمرة. أقيم نظام مزدوج للحراسة الخارجية، تم إعداد كل أجهزة الإنذار في المستعمرة وكلفت أن تكون على رأسها لأطلق صرخة التحذير النهائية..

كان مكاني فوق تل صغير في أحوال الحراسة العادية، ولكن مكاني تغير في هذه الظروف الاستثنائية وصعدت على فرع شجرة ووقفت أنظر..

كانت نظري تتجه إلى الأفق.. طريق محمد عند الأفق.. طريق لا بد أن يسير منه جيش سليمان إذا أراد أن يعبر المنطقة.. لم أقف طويلاً.. بعد فترة من الوقت ظهرت صورة الجيش.. كانت صغيرة كالنمل من على بعد ثم راحت تكبر قلت: (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحيطمنكم سليمان وجندوه وهم لا يشعرون).

لم أكدر أطلق صرخة التحذير حتى هرع النمل إلى مساكه.. لم يدهشني ذلك.. وقع في نفس الوقت حادث آخر.. أدهشتني هذا الحادث كثيراً، توقف سليمان فوق جشه. نظر النبي سليمان إلى الشجرة التي أقف فوقها وتبسم ضاحكاً. أدهشتني ما حدث كل الدهشة.

أيمكن أن يكون هذا الإنسان قد فهم ما قلته، إن ابتسامته تحمل مذاق العسل وتبدو مبطنـة بالرحمة التي لا نحسها إلا من النمل تجاه النمل.

أحسست أن سليمان فهم ما قلت وهذا توقف.

فوجئت به ينحي برأسه ويقول: (رب أوزعني أنأشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وان أعمل صالحًا ترضاه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين).

أدركت أنه يخاطب الله ويصلـي.

زادت دهشتـي.

زاد هو من دهشتـي حين التفت إليّ وقال يخاطبني بلغتي.. - لا تخافي.. لن يحيطـم الجيش وادي النمل.. سـنـمـيـلـ فيـ سـيـرـنـاـ بـعـيـداـ عنـ الوـادـيـ ..

قلـتـ لهـ - وـأـنـاـ لـاـ أـكـادـ أـصـدـقـ سـمـعـيـ - مـنـ أـنـتـ يـاـ سـيـدـيـ؟ـ إـنـكـ تـتـحـدـثـ لـغـةـ النـمـلـ .

قالـ - أـنـاـ عـبـدـ اللـهـ وـنـبـيـ سـلـيـمـاـنـ .. أـبـيـ هـوـ دـاـوـدـ النـبـيـ ، عـلـمـنـاـ اللـهـ تـعـالـىـ مـنـطـقـ الطـيـرـ وـالـحـيـوانـ .

قلـتـ لهـ: أـنـتـ نـبـيـ وـابـنـ نـبـيـ؟ـ

قالـ: نـعـمـ ..

قلت له: وتقول لله أدخلني برحمتك في عبادك الصالحين؟

قال نعم . . .

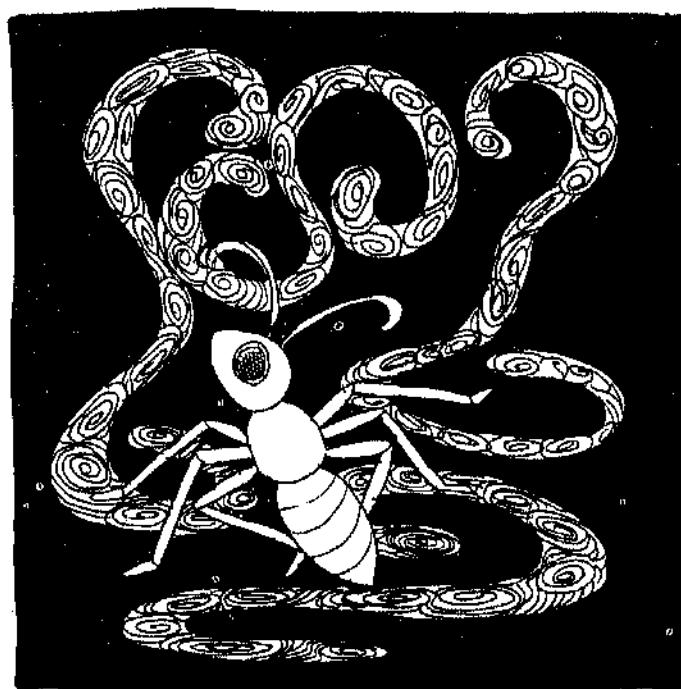
قلت له: ترى مقام العبودية أعلى من مقام النبوة؟.

قال سليمان: لا . . . ليس هناك مقامان أيتها النملة.. ذروة النبوة هي العبودية وهي المقام الأخير في شرف البشر..

قلت له: أيها العبد الصالح.. سأدعو الله أن يدخلك برحمته في عباده الصالحين.. لماذا لا تدعوني أنت؟

قال سليمان وهو يبتسم: لا أعرف بماذا أدعوك لك أيتها النملة، لكنني أحس بما يشبه الوحي أن الله تعالى سيجعل من كلماتك التي تحدرين بها النمل آيات يتلوها المؤمنون في صلاتهم . . .

التفت سليمان إلى جيشه وقال: ميلوا عن وادي النمل وتقدموا.



دَارَبَتِهُ الْأَرْضُ

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ
الْأَرْضَ تَأْكُلُ مِنْسَانَهُ فَلَمَّا خَرَجَ تَبَيَّنَ أَنَّ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبَثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾.

(سورة سـآية ١٤)

أَحْكِي لَكُمْ مَا حَدَثَ .

كُنَا نَسْمَعُ وَنَحْنُ مُجْرِدُ غُلْ نَعِيشُ فِي مَنَازِلِنَا، أَنْبَاءٌ مُتَفَرِّقةٌ عَنْ عَلَاقَاتِ الْجِنِّ بِالنَّاسِ، وَكُنَا نَدْرُكُ، رَغْمَ عَقُولِ النَّمْلِ الصَّغِيرَةِ، إِنَّ هَذِهِ الْعَلَاقَاتِ كَانَتْ سَلَاحًا لِّلْجِنِّ، لَقَدْ سَخَّرَ اللَّهُ الْجِنِّ لِسَلِيمَانَ، سَخَّرَهُمْ لَهُ كَجْنَدَ مِنْ جَنُودِهِ، وَخَدَمُ فِي مُلْكِهِ، إِنَّهُمْ يَغْوِصُونَ فِي أَعْمَاقِ الْبَحَارِ، وَيَعْمَلُونَ لَهُ مَا شَاءَ مِنَ الْقُدُورِ وَالْقَصُورِ وَالْبَيْوتِ فِي أَيَّامٍ، وَيَعْبُدُونَ الْطَّرِقَ فِي سَاعَاتٍ، وَتَمْ هَذَا التَّسْخِيرُ فِي عَصْرِ سَلِيمَانَ وَحْدَهُ ضَدَّ قَانُونَ قَدِيمٍ يَقْضِي بِانْفَسَالِ طَائِفَةِ الْجِنِّ عَنْ طَائِفَةِ النَّاسِ.

وَكَانَ هَذَا التَّسْخِيرُ مَعْجِزَةً لِسَلِيمَانَ .. وَآيَةً مِنْ آيَاتِ مَلِكِهِ، وَشَاهِدُ النَّاسِ مَا يَفْعَلُهُ الْجِنُّ مِنْ أَمْوَارٍ خَارِقَةٍ يَعْجِزُ عَنْهَا الْأَدْمِيُونَ. وَكَانَ الْمُفْرُوضُ أَنْ يَزِدَّ النَّاسُ إِيمَانًا بِاللَّهِ، وَأَنْ يَزِدَّوْا إِدْرَاكًا لِقَدْرَتِهِ سَبْحَانَهُ، وَلَكِنَّ الَّذِي حَدَثَ هُوَ انتِشَارُ الْخَرَافَةِ وَاسْتِعْلَاءُ الْوَهْمِ، ازْدَادَ النَّاسُ اعْتِقَادًا فِي قُدْرَةِ الْجِنِّ .. حَتَّى لَقَدْ قَالَ الْجَهَلَاءُ إِنَّ الْجِنِّ يَعْلَمُ الْغَيْبَ ..

لَسْتُ أَعْرِفُ - كَنْمَلَةً فِي حَالَاهُ - مِنَ الَّذِي أَطْلَقَ هَذِهِ الشَّائِعَةِ الْمُضْحِكَةِ؟ . إِنَّ أَحَدًا لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ سُوْيَ اللَّهِ .. لَا الْجِنُّ وَلَا الْأَنْسُ وَلَا الْأَنْبِيَاءُ وَلَا الْأُولِيَاءُ وَلَا الْمَلَائِكَةُ ..

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ، وَمَا عَدَاهُ ابْتِدَاءٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَاتْهَاءٌ بِالنَّمْلِ .. مَخْلوقَاتٍ .. فِيهَا الْجَلِيلُ كَالْمَلَائِكَةِ، وَفِيهَا الْعَظِيمُ كَالْإِنْسَانِ .. وَفِيهَا الْبَسِطُ كَالنَّمْلِ .. وَالْغَيْبُ هُوَ إِرَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا تَنْفَذُ فِي الْأَشْيَاءِ، وَلَا يَعْلَمُ هَذِهِ الإِرَادَةُ غَيْرُهُ . وَأَيُّ إِنْسَانٌ أَوْ نَمْلَةٌ .. سَوَاءَ كَانَ مَلِكًا عَلَى النَّاسِ أَوْ مَلِكَةً عَلَى النَّمْلِ .. لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ .. قَوْلُوا لِي: مِنَ الَّذِي يَسْتَطِعُ أَنْ يَقُولَ لَنَا .. مَاذَا سَيَحْدُثُ غَدَاءً؟

اعتذر عن هذه المقدمة البديهية، اعتذر ل بداهتها، ولكنني مضطرة لبداية حديثي



بها.. قلت إن إشاعة مؤداها أن الجن يعرفون الغيب قد انتشرت .. لست أعرف هل نشرها عفريت من الجن أو إنسان من الناس.. المهم أنها انتشرت إلى الحد الذي صارت فيه قضية شبه مسلمة. وكنت أعرف - كنملة - أن الجن لا يعرف الغيب. غير أنه قدر لي يوماً أن أكون.. أنا النملة البسيطة الضعيفة المتواضعة التي تطيرني أقل نفحة من فم الإنسان.. قدر لي يوماً أن أكون دليلاً للإثبات الوحيد في قضية عدم معرفة الجن للغيب.

لقد استطعت أن أثبت هذه الحقيقة.

المدهش.. أنني فعلت ذلك دون أن أدرى.. ودون أن أقصد.. كنت جائعة فلم أدرِ ماذا أفعل.. وأكلت العصا.. عصا سليمان..

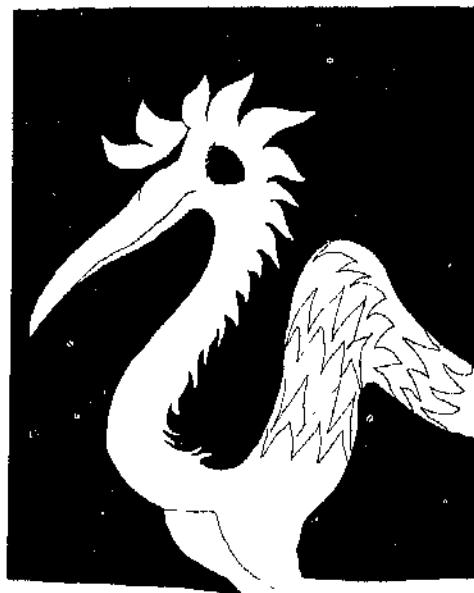
أنا نملة من آكلات الخشب.
أريد أن أعود إلى الوراء قليلاً ليتمكن أن نفهم.. بدأت معرفتي بسليمان من الأخبار التي كان اسمها عنه..

كان سليمان أشهر واحد على الأرض في عصره.
كان غنياً إلى الحد الذي كان يصنع فيه جدران معبده وسقفه من الأخشاب الثمينة المغطاة بصفائح الذهب.. وكنا نحلم.. كنمل يأكل الخشب.. أن ندعى يوماً لهذه الوليمة. غير أن وقوف الذهب في طريقنا إلى الخشب كان أمراً منفصلاً للغاية.. لا أمل في هذه الوجبة إذن.. هي وجدة مستحيلة.

كانت هذه المعلومة هي أكثر المعلومات التي نعرفها عن سليمان كانت تتصل بحياتها اتصالاً وثيقاً. كان سليمان حلماً بالنسبة إلينا. حلماً مستحيلاً.

قلت إنني نملة من هوا الخشب، يسمى الناس جنسنا بالنمل الأبيض، تمييزاً له عن النمل العادي الذي لا يأكل الخشب.. والحقيقة أنها لست نملأ أبيض.. هذه تسمية شائعة وليس دقيقة ولكننا نقرها لشيوعها.

نحن من رتبة أرقي من النمل قليلاً.. أسمى دابة الأرض.. لوننا باهت، وطريقتنا في الحياة عجيبة.. أحياناً نحفر الأرض ونبني داخلها مساكن تتسع لستمائة ألف نملة، ورغم أنها نعيش تحت الأرض، إلا إننا نقوم بعمل نظام رائع للتهدية.. وأحياناً نبني عشرين نفقاً متوازياً تحت الأرض. كل نفق منها يقع تحت الآخر مباشرة، ونقوم بتشييد ذرات التراب والرمل بلعبنا فتصبح هذه الحاجز صلابة الأسمنت الأدمي.. وملك النمل الأبيض يعيش طويلاً.. والملكة هي المسئولة عن وضع البيض.. وتضع الملكة في حياتها الطويلة نحو عشرة ملايين بيضة، ثم يفقس هذا البيض إلى عساكر وشغالات، ذكوراً وإناثاً. وعساكر النمل الأبيض أكبر حجماً من الشغالات ورؤوسها كبيرة صلبة.. وعندما هاجم - نحن النمل الأبيض - مدينة من مدن النمل الأخرى، تتصدر العساكر مقدمة الجيش.. ووقف الصاعقة قبل مقدمة الجيش، وعساكر الصاعقة من النمل



لما أنف طويل يشبه المنقار، وحين يهاجمها النمل العادي تفرز العساكر ذات المنقار سائلاً لرجأ
يلتصق بعنق عسكري النمل العدو كالصميغ.. وبهذه الطريقة نشل أعداءنا ونكسب.. ونحن
نتغذى أساساً على الخشب.. في معدتنا أنواع من البكتيريا التي تمكنتا من هضم الخشب، وتجعله
بالنسبة إلينا مثل أشهى الأطعمة بالنسبة للأدميين، وللنمل الأبيض هجرات خاصة.. تخرج
نجمعاتها مرة واحدة في العمر، عندما تطير سحب كبيرة منها فيها ذكور وإناث بحثاً عن بيوت
جديدة.. وتفترس الطيور والحيوانات معظمها، أو غوت لأسباب أخرى.. ثم ينجو من هذه
المجموعة الطائرة ذكر وأنثى يبدأن على الفور في حفر بيت جديد، بعد أن يتخلصا من أجنهنها
التي لا فائدة منها الآن، ثم يتزوجان في مسكنها تحت التربة، ويسرعان في إنشاء مستعمرة أخرى
جديدة.. وهكذا يكفي إثنان منا لصنع جيل جديد..

كنت أطير.. مع آلاف من جنبي، حين وقعت فجأة.. إنخلع أحد أحججتي أثناء الطيران
فهربت.. أين تظنوني هويت؟.. في محراب سليمان الذي يتبعده فيه... لم أكُد أسقط حتى
تلخصت من جناحي الثاني، وبدأت أستكشف المكان.. كنت أحس ببعض الدوران من أثر
السقوط.. غير اني.. إعترافاً بالحق.. أصبحت بدوراً أعظم وأنا أجوس خلال المحراب.. إن
عظمة المحراب كانت فوق قدرة العقل النملي على التخييل.. الأرض من السرخام المغطى
بالسجاجيد.. الجدران من الكريستال الشفاف.. ليس هناك سقف.. كرسي سليمان من
الذهب.. سليمان يجلس على كرسيه وقد أنسد ذقنه إلى عصا يمسكها في يده.. لا أحد يجرؤ على
اقتحام المحراب وسليمان يتبعده.. أي شيء في الدنيا يستطيع أن يتظاهر سليمان حتى يتنهي من

صلاته.. وحول المحراب يسرع الجن وهم يتأملون سليمان جالساً، ليؤدوا سخريتهم وأعمالهم، أدركت أنني وقعت في شر أعمالي.. كنت المخلوق الوحيد الذي جرأ على اقتحام محراب سليمان.. ماذا لو رفع وجهه فرأي؟.. قلت لنفسي أليه السلام حتى لا يفاجأ بوجودي.

هست:

- السلام على النبي الملك سليمان الحكيم.. أنا يا سيدي نملة وقعت هنا خطأ.. أرجو معدرك.. لو قلت لي أين الباب فسوف أخرج.. لم يرد الملك سليمان.

رفعت صوتي أكثر.. وظل سليمان صامتاً.

اقتربت منه أكثر.. رفعت رأسني وتأملت وجهه المهيب الجميل العظيم..

كانت عيناه مفتوحتين تحدقان في جزء من الأرض أمامه.. لم يكن يطرف.

قلت لنفسي لعله مستغرق في صلاته، وقفـت ساكنة، ومر الوقت وهو لا يتحرك.. تقدمـت منه أكثر.. قلت بصوت ضعيف:

- سيدي سليمان الملك.. أنا جائعة وقد جاء ميعاد غذائي وليس في الحجرة كلها أي قطعة من الخشب غير العصا التي تستند إليها.. ماذا أفعل؟
لم يرد سليمان.. تقدمـت منه أكثر.. أعددت على سمعه التماساً جديداً، أفهمته فيه أنـي
جائعة، وإن العصا التي يستند إليها هي طعامي الوحـيد.

ظل سليمان صامتاً.. وانقضـى الليل.. وجاء الصباح.. وسليمان لا يتحرك.. أدركت بالهام مفاجئ أنه ميت.. أن بياض شفتيه النيلتين، وشحوب وجهه الكريم، وصمـته الساكنـة المروعـأشـيء تعـني أنه مـيت.. صـلـيـت صـلاـة طـوـيـلة عـلـى روـحـه الطـاهـرة، وـتـقـدـمـتـ مـنـ العـصـا.. هـيـ رـزـقـ سـاقـإـلـيـ منـ يـرـزـقـ الدـودـ فـيـ الحـجـارـةـ..

بدأت أـلـهـمـ العـصـا.. آه.. هيـ منـ شـجـرـ الـخـرـوبـ.. يـذـكـرـيـ الـخـرـوبـ باـلـخـرـابـ.. مـاتـ صـاحـبـ العـصـاـ وـسـيـدـرـكـ بـيـتـهـ الـخـرـابـ..

- عليكـ الصـلـاةـ وـالـسـلـامـ أـمـيـاـ النـبـيـ الـكـرـيمـ.. طـبـتـ حـيـاـ وـمـيـتـاـ.. مـيـتـ أـنـتـ وـلـكـنـكـ تـعـمـنـيـ عـصـاكـ فـيـ أـبـلـكـ.

عاودـتـ الأـكـلـ.. أـكـلـتـ جـزـءـاـ مـنـهاـ فـيـ أـيـامـ.. إـنـتـلـ تـوازنـ الجـسـدـ العـظـيمـ فـجـأـةـ وـخـرـ سـليمـانـ نحوـالـأـرـضـ.. لـمـ أـكـنـ أـقـصـدـ ذـلـكـ.

لمـ يـكـدـ سـليمـانـ يـقـعـ عـلـىـ الـأـرـضـ حـتـىـ أـحـسـتـ أـنـ جـسـديـ كـلـهـ يـتـرـزـلـ..

كانـ الجنـ يـرـ عـلـىـ المـحرـابـ فـشـاهـدـ سـليمـانـ رـاقـدـاـ عـلـىـ الـأـرـضـ.. نـشـرـ الجنـ الـبـأـ.. دـخـلـ المـحرـابـ وـزـرـاءـ سـليمـانـ فـأـلـفـوهـ مـيـتاـ..

توقفـ الجنـ حينـ علمـ بـأـنـ مـوـتـ سـليمـانـ، أـدرـكـ الجنـ أـنـ تـحرـرـ مـنـ تـسـخـيرـ سـليمـانـ لـهـ.. اـكـتـشـفـ النـاسـ أـنـ سـليمـانـ مـيـتـ مـنـذـ زـمـنـ..

طوال هذا الزمن كان الجن يعمل دون أن يعرف بموت سليمان.. كان موته غيّباً فلم يعرف به الجن ..

﴿فَلِمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنَّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ .
كشفت أنا النملة الصغيرة ما كشفت، وأسقطت دعوى معرفة الجن للغيب .. أسقطتها حين
أسقطت العصا .. ورغم أن فمي لا يكاد يرى .. فقد أسللت به الستار على ملك سليمان
العریض.

وهو ملك شاركت فيه أعظم المخلوقات وأكبرها وأعتها، وأسللت عليه الستار أصغر
المخلوقات وأبسطها وأدنها .. فسبحان من يمنع وينع، ويؤتي الملك ويترع الملك، وسبحان من
جعل لكل شيء بداية، وجعل لكل شيء نهاية .. سبحانه وتعالى على البداية والنهاية.



حَمَارُ الْعَرَبِ

﴿ قَالَ أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ الْأَنْوَافَ بَعْدَ مَوْتِهَا، فَإِنَّمَا تَعْلَمُ اللَّهُ مَائَةً عَامٍ لَّمْ يَعْلَمْهُ، قَالَ كُمْ لَبِثَ؟ قَالَ لَبِثَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، قَالَ بَلْ لَبِثَ مائَةً عَامًّا، فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَسْتَهِنْ، وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ، وَلَنْجُولَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾.

(سورة المزة - آية ٢٥٩)

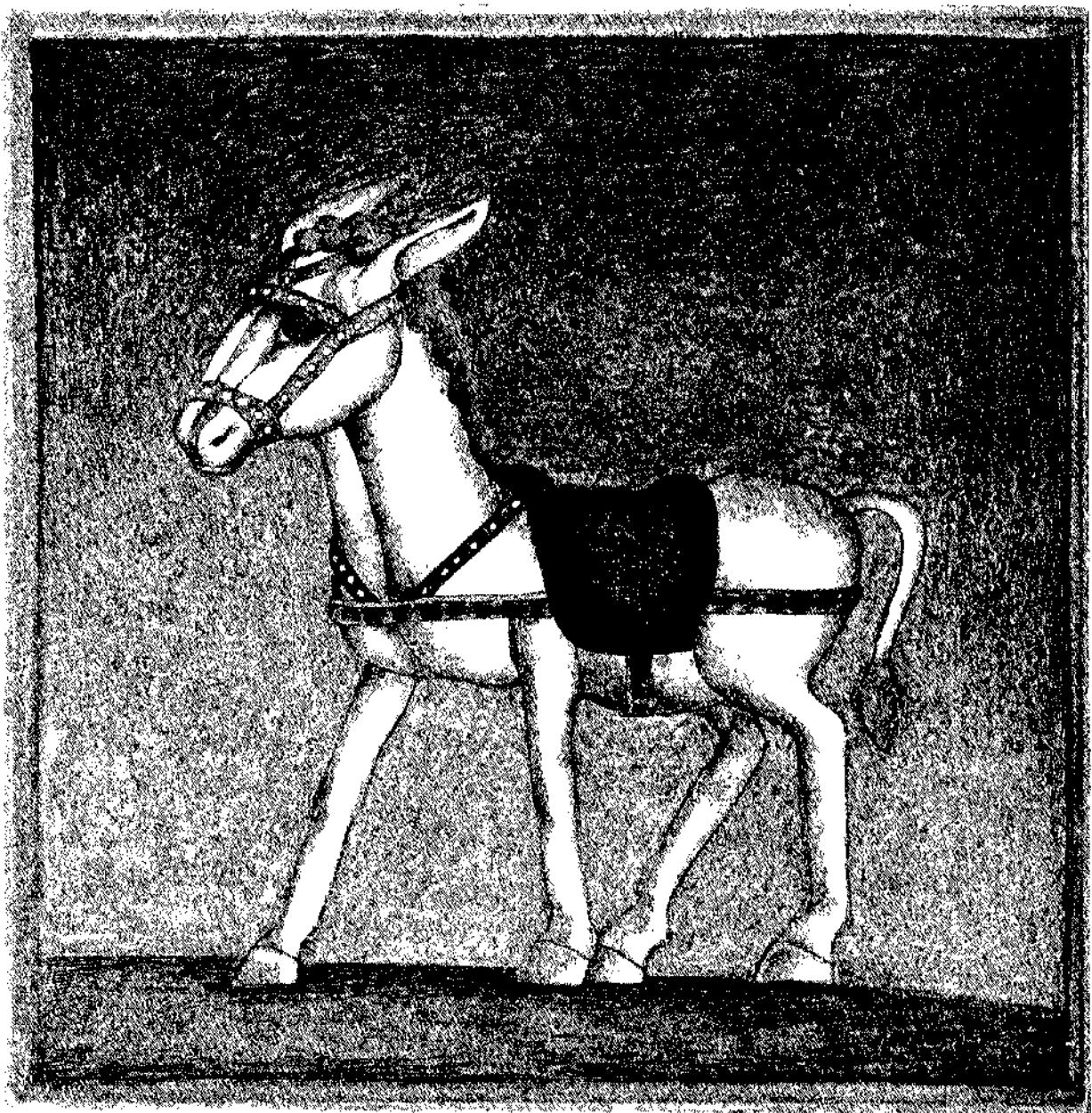
يشيع في حياة النوع المسمى بالإنسان تصور شائع مؤداه أن الحمير لا تقرأ ولا تكتب، وليس هذا صحيحاً على إطلاقه.. هناك حير تقرأ وتكتب. نحن نقرأ آثار الرائحة في الأرض، ونقرأ من هبات الهواء إحتمالات التغيير المنتظر في الطقس، صحيح إننا لا نكتب إلا في أحوال نادرة. عندما يكون هناك اعتراف أو شكوى أو شيء خطير نريد قوله..

أعرف أن الناس قد كونوا رأياً سلبياً في الحمير.. وأحب أن أقول إن للحمير رأيهم المماطل في الناس. لا أريد أن أشرد.. يحدث لنا عشر الحمير أن نشد أثناء السير أو الكلام. يتشتت النظر في الجانبين بدلاً من اتجاهه إلى الأمام، وهذا يضع الناس لنا حواجز معتمة على جانبي عيوننا لوضوح الرؤية وتحديدها.. لو كان هذا ممكناً في الكتابة لصار للحمير في دنيا التأليف شأن.

نسيت أي منعطف كنت أقف عنده في الكلام..

تذكرة الأن.. كنت أحدث عن جنس الحمير..

ينحدر جنس الحمير الصابر الذي انتمي إليه من حمار وحشى عظيم عاش في الأيام القديمة الطيبة في غابات الصومال، ثم أنشب الصراع أظافره بين هذا الجد الوحشى والأسد. كان الأسد اللعين لا يستطيع غير لحم جدنا الراحل.. وكان كل هم هذا الجد أن يتناسل.. ولم ينفعه ذلك واستمر عدده يتناقص.. أخيراً إهتدى جدنا الأكبر إلى طريقة ينجو بها من الأسد. ترك الإنسان يستأنس أخيب من في ذريته، على أن يحمل الإنسان هم حماية هذه الذرية من الأسد، وفي مقابل ذلك، يقوم الحمار بخدمة الإنسان وحمل ثقائه وجر متعاه. كان يوماً أسود. انقسمت فيه سلالة الحمير إلى قسمين: سلالة وحشية بقيت كما هي، وسلالة مستأنسة جديدة هي نحن، وقد



اختلت سلالتنا عن الحمير الوحشية القديمة اختلافاً واضحاً. إن الذل يغير من شكل المخلوق الخارجي ويغير تشريحه الداخلي، طالت آذاننا وكبر رأسنا وفقدت أسناننا حدبها وقوى ظهرنا واتسع بطننا، وصارت لنا معدة جبارة يحتاج ملؤها لاحتمال ذل كثير يقع على الرأس.

تم هذا التحول الخطير في حياة الحمير منذ ١٢ ألف سنة، أي في العصر الحجري الجديد كما يقول علماء الإنسان، ويبدو لي أن الله أراد تكريم الإنسان وخدمته فعهد بحسننا الصابر بهذه المهمة..

إن أحداً في الكون كله لم يستفاد من الحمار كما استفاد الإنسان، ورغم ذلك فلا حمد ولا شكر ولا اعتراف بالجميل.

مشكلة الإنسان الأساسية - من وجهة نظرنا المحايدة - أنه يقيس كل شيء في الدنيا إلى نفسه ومصالحه، يعتبر الإنسان نفسه مركز الكون وأهم واحد فيه، وهو يثبت لنفسه هذه السيادة بشكل تلقائي بمجرد الميلاد.. وليس هذا ما اتفقنا عليه.

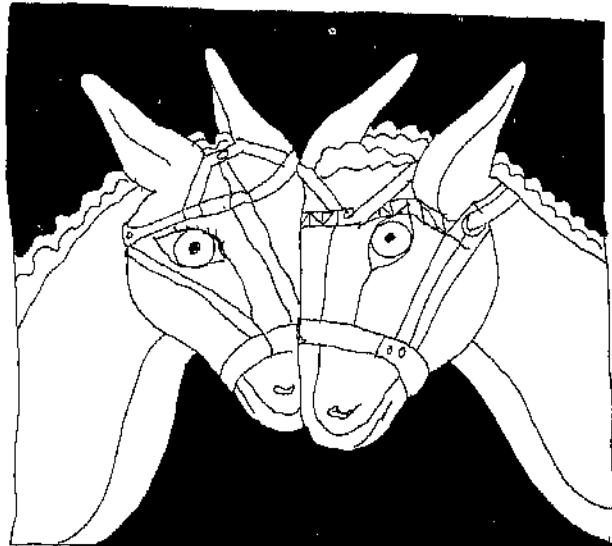
إن الميثاق الذي تم بهوجه تسخينا خدمة ابن آدم كان ينطوي على شرط يحدد الإنسان الذي هو سيد الكون وخليفة الله في أرضه.. وكان الشرط واضحاً وصريحاً في تأكيده أن الإنسان مخلوق راق يعرف الله وبعده، ويقوم بتعظيم الأرض وتغييرها، ويعين إلى المخلوقات التي سخرها الله له كي تخدمه وتشقى من أجله.

وقد سقط هذا الشرط القديم واكتشف جنس الحمير أن للإنسان تصرفات أسوأ من تصرفات الأسد. كان الأسد يأكلنا بغير التواء، أما الإنسان فيأكل حفنا وعملنا بطريقة ملتوية أشد الالتواء، وهو يرى نفسه متفضلاً علينا رغم أنه مدين لنا، وهو يتصور نفسه أرقى مما بإنسانية لا نراه يملك منها إلا اسمها.

ورغم هذا كله فتحن نصیر. لا أريد أن أدلّف من أرض الرضا لأرض المرأة، حمار أنا بالرضا، ولو عرفت المرأة أو الغضب لصرت أسدًا أو نمراً أو وحشاً، ونحن لا نحب التغيير. كل الحمير تنفر من التغيير. ذلك طبع فينا وفطرة وجبلة.

لم أقدم نفسي إلى القارئ.. أنا حمار أبيض يميل جسده إلى الحمرة أعيش في مدينة ريفية في فلسطين، سيدتي وصاحبي رجل أشيب طيب اسمه عزيز، يقرأ معظم الناس اسمه على أنه عزيز ثم يقولون إن الحمير أغبياء وبلداء، لن أتوقف للمناقشة. ماضٍ أنا في طريقي وذيلي يهتز. لماذا أريد أن أكتب مذكراتي، رغم معرفتي أن الحمير جنس يتخلّى بفضيلة التواضع وإنكار الذات..

هام.. هذا سؤال هام.. أريد أن أؤكد للقارئ - سواء كان حماراً أم إنساناً - أنني لا أكتب هذه الأوراق للمباهاة أو التعاظم أو الفخر، لا أريد أن أثبت لنفسي قيمة أكثر من بقية الحمير. كل ما في الأمر أن تجربة غريبة وقعت لي. تجربة مثيرة ومذهلة.



وهي تجربة لو وقعت لغيري وحکاها لي لما صدقتها. مشكلتي أن هذه التجربة وقعت لي شخصياً. عايتها بنفسى، ولسوف أحكيها كما وقعت تماماً.

تصوروا اني توفيت، وصمت تنبيقي وكف عن اللعلة. وبليت عظامي واستحالت إلى التراب، ثم عدت مرة ثانية إلى الحياة والتنبيق.

يدور رأسي وتقلقل عظام الجمجمة حين أذكر ما حدث.

ماذا لو بدأنا القصة من بدايتها.

لا أحب الأسلوب الجديد في رواية القصص من نهايتها واستخدام طريقة الفلاش باك.

ولدت ذات يوم.

وكل الحمير تولد ذات يوم. ليس هناك جديد في الأمر. الجديد اني سالت عن أبي فنظرت أمي نظرة حائرة إلى عشرات الحمير الذين يقفون أمام مرابطهم وقالت باحتقار: كان أبوك القديم وحشاً عظيماً يصارع الأسد.

وأنشأت أمي تحكى لي قصة طويلة عن أجداد أبي القديم أيام كان يعيش في غابات الخوف التي تثير في المخلوق أنفس ما في طبيعته من خصائص. بعد نهاية القصة.. وجدت أمي لم تجرب على سؤالي.. وعرفت حين كبرت أول حقيقة في دنيا الحمير.

هناك أم وليس هناك أب.

لا تعرف الأم من هو الأب من فرط الإشغال والتعدد. ولا يعرف الطفل من هو الأب، لأن الحمار الذكر لا يربى أبناءه ولا يعني بهم ولا ينتفت إليهم. آلمتني هذه الحقيقة في طفولي.. غير أن ما تصورته فوضى قاسية يومئذ قد انكشف لي فيما بعد عن حكمـة عظيمة.

إن الحمار يتعرض كنوع صابر صامت لعذاب يؤدي لتقصير عمره على الأرض، ومن المهم في دنيانا أن يزيد النوع ويكثر النسل، وهذا السبب يشتعل الحمار دائمًا بالرغبة نحو الجنس الآخر، وليس هناك حمار يعتقد أن هناك أثني تخلو من الجمال أو السحر.. ونحن لا نعرف كجنس تحريم الأقارب المحرمة، أيضًا نجهل اقتصار الذكر على أثني واحدة..
وغبي عن الذكر أن انطلاق الحواس بغير رادع هو خاصية مميزة من خصائص الحمير.. وأحياناً نجد هذه الصفة في الناس.. وأقول في نفسي عندما أرى أحداً من الناس مثلنا لا يعرف الحياة.

-ـ هـ هو حمار أصيل يتمخى وراء قناع الجلد الأدمي.
وأحس نحو هذا الزميل بتعاطف وود. إنه يستمتع بحريرته في ممارسة الحب مثلنا. وهو مثلنا لا يفكر إلا في شيئين: الطعام والإثبات.
وأحياناً أقول لنفسي: ماذا تظن.. ربما كان هذا المخلوق حماراً ثم تطور. لعله الصورة المتطرفة من الحمار. من يدري؟
كنت أحب أن أتحدث عن طفولي مثل الكتاب الأدبيين.

يؤسفني أنني لا أذكر طفولي. كل ما أذكره منها هذه القصة الخيالية عن جدنا القديم الذي عاش في الغابات. وفيها عدا ذلك أرى طفولي غارقة تماماً في الظلام. بالنسبة إلينا عشراً الحمير لا نفكّر فيها مضى. ولا نشغل البال بما لم يقع بعد. ذهتنا مغمومش تماماً في اللحظة الحاضرة. لا نرى ما قبلها ولا نعي ما بعدها. كل ما أعرفه عن طفولتنا أن تسميتنا فيها تختلف عن تسميتنا في الكبير. يقال عن الحمار الطفل إنه جحش. والجحش حمار صغير. حمار سعيد. حمار لم يزق بعد قناع الوهم عن الحقيقة. يعيش الجحش وسط وهم سابق بأن الدنيا هي أمه التي ترضعه ويسير وراء ذيلها سعيداً.

ثم يكبر الجحش ويكتف عن الرضاعة، وينخر إلى الحياة.
إن صدمة هائلة تنتظره عند منعطف الطريق القادم. تسقط أمه من ذاكرته. لم يعد يعرّفها إن رآها. لن يعود إلى التماسع فيها. صارت بالنسبة إليه مخلوقة غريبة لا يميزها شيء عن الآخريات. وكلما ازداد استواء الحمار إكتملت له مميزات شخصية، وهي النّظر إلى الحب على الشيوع. والنظر إلى الطعام على الشيوع. وهذه القدرة على أداء أشق الأعمال وأقساها.
وصل سيدي وصاحبِي عزيز.. شُمت رائحته حين دخل البيت.. رفعت رأسي ونهفت سروراً بوصوله.

أنا أحب هذا الرجل بصدق.. وهو رجل طيب لم يضرّبني يوماً بالعصا ولا بيده.. يطعمني أفضل الفول ويأكل هو أسوأه.. يرحمي ويريحني ويفسّو على نفسه. أعيش معه منذ عامين.. بعد عام ونصف عام إكتشفت أن الرجلنبي من آنباء الله، اعتذر لاكتشافي هذه الحقيقة متأخراً ولكنني في نهاية الأمر حمار ولا أريد أن أدعى ما ليس لي من الفضل.. قبل أن التحق بخدمة هذا السيد الكريم والنبي الطيب.. كنت أشتغل عند تاجر غني.. أو لص بخيل إن شئت الدقة.

أقسم بمخازن الفول الذي جففته الشمس، كما أقسم بحقول البرسيم الشتائي الأخضر أن سيدى السابق كان لصاً بخيلاً.

حين اشتراكي راح يربت على رأسى وظهرى فتصورت انه طيب وأحبيته، ولم نكذ نصل إلى بيته حتى تشاءمت ..

كان الرجل يكسب في اليوم الواحد ثروة تكفي لشراء حقل من الفول، وكان يعيش على بيضة كل أسبوع.. يأكل ٧/١ بيضة كل يوم، ومعها كسرة من الخبز الجاف ثم ينهال على زوجته ضرباً لأنها أكلت بيضة كاملة، كان يعيش في بيت بدائي صنعه من جذوع الأشجار، وكانت حيطان البيت المحتشدة لا تقاوم برد الشتاء المروع. وحين وضع أمامي الطعام نهضت تنهيدة قلت فيها: بطني كبير والعلف قليل وهذا للعلم.

نظر إلى نظرة قاسية وانهال على ظهرى ضرباً.. وفهمت إنه أدرك معنى التنهيدة.. بعدها اعتدت التحفظ في التهديد أمامه.

ـ

وبدأت أيامى السوداء في خدمته.

اكتشفت انه اشتراكي لبناء بيت حجري. كان الرجال يكسرؤون له حجارة الجبل فأحملها على ظهرى حتى مكان البناء. ومرت الأيام وتسلخ ظهرى وانكسر وسطى من ثقل الحمل، ولم يكن يقدم إلى إلا أرداً أنواع الطعام، وكنت إذا لقيت حماراً بيضاء في الطريق فشممت الأرض ورفعت رأسى عالياً وثبتت شفقي العليا وألصقتها بأنفى وصفقت بأسنانى وزعقت عليها بنداء الحب.. كان يضربي ولا يدعني أمارس هوايتي المفضلة. ويقول تبريراً لذلك إنه يريد أن يحافظ بقوى لإمهاء أعماله.. إذا كنت أنا أحافظ بقوى مثل هذا الموقف.. أنظر إلى الأنانية. كرهته يوماً كراهيقى للذئب وأكثر.

صبرت على العمل، وصبرت على الجوع، واحتملت عذاب الضرب والتوجيع، وسجنت نفسى في طبيعتى المسالمة التي لا تعرف غير الاحتمال، فلما تعرضت حريري في ممارسة الجنس للتهديد، رأيتني أفكر بعمق.

هذه هي الحالة الوحيدة التي تفكري فيها الحمير بعمق.

نظرت حولي في حياة الناس والحمير نظرة متأنية فاحصة فماذا رأيت؟ رأيت الجزاء لا يوزع على قدر الجهد المبذول، وإنما يوزع على قدر قدرتك على النفاق. ورأيت أحسن النفوس تجلس على عروش الكبارياء والثراء والاحترام، ورأيت أن الخطيبة التي تستطيع دفع الثمن على الأرض تواصل مسيرتها التاريخية آمنة مطمئنة، ورأيت اللصوص تسرق طعام اليتامي فيقدم اليتامي والأبراء إلى السجن، ورأيت الإنسان تزيد قيمته في الحياة كلما زاد ما يأخذة منها، لا كلما زاد ما يعطيه لها. ورأيت إنسان يظلم أخاه الإنسان ويستحل لنفسه ما يحرمه على غيره، ورأيت حماراً بيضاء فنهكت أناديها فسقطت الضربات على ظهرى، وحيل بيبي وبينها.

وذلك فوق قدرة الطاقة. إحتملت ما فيه الكفاية.

طفح الكيل وفاض وانسكب مثلما تنسكب المياه من جردن قديم.

وحرز هذا الموقف في قلبي مثلما تحرز الأنهر لفسحها مجاريها في الأرض الصلبة. قلت في تهيئة أليمة: العلف قليل والبطن كبير والخر شديد وظهرى متسلخ وأنا وحيد وهذا للعلم... تقول الحمير دائمًا في نهاية تهيبها: وهذا للعلم، إتباعاً لروتين قديم تفضي عليه الحمير جمِيعاً... وليس كالحمير جنس يحافظ على الروتين ويهاوه... .

إنتهت تهيبتي فقررت أن أغير أسلوبي تماماً في الحياة... هل أصير حساناً يختال ظهره تحت عجيبة سلطان جائز أو ملك ظالم، هو انحدار يلبس ثوب الرقي، وثمة استحالة أن أصير حساناً، ثم إن الحمير تنفر من التغيير، لم يبق هناك مفر من العناد. قررت أن أحرن.

حاول سيدي الظالم أن يجعلني أتفاقه فحملتها فلما دفعني بعصاه لأمشي رفضت أن أسير، إنهال الضرب على ظهرى ووجهى فازدادت صبراً وثباتاً ورفضت الحركة. وذهب بي إلى شيخ يدعى معرفته بطب الحمير وسألة:

- هل الحمار مريض؟

جس الرجل بطني بعصاه، وفتح فمي ونظر في أسنانى وقال:

- الحمار كالجن ولكنه بليد.

رسمت على وجهي تعبيراً من البلادة.

واشتد الضرب وازداد عنفاً، فاشتد إصراري على عدم الانتقال من مكانى خطورة. ثم نهضت فائلاً: هي علقة تفوت ولا أحد يموت وهذا للعلم... ثم أوجعني الضرب يوماً وكان يصدر من ورائي فرفعت قدمي ومددتها في اتجاه الضارب. هي رفة واحدة تندرج تحت حالة الدفاع الشرعي عن النفس.

أصابت الرفة يد الظالم فصرخ متأملاً وأرغى وأزيد وقال:

- يعاندى الحمار ويضربي فسوف أقتله. أحضروا الفأس والسكين. لم تتحرك في جسدي شعرة.

أعرف أنه بخييل ولن ينفذ تهديده. ربما فكر في بيعي.

أثمرت سياسة العناد وقرر الرجل بيعي في أول سوق ينعقد للحمير. سحبني إلى السوق وراح ينادي:

حمار نسيط وشقي وقدره على العمل لا تكل... أنظروا إليه... .

سأل أحد التجار - بكم تبيعه؟

قال - عشر قطع فضية.

تحرك التاجر بي قليلاً فتماوت وتباطأت، فتح التاجر فمي وقال: أسنانه سليمة وشابة... فما سر بلادته... قطعتان فضيتان... صرخ صاحبى كمن طعنه أحد بسکین، وانهال ضرباً على وهو يؤكّد أنّي حمار يساوي ثقله ذهباً. عاد يحاول حتى على الجري فرفضت. أدعى الكسل وتباطأت. كنت أعرف أنّي أغامر باحتمال أن أبقى مع صاحبى ولا أباع، ورغم ذلك قررت التمادي، كنت أريد أن أباع بأبخس الأثمان نكاية في صاحبى البخل، وقد حدث ما توقعته... .

باعني بعد أن يئس مني وقبض قطعتين ونصفاً وانصرف يشيعني بنظرات الحقد. لم يكدر التاجر الجديد يعتلي ظهري حتى طرت به في الطريق. ووقف صاحبِي القديم يرميَّني وقد أغرورقت عيناه بدموع الغيط.

لم نكدر نغيب عن ناظره حتى تباطأ، ما الذي أخذناه من النشاط والعمل والسرعة. لا شيء.. نكسـل إذن. وصلنا إلى بيت التاجر فاكتشفت أنه يقتني عدداً هائلاً من الحمير.. ورأيت أكثر من حمار بيضاء..

رفعت رأسي ونحنت قائلةً: أنا مسرور.. أنا مسرور.. أليست هناك حمار بيضاء في هذه الناحية.. إنني أحس بالوحدة وهذا للعلم..

ومرت ليلة رائعة.

وجاء الصباح.. واكتشفت اكتشافاً زاد رأيي سوءاً في الأدميين.

رأيت التاجر يقول لمساعده: أفرز لي الحمير البليدة في ناحية..

ونخرجت مع الحمير البليدة. أحضر التاجر قطعة من الخشب وأشعلها وراح يير بها على سيقان الحمير الخلفية مروراً سريعاً.. ربط الحمير في مكانها وراح يعذبها بالحرق.. لم أفهم سر هذه الطقوس الغامضة إلا في السوق.

حينها ذهبنا لعرضنا في السوق.. كانت أقل عصا نمس ظهرنا من الخلف تلمس مكان الحرق. وهو مكان ملتهب.. تمس العصا فيطير الواحد منا مثل أعظم حصان، ويرتفع السعر غشاً وتتدليساً.. ثم لا يكاد الجرح يير حتى يعود الواحد منا إلى بلادته..

كان حظي أفضل الحظوظ..

إشتراكي عجوز أشيب هو عزيز. قال للتاجر:

- أريد حماراً بطيناً وذكياً يحملني إلى الناس ويعيني في الأرض ورزقه ورزقي على الله.. أشار التاجر إليّ وهو يقول:

- اشتريناه أمس بعشر قطع ذهبية، ونبيعه بسبع قطع إكراماً لخاطرك.

دفع عزيز ما طلبه الرجل دون مساومة.

أدهشني كرمه.

عدت معه إلى بيته. إكتشفت حين اعتلى ظهري انه رجل طيب. لم يكن يحمل معه عصا. ولم يكن ينخسني في بطني. كان مثل نسيم عليل يمر فوق ظهري. وأحببته. رأيته يعظ الناس وهو في طريق عودته ويوصيهم باتباع الوصايا العشر.. كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها عن الوصايا العشر، لم أشغل نفسي بما يسمعنيه.

عشـت مع عزيـز. كان متزوجاً عنده ثلاثة أولاد.. وكانت لديه خادمة صغيرة تتفانـي في خدمـته وخدمـتي. كان إسـم الخـادـمة «هـانـم» وكانت عـادة تـكرـمنـي بالـعـلـف وـتـتوـصـى بـيـ، وـكـنـتـ أـعـرـفـهاـ منـ صـوـتهاـ.

صارت لي في بيت عزير حجرة خاصة فيها شباك بحري نغلقه في الشتاء بسبب السم الذي ينفذ منه كالسلهوب ، فإذا جاء الصيف فتحنا الشباك فجاءت منه طراوة ترد الروح .
أعترف اني استمتعت تماماً بحياتي مع عزير .

مضت حياتي هادئة رتيبة ، كنت آكل جيداً وأمارس حريتي في الحب ، وزاد وزني وامتلأت ، وفصل لي عزير بردعتين جديدين فنهقت حين رأيتها قائلأ : جاءتنى بردعتان جديدين وأنما مسرور وهذا للعلم .

لم أكن أشقي كثيراً مع الرجل . إن مشاورته صغيرة ومحتملة ، يمر في القرية ويمحدث الناس عن الله ، ويدعوهم إلى طاعته ، وينهاهم عن عبادة الشيطان ويوصيهم باتباع الوصايا العشر . ورغم انى سمعت اسم النبي الذى أنزلت عليه الوصايا العشر إلا اننى نسيته الآن . ذهني أحياناً يشرد بغير سبب مفهوم . وأعترف انى واجهت أمرتين لم أفهمهما أبداً في سيدى عزير ، حديثه الدائم عن يوم القيمة . وقيامه بدعوه للناس بغير أجر . لاحظت انه يتحدث كثيراً عن يوم يقوم فيه الأموات من الموت ، ولم أفهم كيف يمكن لمثل هذا الأمر أن يحدث .

لاحظت أيضاً انه يعمل طوال نهاره وليله مجاناً ، يدعuo الناس بلا أجر .. وتساءلت في نفسي من أين يطعم أسرته ويطعموني ، ثم اكتشفت أن له حديقة بعيدة يمر الطريق إليها بالمقابر .. من هذه الحديقة كان عزير يعيش . وكنت أعرف أنه ينوي الذهاب إلى حديقته إذا صحب سلطين كبيرتين ووضعهما على ظهرى .

دخل سيدى عزير وهو يحمل السلطين .. وأدركت اننا سنقوم برحلتنا الأسبوعية ..
بدأت رحلتنا إلى الحديقة ..

سرت نشيطاً راضياً أستنشق الهواء النقي .. بعد طريق مترب دخلنا في طريق أخضر تحفه الحقول من الجانبيين .. ثم تغير لون الطريق إلى اللون الأصفر الباهت .. هذا أسفخ جزء في الطريق .. نحن الآن في منطقة جراء فاحلة . خرجنا من القرية تماماً وهدأت الأصوات وبدأت أسير على مهل .. شارفنا مدينة الموق .. أحسست بتشاؤم ونحن ثور على الخراب القديمة .. أسرعت في السير حين مررنا على المقابر .. ضحك سيدى عزير حين رأى أحواول اجتيازها بأقصى سرعة ممكنة ، يعرف انى أخاف منها .. مد يده وراح يهدئي حتى ابتعدنا عنها .. لا يعرف سيدى عزير ما أراه أحياناً جوار المقابر .. الحاجب مكشوف عنا نحن البهائم ونحن عادة نرى ما لا يراه الناس .. وقد رأيت إلى جوار المقابر أشياء لا أستطيع الحديث عنها ..

بعد مسيرة طيبة وصلنا إلى الحديقة ..

كان جسدي كله يتصرف من العرق والإرهاق .. جريت إلى الظل واخترت مكاناً مترباً وألقيت نفسي على الأرض ورحت أترغ .. لم أكدر أنتهي من التمرغ حتى عاودتني قوتي ونهضت نشطاً كأنني أنهض من نوم طويل .. رأيت سيدى يملأ إحدى السلال بالعنبر ويلأ الأخرى بالتين ..

عرفت أن موعد إنصرافنا قد حان فملأت بطني من العشب الطري الظليل. دناوة سأدفع ثمنها فيما بعد..

وضع سيدي عزيز على ظهري سلة التين وسلة العنب وانصرفنا عائدين. سرت نشيطاً في البداية، ثم بدأت أتنفس بصعوبة.. كانت الشمس حامية كأنها نزلت من السماء وركبت فوق رأسى، كان إثنان يركبان فوق ظهري. سيدي عزيز والشمس.. وكان عزيز محتملاً أما الشمس فكانت مخيفة.. لم أكدر أسير خطوات حتى كان جسدي كله يسبح في العرق، وأنا أكره الأنهر والسباحة بوجه عام. وقفت ونهقت قائلًا:

- التراب ساخن والحر شديد ويقطن ملآن وأنا طهقان وهذا للعلم.

ربت سيدي على رقبتي فعدت أسيير. إقتربنا من المقابر فرأيت ظلالاً الخربة المخيفة تشبه حديقة لطيفة.. جريت نحو الظل ودخلت مدينة الموتى.. ابتسם سيدي وتركتي ذهب حيث أشاء. كنت أحس بحرارة مخيفة.. وهبط عزيز ورفع عن كاهلي سلبيتين والعنب وجلس على الأرض.

كان كل شيء مفرهداً من الحر.. أنا وسيدي وهوام الخراب وغفل المنطقة. جلس عزيز وعصر بعضاً من العنب في صحن.. ثم أخرج رغيفاً من الخبز الناشف وكسره ووضعه في العنب كي يلين فتحتمله أسنانه.. راقبته وهو يعد طعامه ودهشت.. ما أصغر كمية الطعام التي يأكلها الأدميون، كان سيدي عزيز هو الآخر ييدو مستغرقاً في تأملاته.. لاحظت أنه يمبل بصره فيها حوله من خراب وعظام بالية وصمت ميت.. ثم سمعته يقول مندهشاً كأنما يؤكّد لنفسه قدرة الله.. سمعته يقول «أنى يحيى هذه الله بعد موتها».

لم يكدر عزيز يقول كلمته حتى هاجمه مثلياً هاجئني نوم ثقيل مفاجيء.. هذا النعاس الأمر الذي يصعب الحرارة ويبدو فيه انك تستحيل من فرط التعب إلى تراب.. نمت نوماً عميقاً مختلفاً عن كل نوم نمته قبل ذلك.. وقد وقع هذا قبل أنلاحظ إنني نمت.. حاولت أن أنهق لأنبه سيدي انه لونام فسوف يفسد العنب المعصور من الحرارة، ولن يجد طعاماً يأكله عندما يستيقظ.. لم استطع.. رحت في النوم.

نمّت نوماً عميقاً غريباً. أشهد أن هذا النوم كان غريباً حقاً. العادة أني أحلم عندما أنا نوماً عادياً.. أحلم أني أسيير في حقول الفول مثلًا.. أو أحلم أني أقابل جدي الحمار الوحشي القديم.. أو أحلم أني لم أزل جحشاً ليست عليه مسؤوليات ثقال.. لكن هذا النوم لدهشتني يختلف عن أي نوم طبيعي.. كان نوماً يخلو من الأحلام تماماً..

ثم أحسست فجأة بوجوده.. لا أتحدث عن سيدي.. لم أكن أرى سيدي عزيز أو أحس بوجوده. إنما كنت أحس بوجود كائن آخر.. كائن ليس من أهل هذه الأرض.. كائن من نور جليل.. سمعت هذا الكائن يسأل سيدي: كم لبشت نائماً يا عزيز؟ لم أسمع جواب سيدي.. ولم أره.. سمعت هذا الكائن الجليل يقول بعد لحظة صمت قصيرة: «بل لبشت مائة عام» أنظر إلى حمارك الميت يا عزيز، أنظر كيف استحال جسده إلى تراب.. تأمل ما بقي من تراب

عظامه.. ثم أنظر كيف يأمر الله الموق أن يعودوا إلى الحياة.. هو مجرد الأمر وحده يا عزيز. أنظر كيف يبحث التراب عن التراب ويلتهم عظاماً. أنظر كيف تغطيه الدماء والعروق، ثم تأمل الجلد كيف ينبت فوقه.. أنظر إلى الشعر كيف يكسو الجلد.. لم يزل حارك ميتاً فانظر إليه كيف يصحر من الموت.. انهض أيها الحمار الميت منذ مائة عام.

كان الأمر الأخير موجهاً إليّ.. و كنت أسمع كلمات هذا الكائن الجليل، دون أن أراه أو أرى عزيز.. لم أكُد أسمع الأمر الأخير حتى نهضت من نومي فجأة.. رفعت رأسي فوجدت الجو لطيفاً وقد ذهبت الحرارة.. لم أر غير سيدى عزيز. كان يقف أمامي متدهشاً كأنني أصحو من الموت. نهضت واقفاً أرتعش وجربت أن أنهق فوجدتني لم أنس النهيف.

قال عزيز وهو يتأملني ويرتعش - «أعلم أن الله على كل شيء قادر».. طعام سيدى لم يزل على حاله سليماً لم يفسد. كيف متنا مائة عام تحول فيها جسدي إلى التراب ورغمها بقي عصير العنب على حاله لم يفسد.. هذا العصير يفسد في ساعات في الحر. رأيت عزيزاً ينخرط في صلاة عميقـة، مد يده إلى طعامه فمنعه انفعاله أن يأكل أكثر من لقمة، بعدها ركب ظهري وساقي عائداً إلى القرية. وتلقيت المفاجأة الأولى في يومي الغريب. لم تكن هناك قرية.

أقصد القرية التي تركناها قبل أن نذهب إلى النوم في المقابر.. تغير شكل البيوت وتغيرت ملابس الناس وتغيرت برادع الحمير.. وتغير كل شيء. حاولت أن أتشمم الأرض بحثاً عن رائحة بيت عزيز فلم أجدر رائحته.. وقفت في مكانٍ خائفاً.. بدأت أدرك ما حدث. أدركت بعد أن صرنا في قلب القرية أنني قد توفيت وعدت إلى الحياة.. وأخافني هذا الموضوع خوفاً شديداً.. ولولا عزيز وطمأناته لي لجهشت. لم يكن خوفي بغير مبرر.. لاحظت أن هذا النوم الذي تناه قد فصل بيني وبين جنس الحمير فصلاً نهائياً.. لم تكن الحمير تراني فتقرب مني بود كما هي العادة. إنما كانت تنهق خوفاً وتبتعد.. أعلنت عزيز أنه قد عاد فسخر منه الناس. قالوا خرج عزيز منذ مائة عام ولم يعد. مات عزيز وشيع موته.. قال: أنا عزيز وقد بعثني الله من الموت بعد مائة عام.. أين أحفادي.. دلوه على أحفاده فوجد عزيز أصغر أحفاده في الستين من عمره.. كان عمر عزيز محسيناً سنة.. وجلس الجد وعمره مائة سنة مع حفيده وهو في الستين. ورفض الحفيد الشيخ أن يصدق أن هذا الكهل الصغير هو جده. لم يكن في القرية كلها غير إمراة واحدة هي التي عاشت بعد خروج عزيز من القرية.

«هانم» خادمتنا الصغيرة. تركناها في العشرين من عمرها وما قد وصل عمرها إلى المائة والعشرين. أقبلت الخادمة حين سمعت عن عزيز وهي تخبر جسدها المحطم وتحس بعصاها الطريق.. فقدت بصرها من الشيخوخة.. شمعت رائحتها فأسرعت إليها ونهقت سروراً بها ورحت أهزر ذيلها.

كانت هي الرائحة الوحيدة التي عرفتها في القرية.
قالت المرأة لعزيز: من الذي يتحدث عن عزيز ويدركه وقد نسيه الناس. ثم انخرطت في

البكاء.. قالت وسط بكائها: كان عزيز مستجاب الدعوة فادع الله لي أن أرى.. فدعا لها عزيز أن ترى فذهب عنها العمى ورأنه.. عرفته فصرخت ترحب به ثم ارقت على قدميه قبلها وتبكي ..

وشاركتها البكاء. انعدت عند عيني حبتان كبيرتان من الدموع.. قال أحفاد عزيز: كان عزيز يمل نسخة من التوراة في بيته. وقد بحثنا عنها بعد خروجه فلم نجدها. لو كنت عزيز فأين هي التوراة؟.

لقد ضاعت أوراقها وتمزقت في الحرب ونسيناها تماماً.

قال عزيز مشيراً إلى رأسه وقلبه: لم أزل أحفظ التوراة في قلبي. وهناك نسخة أخفيتها في جذع شجرة قدية فتعالوا نبحث عنها. ذهبنا إلى شجرة قدية مهجورة تنمو حولها الأعشاب الطويلة.. وهناك مد عزيز يده وأخرج ما بقي من صفحات التوراة.. وتصاعدت صيحات الدهشة من الناس.

وسط طفة الناس حول عزيز نسيني الجميع تماماً..

انتهى الأمر وانسحبت من الصورة.. التف الجميع حول نبيهم الذي بعثه الله من الموت ونسوني أنا..

الفرد بنفسي بعيداً عن الناس وطالت وقتي.. سمعت واحداً من اليهود يقول لزميله همساً - عزيز ابن الله.

ارتعشت عظامي من الهول.

اضطربت لهذا لكتابه مذكراتي والادلاء بشهادتي أمام محكمة التاريخ.
وهذا للعلم.



كَلْبُ الْكَهْفِ

﴿ وَتَحْسِبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقْلِبُهُمْ ذَاتَ
الْيَوْمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكُلُّهُمْ بِسَاسِطٍ ذِرَاعِيهِ
بِالْوَصِيدِ، لَوْ اطْلَعْتُ عَلَيْهِمْ لَوَلَّتُ مِنْهُمْ فِرَارًا
وَلَمْلُئْتُ مِنْهُمْ رُغْبَاءً﴾.

(سورة الكهف .. آية ١٨)

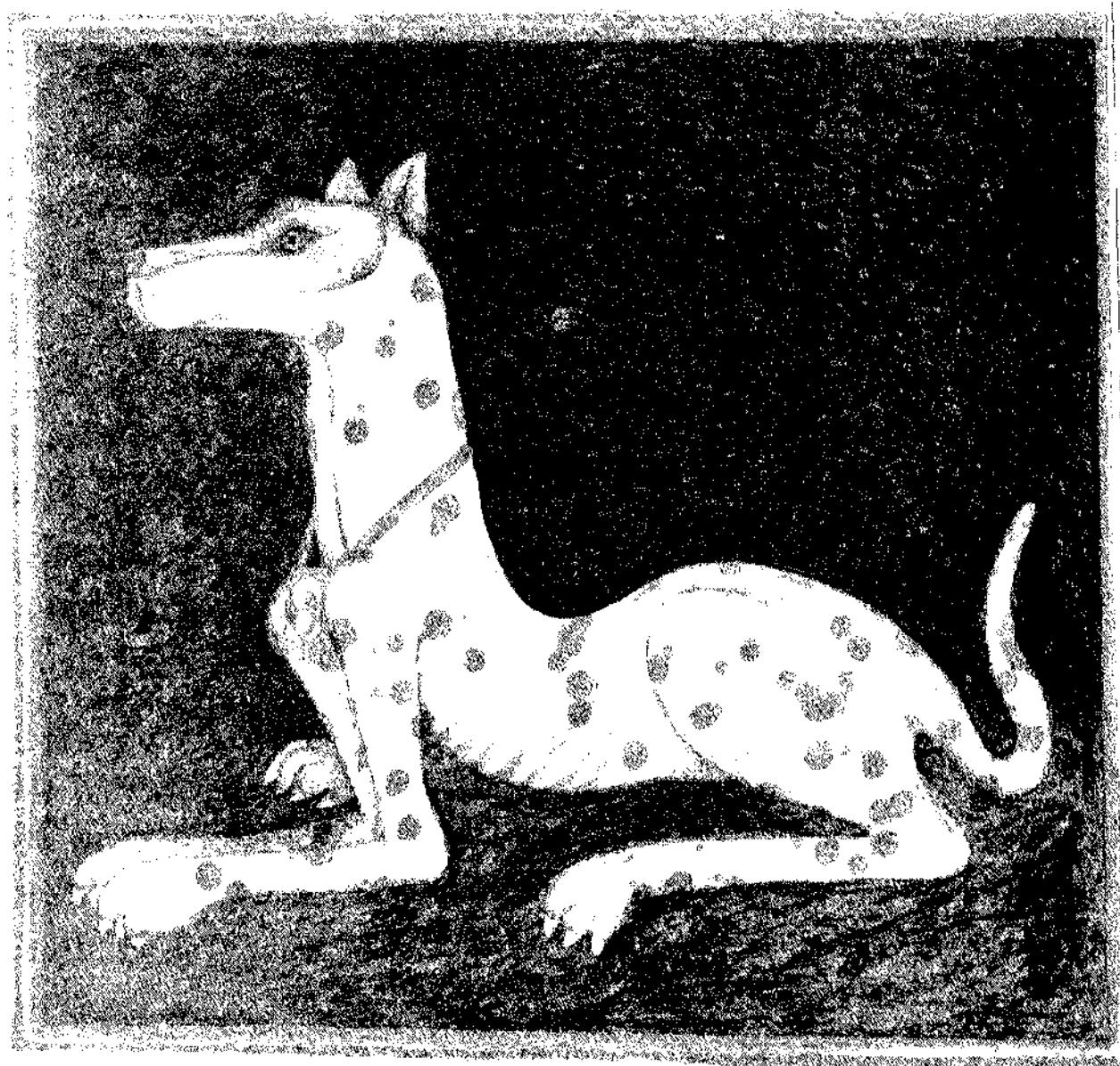
اعطى الوفاء كله وأرضى بأقل القليل .

نعم ..

أنا الوفاء الوفي ، المستوفى للوفاء ، القانع بالوفاء ، الراضي بأقل الوفاء .
أنا قطمير .. كلب أهل الكهف النائم ٣٠٩ سنة .. المستيقظ بعدها كمن نام نصف
ساعة .. شكرًا لله أن حدث ما حدث .. فقد كنت أوشك أن أفقد إيماني بوجود العدالة على
الأرض .. يتصور كثير من الناس أن الكلاب حيوانات لا تهم إلا بالأكل والنباح .. وهذا
وهم .. ويتصور كثير من الناس أن الكلب شيء نجس .. سبة أو شتمة أو شيئاً من هذا القبيل ،
حتى ليقول الإنسان الذي خلقه الله وكرمه لزميله يا ابن .. فاصدأ تحقيره واهانته .. وهي ليست
إهانة لنا نحن الكلاب .. أن يكون المخلوق كلباً لا يعني أنه كفر ..
إن الله سبحانه وتعالى اختار أن يخلقنا كلاباً .. واختار أن يخلق غيرنا ناساً .. ولو أراد
 سبحانه أن يخلق من الكلب إنساناً ، ومن الإنسان كلباً لفعل ، ولا معقب على حكمه و اختياره ..
لماذا يسيء إلينا الناس إذن ، ويوردون أسماءنا في شتائمهم .. لماذا؟ .

سوف أتبعد محتاجاً على ما يحدث - أقول في نباحي : هذا ظلم ..
على أي حال .. ليس هذا هو الظلم الوحيد الذي تخصص فيه الإنسان .. لعل هذا أبسط
أنواع الظلم التي يمارسها . ولقد رأيت ألواناً وأشكالاً من الظلم ، بدأت مولدي واستغرقت حياتي ،
ولولا المعجزة التي وقعت لنا في الكهف لقللت على العدل السلام ..

ولدت ذات صباح مشمس في خرابية نائية في مدينة افسوس .. وحدد مولدي في هذا المكان
مستقبلني إلى الأبد .. هي مشيئة الأقدار أن أخرج إلى الحياة كلباً ضالاً ، وأن أعيش في مملكة ظالمة



وأوقات سوداء.. أرضعني أمي ثم ماتت قبل أن تتم رضاعتي.. وقد وقع موتها على رأسي وفروع الصناعة..

أحكي لكم كيف ماتت أمي لتعرفوا نوع الأيام السوداء التي عشناها.. كانت أفسوس مدينة تعبد هواها، وكان حاكمها كافراً بالله، وكان أغلبية أهلها من الاموات وفاقدى الرأي.. هي مأساة أن تولد في مدينة أهلها بلا رأي.. هذا يعني أنك قد ولدت في الجحيم.. إنك لا تستبعد ساعتها أن يقع أي ظلم على رأسك ولو كنت بريئاً.. ما دام الناس يكفرون بالله، فهذا يعني أن كل شيء مباح.. ليس بعد الكفر ذنب..

رأى أهل أفسوس فجأة أن عدداً قد زاد.. هكذا قالوا.. قالوا زاد عدد الكلاب.. وهم يبحون طوال النهار وطوال الليل فلا نام.. وهم يأكلون من طعامنا ويعضون أولادنا وينجسون معابدنا وينبغى إعدامهم جميعاً.. هكذا قالوا ويعلم الله أئمهم كانوا يبالغون، ولو كل واحد منهم بدلاً من أن يدخل في بيته الطعام ويكتسه حتى يتلف، ألقى علينا بكسرة من الخبز، لوفتنا نباخنا وعشنا معهم في سلام.. المهم أئمهم ادعوا أنهم لا ينامون الليل بسبب نباخنا، ونسوا أن نباخ ضمائرهم هو السبب في أرقهم.. بعدها قرروا إعدامنا، وخرج الرجال المسلحان بالسيوف لاسكات النباخ. انظر كيف يرتفع السيف وهو على الكلب منا فتدبر الصرخة قبل انطلاقها، أو يعود نصف كلب يرى نصفه يختلنج على بعد خطوات منه..

كنت رضيعاً لم أكمل الرضاعة، حين دخلوا المخربة وهم يشرعون سيفهم.

كنت أرقد بين حجرين في المخربة. نصف نائم ونصف مستيقظ.. اخفقني أمي مع آخرتين لي وذهبت إلى السوق فلما عادت وجدتها تجري وناساً يجررون وراءها وسيوفهم تقطر دماً. هوسيف فطار ذراع أمي وانكفأت على الأرض متخبطة في دمها وهي تنبع نباخاً ضعيفاً قالت لنا فيه:

- اختبوا جيداً، فقد جن أهل المدينة وخرجو يقتلون الكلاب.

شاهدت مصرع أمي أمامي.. وقنت ساعتها، رغم العداء التقليدي بيننا بين الذئاب.. تمنيت لو كنت ذئباً له ألف ناب وألف مخلب وألف روح.. ظللت أرتعش في مكانٍ حتى سكت حرقة أمي وانصرف الرجال. بعدها خرجت من مكانٍ وناديته أمي فلم تستيقظ قلت لها: إنني جائع أريد أن أرضع فلم ترد.. كانت ترقد وسط بحيرة حمراء.. واحدٍ قدميها تهز هزات مختلجة وبقية الجسد ساكن.

وهكذا صادفت الitem قبل أن أتم الرضاعة. وواجهت الحياة وحيداً منذ مولدي.. ولو لا كلبة صديقة لأمي.. لو لا صدرها الحاني لما كنت أحذثكم الآن.. أرضعني صديقة أمي حتى بترت. وقد رعيتها في شيخوختها، وكانت أدفن لها العظام والخبز حتى إذا جاءت تزورني أخرجت لها الطعام وأعطيته لها وجلست أرقبها وأهتز ذيلها وهي تأكل.

يعلم الله أنني كنت أطعمها وأنا جائع..

لم أكن أطعمها لأنها أرضعني أو أنقذت حياتي في الصغر..



أكـون نـدلاً يـفكـر بـعـقـلـيـة المـنـفـعـة لـو فـعـلـت ذـلـك ..

كـنت أـطـعـمـهـا وـفـاءـ لـصـلـتـها بـأـمـيـ وـصـدـاقـتـها لـهـا .. رـحـمـ اللـهـ أـمـيـ وـرـحـمـهـاـ.

وـاجـهـتـيـ مشـاكـلـ الـدـنـيـاـ حـينـ كـبـرـتـ ..

كـانـ عـلـيـ أـنـ أـخـرـجـ إـلـىـ الـحـيـاـ سـاعـيـاـ وـرـاءـ الـشـمـسـ وـالـلـقـمـةـ وـالـحـبـ ..

كـانـتـ الشـمـسـ هـيـ الـمـخـلـقـ الـوـحـيدـ الـذـيـ يـتـصـفـ بـالـكـرـمـ فـيـ الـمـلـكـةـ .. أـمـاـ الـلـقـمـةـ فـكـانـتـ شـحـيـحةـ .. أـمـاـ الـحـبـ فـكـانـ مـتـوـافـرـاـ .. هـذـاـ النـوعـ مـنـ الـوـفـرـةـ الـذـيـ يـمـحـوـ مـذـاقـهـ مـنـ الـفـمـ،ـ وـيـجـعـلـهـ بـلـ طـعمـ ..

مـنـ الصـعـبـ أـنـ يـتـصـورـ الـمـخـلـقـ معـنـيـ الـحـيـاـ القـاسـيـةـ الـتـيـ تـعـيـشـهـاـ الـكـلـابـ الـضـالـلـةـ أـوـ كـلـابـ السـكـلـكـ كـمـاـ يـقـولـونـ .. حـيـاـ قـاسـيـةـ،ـ عـلـيـكـ فـيـهـاـ أـنـ تـدـبـرـ أـمـرـ مـعـاشـكـ،ـ وـأـمـرـ هـرـبـكـ فـيـ الـوقـتـ الـمـنـاسـبـ ..ـ مـنـ يـدـريـ ..ـ قـدـ تـنـكـرـ مـذـبـحـةـ الـكـلـابـ فـيـ أـيـ وـقـتـ ..ـ كـلـ يـوـمـ تـنـامـ فـيـ خـرـابـةـ تـخـلـفـ عـنـ الـخـرـابـةـ الـتـيـ نـمـتـ فـيـهـاـ أـمـسـ ..ـ لـيـسـ هـنـاكـ اـسـتـقـرـارـ،ـ وـهـنـاكـ هـذـاـ الـخـوـفـ الـغـامـضـ الـمـجهـولـ مـنـ الـغـدـ ..ـ وـهـنـاكـ هـذـاـ الـاحـسـاسـ الدـائـمـ بـالـمـطـارـدـ ..ـ أـنـ تـكـوـنـ دـائـيـاـ مـوـضـعـ مـطـارـدـةـ،ـ يـعـنيـ أـنـ تـنـخلـعـ مـنـ صـفـاتـكـ وـتـحـولـ إـلـىـ كـتـلـةـ مـنـ الرـعـبـ الـمـتـحـركـ الـذـيـ يـتـنـظـرـ أـهـوـنـ إـشـارـاتـ الـخـطـرـ لـيـجـرـيـ ..ـ حـيـاـ مـرـعـبةـ ..ـ مـثـيـرـةـ،ـ وـلـكـنـهاـ مـرـعـبةـ ..ـ تـعـرـفـ فـيـ هـذـهـ الـحـيـاـ عـلـىـ رـجـلـ قـدـرـ لـيـ أـلـعـبـ دـورـاـ فـيـ حـيـاـتـهـ،ـ وـقـدـرـ لـهـ أـنـ يـلـعـبـ دـورـاـ فـيـ حـيـاـيـ ..ـ تـمـ هـذـاـ الـلـقـاءـ وـالـتـعـارـفـ فـيـ إـحـدـىـ الـخـرـائـبـ ..ـ لـاحـظـتـ أـنـ هـنـاكـ رـجـلـاـ مـنـ الـرـعـاءـ،ـ يـلـجـأـ بـأـغـنـامـهـ لـإـحـدـىـ الـخـرـائـبـ،ـ وـهـنـاكـ يـتـرـكـ أـغـنـامـهـ وـيـصـلـيـ ..ـ اـقـتـرـبـتـ مـنـهـ يـوـمـاـ وـهـوـ يـصـلـيـ فـسـمـعـتـهـ يـمـجدـ اللـهـ وـيـدـعـوـهـ إـلـهـاـ وـاحـدـاـ لـاـ شـرـيكـ لـهـ ..ـ أـدـرـكـتـ بـفـطـرـتـيـ السـلـيـمةـ أـنـيـ أـمـامـ رـجـلـ مـؤـمنـ ..ـ وـجـلـسـتـ إـلـىـ جـوارـهـ حـقـيـ اـنـتـهـىـ مـنـ صـلـاتـهـ وـالـتـفـتـ إـلـيـ ..ـ بـصـرـاـحـةـ ..ـ لـمـ أـشـعـرـ بـالـخـوـفـ مـنـهـ،ـ اـنـتـهـىـ مـنـ صـلـاتـهـ فـأـخـرـجـ طـعـامـهـ وـجـلـسـ يـأـكـلـ ..ـ رـغـيفـاـ مـنـ الـخـبـزـ

وقطعة من اللحم.. رممت قطعة اللحم فلم أجد فيها أي قطعة من العظام، انتابني اليأس ورغم ذلك هزرت ذيله، رأني أهز ذيلي فأخرج قطعة اللحم من فمه قبل أن يأكلها ونظر إلي.. هزرت ذيله أكثر.. مد إليّ يده بقطعة اللحم وهو يسألني بلطف هل أحس بالجوع؟.

هزرت ذيله أكثر، ولكنني لم أتحرك من مكاني.. من يدربي.. ربما كان لطفه البادي كمناً لاصطيادي، ربما كان يسخر مني.. لا داعي للأمل..

مد الراعي إليّ يده بقطعة اللحم.. هزرت ذيله بفرح أكثر، ولكنني لبست جالساً في مكانه.. أردت أن أعض نفسي لأعرف هل أنا نائم أم مستيقظ.. لا ريب أنني أحلم.. كثيراً ما حلمت بهذا المشهد.. رجل يجلس وفي يده قطعة من الخبز واللحم.. يأكل هو الخبز ويقدم إليّ اللحم..

هو حلم لا ريب في ذلك.. لكن الدنيا شديدة الحرارة.. ولسانى مدللى من فمي.. كيف يحس النائم وهو يحلم بذلك الحرارة.. أ تكون الاحلام قد تطورت؟

ادرك الراعي أنني لا أثق فيه، فالقى إليّ بقطعة اللحم.. كان بيبي وبينه ما يقرب من أربعة أمتار.. طارت قطعة اللحم في الهواء فرفعت رأسى وأدركت أنني لا أحلم.. قفزت في الهواء وصوبيت فمي نحو الهدف والتقطت الهدية..

جسمى كله يرقص.. ذيله يرقص.. فمي يرقص.. أسناني ترقص.. معدتي ترقص.. الشمس ترقص، والكون كله يغنى..

آه.. أيها اللحم.. ما أذبب مذاقك!!.

قلت للراعي وأنا أرقص وأهوهو:

- قطعة أخرى لو أمكن.. هذه أول مرة أذوق فيها اللحم في حياتي..

ابتسم الراعي ابتسامة خجلة، فأدركت أن قطعة اللحم التي أكلتها كانت هي كل طعامه.. جريت نحوه ورحت أقبل قدميه وأشم رائحته وأهز ذيله.. سجلت رائحته في عقلي وأقسمت أن أعيش وفي هذه الرائحة حتى الأبد، ويوماً آخر بعد الأبد، وساعة أخرى بعد هذا اليوم..

انصرف الراعي فانصرفت وراءه.. حاول أن يهشى لأرجع، ولكنني أصررت على خدمته.. قررت أن أحرسه وأنبع له وأحبي غنمه وأسهر الليل كي لا يصبه مكروره.. حاول طردي، ولكنني التصقت به وأنا أقبل قدميه فتركني أتبعه.. فوجئت بأنه يتوجه نحو قصر الملك.. تشاءمت، ولكنني دخلت معه وحولنا الخراف لقصر الملك..

اتضح انه متهد توريد الخراف للقصر..

يومها التقى في قصر الملك بقصبة حبي على الأرض.. التقى بكلبة الأميرة «بريسكا».. رائع.. رائع.. أقصد قصر الملك من الداخل.. تذكرت الخراة التي أعيش فيها، وقارنت بينها وبين حديقة القصر، زاد إحساسى عمقاً بالغوارق الطبقية.. نعم.. كلب مثقف أنا.. تشققنا تجاربنا في الخرائب ونقرأ آلام الدنيا عملياً ونجرب.. شاهدت في حديقة القصر الملكي تمثلاً ل الكبير آلهة المدينة، تذكرت فجأة أنني شربت كثيراً

من الماء، جريت نحو التمثال ورفعت قدمي و «عملتها».. خرجت لي كلبة سمراء من الحديقة وهوهوت... هوهوة مدللة ضعيفة من هوهوات القصور. قلت لها: لماذا تهوهون؟. قالت: كيف تهرب، الا تعلم أن هذا تمثال كبير الآلة المعبدة في أفسوس. قلت لها: كبير الآلة والآلة صغير الآلة.. كنت عصوراً يا ستي فلا داعي للهوهوة والخوته. قالت: يقتلك حرس القصر لو علموا أنك لوثت معبودهم. قلت هامساً: أنت كلبة لطيفة ولن تقولي لأحد.. هل تصدقين خرافات الناس .. أليسوا حمقى حين يعبدون الحجارة؟. قالت: أنت أول مخلوق شجاع أقابله في المدينة.. أرجو أن تسجل إعجابي بك.. قلت لها: سجلت الاعجاب وأشكرك. قالت: من أين أنت قادم، ولماذا أنت نحيف لهذا الحد، عظامك تبرز من لحمك.. أنت مضحك.. قلت لها: قادم أنا من إحدى الخرائب، التحقت بخدمة الراعي اليوم. السر في نحافي هو سوء التغذية وينخل الناس وغلاء الأسعار وندرة اللحم.. تصوري أنني لم أذق طعم اللحم في حياتي إلا اليوم.. أعطاني الراعي نصبيه من اللحم.. قالت: أرجو ألا تشير أمامي إلى اللحم أو تذكر سيرته.. سئمت من أكل اللحم كل يوم وأتوقف لقطعة من العظام.. بدأت اعتقاد أنها مجنة قليلاً.. قررت معاملتها بحدار أكثر.. قلت لها: تقولين أكل اللحم كل يوم.. هل تأكلين اللحم كل يوم؟.

قالت نعم.. قلت: أليس لديك بعض اللحم الفائض؟. قالت: لحم الغداء ملقي في الصحن لم أمسه.. قلت: هل أستطيع أن أرى هذا الصحن؟. قالت سر ورأفي فسرت. وصلنا إلى طبق كبير يمتليء باللحم.

أشارت إلى الطبق وقالت: تفضل بأكله كله. قلت لها: إليك أن تهوي بعد أن آكله أو تتهمي بالسرقة.. لا أريد أن أسيء إلى الراعي.. قالت: أنت تخاطب ناهييش كلبة الأميرة بريسكا.. وما تقوله عيب.. حنيت رأسى على الطبق وزللت اللحم زلطة واحدة، لم يكن لدى وقت للمضغ، من يدرى ماذا تأتي به اللحظة التالية.. بعد غمضة عين كان الطعام قد تبعثر.. قالت الكلبة كيف تأكل بهذه السرعة.. أنت مفجوع.. لقد قررت أن أتزوجك.. اكتشفت أنني أحبك، أ يكون هذا هو الحب من أول نظرة.. قلت لها اعتذر عن الزواج وأشكرك على الحب.. ليس في قلبي مكان للحب، عندما يستغرق السعي وراء اللقمة كل طاقة المخلوق، يصبح من العسير عليه أن يحب.. الحب ترف لا يقدر عليه الفقراء من أمثالى.. قالت حالمة: شجاع ونحيف ومفجوع وفيلسوف.. زاد حبي لك.. دعني أشم رائحتك.. تفوح منك رائحة البنفسج.. قلت لها في الخراب شجرة بنفسج فعلًا.. كنت أتصور أن الترف قد أفقدك حاسة الشم.. قالت: يدور رأسى كلما رأيتك تقف جواري، هاودني وتزوجني.. قلت لها وأنا أجري بعيداً عنها: اسمع سيدى ينادينى فمعذرة.. هرعت إلى الراعي.. وكان الملك مهتاباً يصرخ في الراعي: لم أرك مرة واحدة تسجد لامنا أيها الراعي.. راقبتك وأنت تمر على تمثال الآلة في الحديقة ورأيت كيف تتجاوزته دون سجدة هل جئت؟.

قال الراعي: ضعف نظري يا مولاي فلم أر إلهك الموقر.. ارتعشت في مكانى.. ماذا لو علم الملك أنني تبولت على صنمك المعبد.. عاد الملك يقول وهو

محتاج: هذه ملكي أنا. ولن يعبد فيها غير الله الذي أحدهه أنا. وليس للناس رأي غيررأيي أنا. لقد قررت أن يكون حد السيف هو الرأي المطاع في المملكة.. وسوف احاسب حتى على الاحلام والافكار التي تدور في الرؤوس.

قال الراعي: وفق الله الملك في خططه المستقبلة. ستقطع من الذهب للعجول والخراف والماعز.. أحضرت إليك عجلًا سميناً أرجو أن يدفع بطن مولاي.

أراد الراعي الانصراف فسأله الملك بدھاء مفاجئ:

- أيها الراعي.. أراك تحدث وزيري كثيراً هذه الأيام.. أي شيء يجمع بين راعي غنم ووزير من وزراء المملكة؟. ارتعش الراعي ولاحظت ارتعاشته.. خرجت من جسله رائحة خوف مفاجئ استطيع تمييزها.. أدركت أن الراعي مهدد بشيء لا أدريه.. وقفت وبحثت ضد الملك.. أسكنتني الراعي بإشارة من يده وقال للملك:

- لا شيء يبني وبين الوزير أيها الملك.. كان يريد.. كان يريد.. نعم .. تذكرت الآن.. كان يريد توريد اللحم لبيته.

قال الملك بدھة: لست أعرف أن الوزير من هواة اللحم.. يقولون إنه نباتي لا يأكل اللحم.

قال الراعي وقد عاد اليه المدوع:

ولكن أسرته تأكل اللحم.. لم أكن أعلم أن وزير المملكة نباتي..

قال الملك فجأة: تستطيع أن تصرف أيها الراعي..

القي إليه الملك ثمن الماشية وانصرفنا.. لم يذهب الراعي مباشرة إلى بيته.. مر على أكثر من بيت وراح ينقر عليها نقرات خفيفة. بعدها البسي حول رقبتي طوقاً من النحاس وتركني في حديقة بيته المقفرة. وجاء متصرف الليل فانسل الراعي من فراشه الدافئ وتبعته. خرج من المدينة قاصداً الجبال القرية فمشيت وراءه. دلف إلى مكان يقع بين جبلين فدلقت معه. كان هناك ستة رجال.. بعضهم رأيته في قصر الملك. وبعضهم لم أره من قبل. احتضنوا الراعي وقبلوه وبدأ حوارهم الخامس.

قال الراعي: ادركت من سؤال الملك اليوم أنه يعرف الصلة بيني وبين وزيره.. يبدو أن الملك يشك في شيء.. أرى أن تصرف بسرعة.

قال أحدهم: جن الملك. وغداً يبدأ إرهابه. قال رجل آخر: لقد قرر أن يمزق كل من يعبد إلهاً غير آلهته المتعددة. قال الثالث: نحن جميعاً معرضون لخطر الذبح أو الرجم.. وتساءل رابع عن الخطوة التالية. قال الراعي: أرى أن ننتظر إلى الغد ثم نجتمع هنا في نفس الموعد. إذا نفذ الملك تهديده تركنا له المملكة وهاجرنا. أعرف كهفاً قريباً نستطيع أن نقضي فيه النهار، فإذا جاء الليل تسللنا خارج المدينة.. انتهي الاجتماع فانصرفنا فرادي.

نام الراعي فقلت أذهب إلى ناهييش في القصر.. ذهبت إليها فوجدتها تنتظر. قالت لي وأنا أصرف: أعطوني شيئاً أذكرك به يا حبيبي إلى أن أموت. خلعت لها الطوق النحاس من رقبتي. كان يضايقني. انصرفت. لم أكن أعرف أن هذه هي المرة الأخيرة التي أراها فيها.

تنفس الصباح وانعكست أشعة الشمس على برونز السيف وهي تحصد الرقاب لمجرد الشبهة. قرر الملك أن يقنع الناس برأيه مستخدماً سيف جنده كأدلة مبدئية للإيقاع. كانت سلطات المدينة تقبض على الناس وترجهم قتلاً بالحجارة.. ثم تقيم لهم بعد ذلك محاكمات عادلة يحكم عليهم فيها بالإعدام. فإذا سأله القاضي أين المتهمون الذين يحاكمهم لتنفيذ عقوبات الرجم فيهم.. حدثه أن سيف الملك سبق عدل القضاة.. ويصفق الحاضرون إعجاباً بعدل الملك وسرعته. وهكذا تطابيرت رؤوس كثيرة، ورجم ناس كثيرون، ووُجدت نفسي في مأزق. أن الراعي مهدد هو الآخر بافتضاح أمره ورجمه. ولن تسلم رقبتي بصفتي كلباً يعيش معه. ما العمل إذن. هل أحجره؟. أكون خنزيراً لو فعلت. أنا كلب صفتة الأولى هي الوفاء. قلت في نفسي: لن أحجره ولو تطابيرت رقبتي ألف قطعة.. على العكس.. زاد حبي له وزادت بنفس الدرجة دهشتي من أهل المدينة. إنهم يشاهدون أبل من فيهم يقتل فلا يحركون ساكناً.. تطورت الأحداث بسرعة شديدة.. سمعنا خطباً على باب الراعي فهوهوت.. فتح الراعي الباب.. دلف منه ستة رجال.. من بينهم وزيران للملك. قال الرجال الستة للراعي إلى الكهف أياها الراعي. أسرع.. ليس هناك وقت.. وأسرعنا وراء الراعي إلى الكهف. أمرني الراعي أن أجلس على باب الكهف من الداخل. وأن أحرسهم جيداً وأنبع إذا اقترب أحد.

لم أكن أريد أن أنام.. هذه أول مهمة رسمية يكلفي بها الراعي ويجب أن أثبت وفائي.. سمعت أحدهم يقول: «ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدنا».. سمعتهم يقولون «ربنا رب السموات والأرض لن ندعوك من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم من افترى على الله كذلك؟. وإذا اعزتموه وما يعبدون إلا الله فأولوا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته وهيء لكم من أمركم مرافقاً»..

تفرق الرجال في الكهف ورقدوا..

كانت مهمتي هي حراستهم. بسطت ذراعي بالوصيد والخذلت وضع الحراسة.. أغمضت عيناً وفتحت عيناً وقلت أحرس هؤلاء المؤمنين بالله.. ثم وجدت عيني المفتوحة تتغلق من تلقاء نفسها.

رحت في النوم.. استيقظت أول واحد.. وجدت نفسي ميتاً من الجوع.. وجدت شعري قد ثما حتى أدهشني منظره.. ما هذا؟ أن تكون قد ثما أسبوعاً.. بحثت أوقيتهم فاستيقظوا.. خرجوا إلى باب الكهف فرأيهم في الضوء وازدادت دهشتي. كانت لاهما قد طالت لأقدامهم، وكان شعرهم يسترسل وراء ظهورهم ويجرجر على الأرض مثل طرحة العروسه. كان منظرهم مربعاً.. أردت أن أفر منهم لولا أنني تشممت رائحتهم فوجدتها كما هي لم تغير.. بدأوا يتساءلون بيهم «قال قائل منهم كم لبستم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم، قالوا ربكم أعلم بما لبستم فابتعوا أحدكم بورفككم هذه إلى المدينة فلينظر إليها أزكي طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرون بكم أحداً. إنهم إن ظهروا عليكم يرجوكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً».

تقرر اختيار الراعي للخروج وخرجت معه..

بصراحة.. كدت أفقد عقلي.. أين ذهبت البيوت والقصور والدور والخرائب.. كانت هناك مدينة ثانية، وملابس ثانية، وكلا布 لا تشبه الكلاب التي تركتها قبل أن أنام، التفت الناس حول الراعي وراحوا يشيرون إلى ملابسه ويتهامسون.. أهذا سائق جدي؟ ما الذي يرتديه؟ لماذا طالت لحيته هكذا؟ أنظروا إلى كلبه هو الآخر؟ أنظروا لشعره الطويل؟ راحت الكلاب تسبح حولنا ثم تفر مذعورة كأن ألف شيطان يطاردها، دخلنا مطعمًا دلنا عليه الناس واشترينا قليلا من اللحم واللحمز، ومد الراعي يده في جيبي وأخرج قطعة ذهبية من القطع المست التي أعطاها له الملك قبل أن نلجمًا إلى الكهف وننام.. لم يكدر البائع يرى عملة الراعي حتى صرخ: عملة أثيرة، من أين أحضرتها إليها الرجل الغريب، هل عثرت على كنز؟ زاد اللغط وتوكأ الناس حول الراعي فقلت: أطير إلى ناهيش فهي وحدها التي تستطيع أن تخدبني عن الحقيقة، كان هناك قصر آخر بدلاً من قصر الملك الذي تركته، لم يزل هو الأعمدة على حاله وإن كان قد تكسر وأدركته الشيخوخة.

نبحت قائلاً: ناهيش.. أين أنت يا ناهيش، خرجت لي كلبة سمراء وتساءلت: من الذي يدعو جدي من أعماق الموت؟ ملأتني الدهشة، كانت هي ناهيش بعينها..

قالت الكلبة: أنا ناهيش الصغيرة.. خيل إلي أنها تندلل علي فاقتربت منها فتراجعت كأنني شبح، ماذا تريدين مني أيها الكلب الغريب الذي خرج من التاريخ عائدًا إلى الزمن، قلت بنفاذ صبر: ما هذه الفلسفة يا ناهيش.. أين ذهب حياؤك القديم.. أين ذهب صفاء عينيك، قالت ضاحكة: كله إلا الحياة وصفاء العينين.. من أنت وماذا تريدين؟ قلت لها صارخاً متوجعاً: أهكذا تغيرك ليلة واحدة؟، أيها الوفاء الذي التصق زوراً بجنس الكلاب.. في أي بحر من بحار الغدر ترقد.. قالت بدهشة:

لماذا تبكي هكذا وأنا لم أرك قبل الآن، أدركك أنها تذكرت لي.. يحدث هذا كثيراً في دنيا الكلاب.. قلت لها بألم وتوجع: تتنكرين لي بعد كل ما حدث؟ إن السماء تشنق داخل قلبي، والنجوم تهوى محترقة، والشمس تنطفئ، أمات حبك لي قبل أن يهضم طعام العشاء؟ حمد الله الذي لم أتهدم، لم أنهض.. لم أزل أتنفس.. لم أزل حياً لأنك لا تزالين حية.. هاوروو هاوروو.

قالت متشيسية: كلام لم يقله لي كلب في حياتي قط، على كثرة من عرفت من الكلاب، ما الذي فعلته لك لتعوي هذا العواء، كيف أخونك وأنا لم أرك غير الآن.. حركت رقبتها فرأيت الطوق المعدني الذي أهديتها إليها ليلة زواجنا، قلت لها: كيف تحتملين مس الطوق على رقبتك، إلا يحرقك نحاسه.. تخوين من أهدي إليك الطوق، ثم تلبسيه بكل التبعج.. قالت وهي تتراجع: آه.. أدركك حكاياتك.. ليس هذا الطوق ملكاً لي، هذا طوق كلبة الأميرة بريسكا، وقد ماتت منذ ثلاثة أيام.. توارثناه منها جيلاً بعد جيل.. يا إلهي.. تقول إنك أهديت إليها الطوق..

هل أنت قطمير.. هل أنت الكلب الذي أحبته وماتت وهي تعوي مقسمة على الوفاء له..
هل أنت..

لم أسمع بقية حديثها.. أحسست أنني أنهار وأتفوض.. بدأت الحقيقة تسطع في عقلي
وتغزو كياني فجأة. إذا كانت ناهيش قد ماتت منذ ثلاثة عشر عام، فهذا يعني أنها ماتت أكثر من
ثلاثة عشر عام..

ارتعش داخلي شيء وبدأت أفهم.. ذهب صنم الآله المعبد من أفسوس. هذا معناه أن
الإيمان هو الذي انتصر. أنكون قد ماتنا ثلاثة عشر عام لنكتشف هذه الحقيقة.. بالنسبة لي، كانت
ناهيش قد ذهبت.. ضاعت.. ماتت. وكان هذا كل ما يعنيه من الأمر.. انخرطت في بكاء
عميق ودفنت رأسي في الأرض وعويت.. قالت حفيدة ناهيش وهي تقترب مني أكثر: يا إلهي..
أهذا الحد أحببتها.. كنت أتصورك تتحدث إلي.. ظنت أنك تغازلني أنا.. لماذا خفق قلبي حين
رأيتك.. أ يكون الحب قادراً على الاستمرار رغم الزمن.. لماذا لا تكلعني.. يقتلني تجاهلك لي..
أنا أجمل من جدي ناهيش.. أنظر كيف قصصت شعرى على الموضة. كانت كلماتها تصل إلى
عقلي مختلطة بصوت بكائي.. قالت حفيدة ناهيش وهي تضع رأسها على صدري.. حاول أن
تساها.. أنظر إلي وحاول نسيانها. أرحتها وعدت إلى الكهف.. نادتني حفيدة ناهيش..
هوهوت لي بحب، توسلت وهزت ذيلها، ولكنني كنت غريقاً في بئر من الأسى العميق والحزن
الأسود.. ذهبت ناهيش. لن أسمع صوتها بعد اليوم. لن أشم رائحتها. لن تلمع عيناهما
بالحب.. خيل إلي أن طرقات المدينة تجده بالبكاء.. طاردتني كلاب المدينة وكأنوا يهودون ثم
يفرون أمامي مذعورين.. زاد إحساسى بالوحدة واليأس ورأيت أقدامى لا تكاد تحملنى إلى
الكهف. تحاملت على نفسى حتى وصلت.. رأيت أهل الكهف وقد أصابهم ما أصابنى. كانوا
ذاهلين يتداولون حواراً متقطعاً لاهثاً يتخلله صمت غريب.. جريت إلى الراعي ورميت نفسى على
قدميه وأجهشت بالبكاء، لم يعد لي غيرك في الدنيا أنها الراعي.. ذهبت ناهيش.. ماتت.
مد الراعي يده إلى رأسي وراح يربت عليها.
كان رأسي يدور..

سمعت الراعي يسأل الوزير: كم قالوا إننا لبثنا في الكهف.

قال الوزير: ثلاثة عشر عام وتسعة سنوات.

قال الراعي: كيف ماتنا كل هذه الحقبة..

قال الوزير: هذه إرادة الله.

قال الراعي فرحاً كمن اكتشف شيئاً: أطلعوا الله على عاقبة أمره في المكذبين..

قال الوزير: صدقت أنها الراعي.. انهزم الملك وسقطت آهاته.. من كان يتصور.

قال أحدهم: قد علمنا الآن أي الحزبين أحصى لما لبثنا أمداً..

قال أحدهم: أقول لكم شيئاً.. لقد أحست بالغرابة في المدينة.. عدت إلى الكهف كمن
يعود إلى بيته. مات أبنائي وزوجتي ولم يعرفني في المدينة أحفاد أحفادى، ذكرتني فجعيته بفجعيتي
 فهوهوت معلولاً..

تذكرة ناهيشه القديمة ورحت أقارن بينها وبين حفيدة حفيتها فازداد حزني على القديمة . .
اقربت أصوات عديدة من الكهف فنسقت حزني وقفزت إلى باب الكهف وبحثت .
كان ملك المدينة الجديد وزراراؤه وكبار حاشيته يتقدمو شعب أفسوس كله . . كانوا قادمين
إلى الكوخ وهم يسكنون بأيديهم أغصان الزيتون والزهور والورود . من المدهش أن حفيدة ناهيشه
كانت معهم . .

لم أكُد أرى هذا الجمجم حتى نبحث مرتين بعنف فتوقفوا جميعاً . أشار الملك لي: معهم
كلب . . ما أعجب ما حدث . .

قال أحد وزرائه: نام الكلب مع القديسين ثلاثة عشر عام وتسع سنوات . . عاودت النباح
فوقفوا في مكانهم جامدين . رفع أحد حراس الملك سيفه يخفى فازداد نباهي . قال الملك وهو
يعتبر يد حارسه .

- إياك أن تمس هذا الكلب المبارك . . لقد نام معهم طوال الفترة التي ناموها . . ثم إننا لا
نقتل الكلاب بغير جريمة . . من يؤم بالله لا يؤذى مخلوقاته الأضعف . أدركت أن العدالة قد
عادت إلى الأرض فكفت عن النباح .
حين عاد الإيمان بالله عادت معه العدالة .

صاحب الملك: أيها القديسون . . ليخرج منكم أحد . إن ملك أفسوس هو الذي يخاطبكم .
خرج الراعي وخرج بعده رفقاء .

انحنى الملك وزراراؤه وحاشيته وانحنى الشعب لنا . .

قال الملك: أيها القديسون المباركون . . نريد أن نسمع قصتكم .

كنت أعرف القصة فانصرفت إلى باب الكهف وجلست . . جاءت حفيدة ناهيشه تقول لي:
لماذا تجلس وحدك . . ألم تزل تذكرها .

قلت: لم أتم غير ليلة واحدة . . فكيف أنسى في ليلة واحدة .

قالت: بل ثمت سنتين عدداً .

قلت: نامت عيناي وظل قلبي يقظاً فكيف أنسى .

قالت: فيلسوف أنت يا قطمير .

قلت هاماً: كانت تسميني فيلسوفاً ومفجوعاً .

قالت حفيدة ناهيشه: ماذا تقول:

قلت: أبداً . .

قالت: أراك تشيح برأسك عني:

قلت: لم يزل قلبي مشدوداً إليها . .

قالت: الوفاء طبعك الأصيل يا قطمير . لكنه وفاء يجرح قلبي . أترك لم تعد كلباً . .

قلت: لست أعرف . . لقد متانا ولم ثمت . . ثمنا فكيف ثمنا ثلاثة عشر عام وتسع سنوات . .

أغمضت عيني وفتحتها فإذا العصر غير العصر والمدينة غير المدينة والناس غير الناس . . إن

آية الله حين تقع تثير دوار العقل والقلب . . وعقلني يدور وقلبي ينسكب في صدري كالماء ينسكب

لم أعد أحس أنني أنتهي بجنس الكلاب على الأرض.. إنهم يفرون مني... يهربون.
 قالت: ولكنني لا أفر منك.. أنت الذي يفتر مني.
 قلت: النتيجة واحدة، والغرابة أصلًا متحققة، وفاراهم مني هو السبب في فراري منك..
 والنوم في الكهف يفصل بيننا، لم أعد ملكاً لزمانك أي زميلة المهوهة..
 خيل بيبي وبين هذا العصر عندما أغمضت عيني في الكهف.. أنا ملك للتاريخ.. صرت
 ملكاً للتاريخ.. صرت آية من آيات الله أنا المخلوق البسيط القريب من الأرض.
 إنني أرتعش بالغرابة والدهشة وشيء من العظمة.. لا أنكر. يزيد حزني على جدتك ناهيش
 ويزيد فرحي في نفس الوقت.. ولد فرحي الآن فلماذا ولد. أتراني في الطريق إليها..
 خيل إلى أننا ندخل باب الكهف من جديد، لننام بحق هذه المرة..
 خيل إلى أن ناهيش هناك.
 في هذا الركن الساكن المظلم الرائع.
 وألقيت بنفسي في ظلام النور.



طَيْنٌ عَيْسَىٰ

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نَعْمَنِي
عَلَيْكَ وَغَلَىٰ وَإِلَيْكَ، إِذْ أَيْدَتْكَ بِرُوحِ الْقُدْسِ،
تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا، وَإِذْ عَلَمْتَكَ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَالْتُّورَاةَ وَالْإِنْجِيلِ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ
كَهْيَةً الطَّيْرَ بِإِذْنِي، فَتَفْخُصُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا
بِإِذْنِي ﴾.

(سورة النَّمَادِيَّةَ - آية١١٠)

طيناً كنت.. ثم صرت طيراً بإذنه سبحانه.
من الطين الذي لا حراك فيه، إلى طير يخلق في السماء.. نفس المادة التي لا تقدر على
الحرaka، هي ذاتها التي تستطيع الطيران.. هذا أنا..
لا أعرف كيف أقدم نفسي إلى التاريخ..

قدمني الله تعالى في آخر كتبه بقوله ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ بْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نَعْمَنِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ
وَإِلَيْكَ، إِذْ أَيْدَتْكَ بِرُوحِ الْقُدْسِ، تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا، وَإِذْ عَلَمْتَكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَالْتُّورَاةَ وَالْإِنْجِيلِ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهْيَةً الطَّيْرَ بِإِذْنِي، فَتَفْخُصُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾.

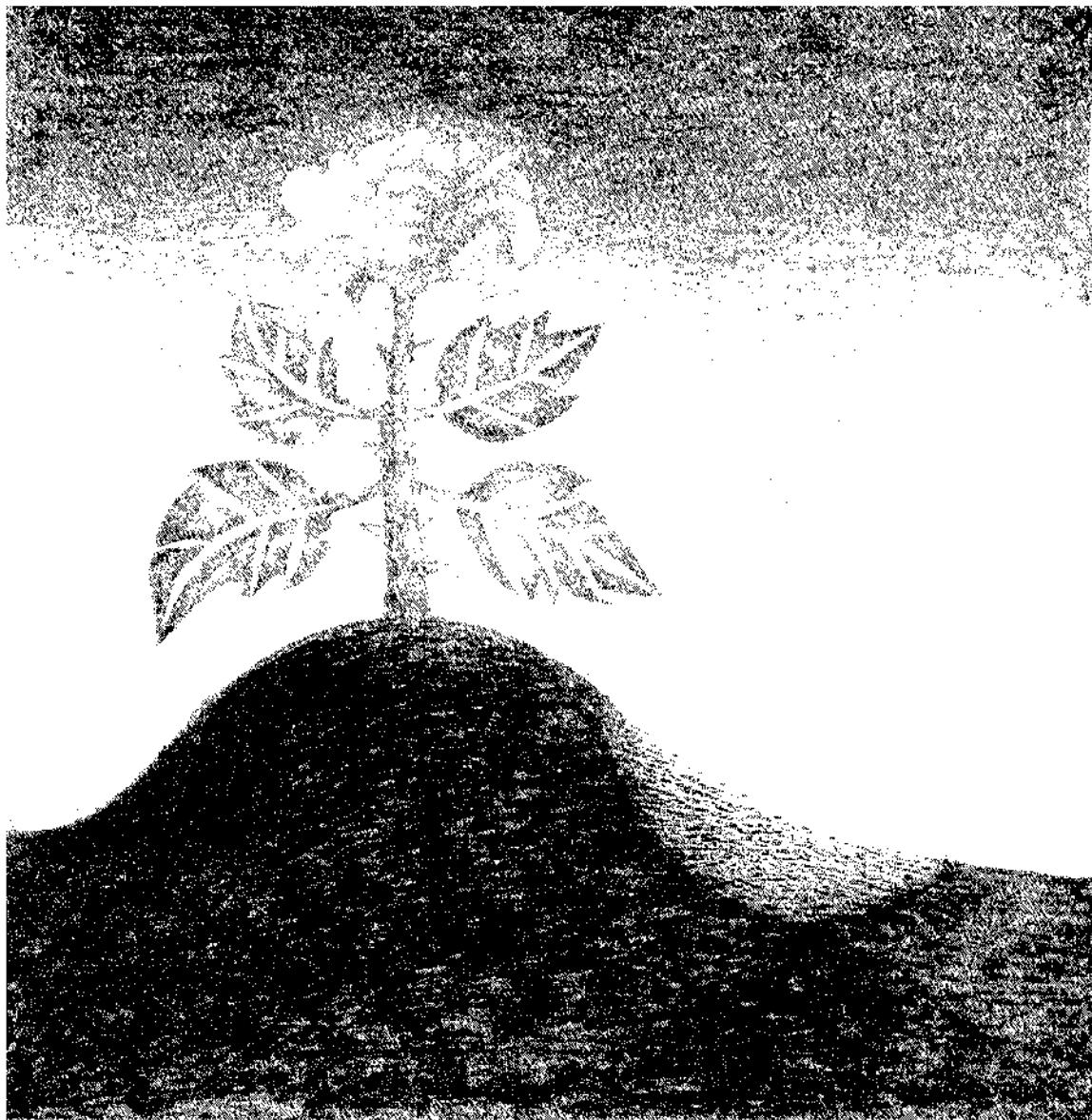
هذا أنا..

حفنة من الطين كنت..
أميرة على الطين كنت.. أميرة رغم ذراري الطينية.. ثم وقعت في الحب..
قبل أن يمسكني عيسى بن مريم.. وقعت في الحب.. وحين وقعت في الحب دلفت نحو
أرض التحولات..

كيف يصف المخلوق عطر أرض هي في الأصل سماء..

هادئة كنت وراكلدة وراضية بوضععي كطين.. لم أكن أحلم.. لا يملك الطين القدرة على
الحلم.. هذه القدرة أعلى من موهب الطين.. ورغم هذا الوجود الذي يخلو من الحلم كنت
راضية..

كان لي تاريخ قديم قبل أن أصير طيناً من طين الأرض..
في البدء كنت جزءاً من الشمس، ثم مرت بلايين السنين دون أن أحب فانطفأت الجذوة



المشتعلة وتحولت إلى صخر في كوكب يسمونه الأرض في بقعة يسمونها فلسطين.. طين من أرض فلسطين أنا فانظر كم تعذبت.. مرت آلاف السنين.. دون أن أحب..

كنت أشرب الماء وارتوي وأقدم الزهور المعطرة رغم أنني أعيش بلا حب.. هذه فطرة الطين أن يرتوي ويزهر.

تكتفي بذرة واحدة لأصنع منها ما يثير دهشة العقل والقلب. لكنني ظللت كما أنا طيناً من طين الأرض.

لم أكن أرى غير المساحة التي تحتلها ذرافي.. لا يرى الطين بعيونه، ليس للطين عيون،
أحياناً أرى بعين دودة أو زهرة.. لا أعرف ماذا يجري جواري.. ولا أعرف ماذا يقع فوقي..
لا أعرف.. لكنني أحياناً أسعد.. وأحياناً أشقي..

تسعد الأرض وتشقى رغم أنها بلا قلب ولا مشاعر.. آه.. هذا سر من أسرار الطين ولست أعرف كيف أحدث الناس عنه.. لا بأس.. ليست رغبتي أن أحدث عن نفسي ، ولكنني أريد أن أفعل.

ألا تتحدث من يحب عمه، يحب ..

لقد أحببت نفسي . أنا قطعة الطين .. حين وقعت في الحب .. ولقد سمعت عن عيسى قبل أن يولد، وشاهدته بعد أن بعث .. ووقيعت لي على يديه معجزة التحول من طين هامد إلى طير ملقم .. كنت قطعة من الطين في حديقة تلتتصق بالمسجد الأقصى .. وكانت مريم تمر جواري دون أن تتوقف وهي في طريقها إلى الصلاة في المحراب .. وحاولت عبثاً أن ألتفت انتباه مريم إلى نفسي ..

لم أستطع.. عبّاً حاولت استدعاي نظراتها إلى دون جلدو.. وفكرت طويلاً ولم أستطع أن أفعل شيئاً..

ثم نبتت شجيرة ورد صغيرة وضعيفة من طيني ذات يوم .

كانت الشجيرة مجرد عود أخضر لم يتحول إلى لونه الداكن بعد.. وفوجئت أن مريم تتوقف
أمامي يوماً وتنظر إلى شجيرة الورد..

أردت أن ألفت انتباهاها أكثر فلم أستطع.. ووسط حيرتي وأحزاني تنهدت.. ففتح برم
صغير في الشجيرة..

واستدار وجه مريم العذراء وراحت عيناهما تتأملان معجزة البرعم الذي يستيقظ .
يومها سقني مريم .. وأحسست بارتواه مختلف عن ربي المطر .. كان الماء الذي روتني به هو نفس الماء الذي شرب منه .. كان الماء عذباً ومعطرأً بزهر الليمون ، وكان فيه مذاق غير أرضي .. وارتويت يومئذ رياً يشبه العطش .. ووقعت في حب مريم .. كان هذا أول حب أعرفه ..

الآن يتحدث من يحب عن من يحبه.

أريد أن أصف لكم مريم.. لن أستطيع.. لم أكن أراها كلها، كنت أرى الجزء الذي يقع
أمامي مباشرةً من وجهها..



كان وجهها عذباً يشيع فيه النبل، وكانت عيناه تعكسان نظرة تضطرب بين دهشة البراءة وجمال الصفاء العفوي.. .

كان وجهها كالحلم.. كالنهر.. .

بوصفي طيناً لا يحلم أحببت وجهها مرتين.. . مرة لأنه وجهها، ومرة لأنني لا أحلم.. .
ويقدر عجزي عن الحلم كان حبي لها عميقاً وهادئاً وصادقاً.. آه لو كنت أمثل القدرة التي
تلکها الطيور على التعبير.. آه لو كنت طيراً يستطيع الغناء.. . وقف فوق طيني ذات يوم بليل
وراح يعني أغنية قصيرة بدت لي مثل مجموعة من النجوم التي تدور معًا في انسجام كوني.. .
وتنبأت لو كنت بليللا.. .

آه.. كنت أغنى طويلاً عند أقدام مريم.. .
طويلاً كنت أغنى عند أقدامها.. .

من عجائب الحب المبدئية أنك لا تعرف لماذا أحببت، ثم يزيد حبك فتعرف لماذا زاد،
ويظل السبب الأصلي للوقوع في الحب سراً غامضاً لا يكشف عن ملامحه فقط، لم أعرف لماذا
أحببت مريم.. . ثم زاد حبي لها ذات يوم وان عرفت هذه المرة لماذا زاد.. .
﴿وإذا قالت الملائكة: يا مريم.. إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء
العالمين﴾ .. .

فهمت أنني أحببت من توجها الله أميرة على نساء العالمين.. . وفهمت سر طهرها الذي يبدو
القمر جواره مثل شمعة مطفأة.. .
وزاد حبي لمريم.. . كيف تقاوم ذرات الطين الوقع في حب قيمة بهذه القيمة.. . عادت
الملائكة تخاطب مريم:

﴿يا مريم اقني لربك واسجدي وارکعي مع الراکعين﴾.
كان الأمر الصادر لها بعد البشارة أن تزيد من خشوعها لله وسجودها له وركوعها
فرحت لها وحزنت لنفسي ..

نسيني مريم عاماً في غمرة انفعالها الجديد باداء الصلاة.. كانت مريم حين تص
نسبة النبل الكوفي، وكان جحود الشيطان وعصيائه يبذلو جوار صلاتها مثل حفنة رماد ه
آه.. نسيني مريم طويلاً.. انشغلت عنى بالصلاه.. بدأت أنتظراها كل يوم.. تعله
الإنتظار.. ولم أكن أجد من أشكوا إليه غير شجرة الورد.. كانت الشجيرة قد تحولت
شجرة ورد..

قلت لشجرة الورد: نسينا مريم العذراء..
لم تقل شجرة الورد شيئاً.. عدت أقول: ربما لم تنسنا.. ظلت شجرة الورد صامتة
الرياح فتحركت احدى الورود وسقطت من فوق أوراقها البيضاء قطرة من الماء.. لم
كانت السهام تمطر، أو كانت الوردة تبكي.. لم أعرف.. كل ما عرفته أن هذه إلا
كانت هي الجواب الوحيد الذي قدمته شجرة الورد خلال حوارنا..
خيل إلى في نفس اللحظة أن مريم تبكي وهي تصلي.. وملائني يقين طيني عميق
مريم كانت سبباً في بكاء الورد.

وزاد حبي لمريم.. زاد بمقدار انتظاري لها، وزاد بنفسه نسبة النمو في شجرة الورد
أن الحب ملأني بخصوصية لم أكن أدرتها في نفسي فولدت عشرات من أشجار الورد..
ورحنا جميعاً ننتظر العذراء..

ثم وقع حدث كوني ذات يوم..

أشرقت الشمس وجافت كل طيني، وعبرت كل السحابات المحملة بالمخاطر
تتوقف.. وتشققت من العطش، وكان عطشى لرؤبة الأميرة التي توجها الله على نساء الـ
من عطشى إلى الماء.. وانحدرت الشمس أخيراً نحو فراشها الغامض في الغرب..
الليل.. كان ليلاً قائطاً من ليالي الصيف.. واشتد عطش الورد فمالت بعنقها نحو
أصغر الورود:

□ قلتني العطش.. هل أبدأ رحلتي نحو الذبول؟..
كانت الوردة تسألني فلم أجيب.. لم أعرف ماذا أقول.. صلبت الله صلاة قصيرة
من العطش، قبل أن أنتهي من الصلاة كانت مريم تجري نحوها وهي تحمل إناءها والماء
منه وهي تجري.. تذكرتني مريم فجأة بعد صلاتها.. وجاءت في اللحظة المناسبة تمام
مريم.. كنت أشرب الماء بلا صوت.. ثم أدفع به نحو سيقان الجذوع وأطمئن ألا
راحٌ تشرب..

فجأة.. وقع حدث كوني هائل..

أحسست بالحدث في اللحظة التي وطئت فيها أقدام الملك أرض المكان.. نزل به
الملائكة ووقف أمام مريم.. شعرت به قبل أن تراه مريم.. رغم أنني طين من طين الأ

أنتا نشعر بآيات الله ونحسها ونستجيب لها قبل أن يشعر بها البشر أو يحسونها، امتلأت ذراري الطينية برغبة في الطيران حين نزل جبريل.. ورفعت الورود رؤوسها البيضاء ونظرت إليه.. بعد لحظات شاهدته مريم، فوجئت به في البداية.. تأملت وجهه فلم تر أنها تعرفه.. كان جبريل عليه السلام يرتدي عباءة الصور البشرية، ولكن بعاءه كان ينفل مثل أشعة لا يحجزها شيء من خلال رداءه البشري.. أحسست مريم بالخوف والقلق فاحتضنت بالله.. تصورت أنه رجل غريب تسلل إلى خلوتها، قالت بخوف: إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيناً.

ابتسم ملاك الرب جبريل ليطمئن قلب مريم.. أجابها في صوت هادئ:

□ إنما أنا رسول ربك..

حين أطمنت مريم ساق إليها ملاك الرب سر نزوله إلى الأرض قال:

□ لأهب لك غلاماً زكيًا..

فرحت مريم ولكن فرحتها تكسرت قبل أن تولد، تذكرت أنها عذراء.. لم يمسسها بشر.. لم تتزوج.. لم يلمسها إنسان.. كيف تلد..

دارت هذه الأفكار في رأس مريم مثل طيور فزعـة.. سالت الروح الأمين: أن يكون لي غلام ولم يمسني بشر ولم أك بغياً..

قال: كذلك قال ربك.. هو علىّ هيـن.. ولنجعله آية للناس ورحمةً منا وكان أمراً مقضياً.

في الدنيا عبارات تحمل معاني هائلة.. من هذه العبارات كلمة جبريل عليه السلام لمريم عليها السلام..

قال لها (وكان أمراً مقضياً).

أراد أن ينهي نقاشاً طويلاً من الدهشة التي قد تخامر نفس مريم بعد علمها أنها ستتحمل وتلد بكلمة من الله..

كانت مريم عذراء وهبها أهلها لخدمة المسجد الأقصى.. وكان مجدها وشرفها أنها عذراء في خدمة المسجد..

كيف تلد العذراء؟ ماذا تقول للناس؟ كيف تدافع عن نفسها وسط عالم شرير لا يؤمن بآيات الله ولا يصدق قدرة الله؟ لست أعرف بوصفي قطعة من الطين في البقعة الشرقية ماذا كانت أحاسيس مريم أو مخاوفها أو أفكارها.. لا أحد يعرف سوى الله..

ولهذا قال لها ملاك الرب (وكان أمراً مقضياً)..

أنهى مخاوفها أو وضع حدأً لها أو أمرها أن تصرف ذهنها عن الأمر كله، فقد كان أمراً مقضياً.. قضاه الله وشاءه..

مهمة مريم إذن أن تصرف ذهنها عن التساؤلات إلى شيء آخر.. عليها أن تستسلم للأمر المفضي..

تستسلم وتتفاعل وتفرح.. إن الله تبارك وتعالى شاء لها أن تكون مطهرة ومصطفاة على نساء العالمين، وشاء لها أن تصير أماً لنبي كريم يولد بكلمة من الله وروح منه..

نفح ملاك الرب جبريل في الهواء، فوّقعت المعجزة وتحولت العذراء إلى أم تحمل آية الله.
﴿وكان أمراً مفضياً﴾.

رددتها مريم بعد اختفاء الملاك، وانصرفت مسرعة إلى محرابها ونسقت الإناء الذي تشرب منه، والذي جاءت تسقينا منه..
أحببت مريم العذراء الأم، أكثر مما أحببت مريم العذراء.. زاد حبي لها بمقدار حبي لهذا المولود بكلمة من الله ..

مررت أيام وشهور.. كنت أرى مريم كثيراً.. كانت هناك على مبعدة قصيرة مني مجموعة من أشجار النخل الطويل، وكانت الأم العذراء تتمشى من البقعة الشرقية التي يقع فيها طيني، إلى التخيل الذي يتبعنا خطوات..

وكانت مريم تقف طويلاً عند التخيل.. وأحياناً كانت تجلس على العشب.. أحياناً كانت تذكر الله، وأحياناً كانت تبدو صامتة وشاحبة..

وذات يوم جاءها المخاصض وهي تجلس جوار جذع النخلة، قالت وسط آلامها: ﴿يا ليتني مت قبل هذا و كنت نسياً منسياً﴾.

رغم إيمان مريم العظيم، ورغم اصطفاء الله لها، ورغم مشيئته أن تحمل آيته إلى البشر، رغم كل هذا المجد كانت موجبات القلق في نفس العذراء أكبر من موجبات الطمأنينة..
هذا قلق الطين البشري..

استطاع كطين أرضي أن أفهم هذا القلق وأقدرها.. إن مريم تتسمى لمجتمع بشري لا مجتمع من الملائكة، وهي تخضع لقوانين البشر أصلاً، ومن هذه القوانين أن المرأة لا تلد إلا إذا تزوجت، فإذا زعمت أنها لم تتزوج ثم ولدت.. كان هذا دليلاً على البغاء..

ليست المشكلة هيئـة إنما هي ثقيلة الوطأة.. سوف تتهم العذراء بالبغاء.. أي تضحيـة يقدمها البشر الذين يصطفـهم الله.. إن التضحيـة تبدأ عندهـم من الشرف وتنتهي بأن يدق الجسد بالمسامير أو ينشر بالمناشير أو يطعن غـلة من الخلف..

كانت مريم أظهر امرأة في الأرض.. ورغم ذلك فسوف يردد مجتمعها كله هذه الكلمة:
﴿يا أخت هارون ما كان أبوك أمراً سوء وما كانت أمك بغيضاً﴾.
عبرت الجملة ذهن مريم قبل أن تلد.. وكانت تعذبها وتدهـشـها.. فهي لم تختـرـ ما يقع شيئاً، إنما هو أمر مفضـيـ..
هـكـذاـ حـدـثـهاـ مـلـاـكـ الـربـ..

حين جاءها المخاصض وأحسـتـ بالـأـلمـ الـوضـعـ خـرـجـتـ منـ فـمـ مـرـيمـ كـلـمـاتـ الـضـعـفـ الـبـشـريـ:
قالـتـ: ﴿يا ليـتـيـ متـ قـبـلـ هـذـاـ.. وـكـنـتـ نـسـيـاـ منـسـيـاـ..﴾.
أـيـ عـذـابـ كـانـتـ تـتـعـذـبـهـ لـتـقـولـ مـثـلـ هـذـهـ الـكـلـمـاتـ.. ذـلـكـ عـذـابـ فـوـقـ طـاقـةـ الـبـشـرـ عـلـىـ التـحـمـلـ.. قـشـرـتـهـ مـنـ الـخـارـجـ هـيـ الـعـذـابـ وـلـكـنـ لـبـهـ وـقـلـبـهـ الرـحـمـةـ الـخـانـيـةـ وـالـمـجـدـ الإـلـهـيـ..
قالـتـ مـرـيمـ كـلـمـتـهاـ وـهـيـ تـلـدـ.. حينـ فـوـجـيـتـ بـالـمـلـوـدـ وـرـأـتـ بـعـينـ الـخـيـالـ مـاـ سـتـلـقـاهـ مـنـ مجـتمـعـهاـ

وقومها.. حين وقع هذا عادت مريم إلى الضعف البشري وتمتن لو كانت نسياً منسياً..
ففي هذه اللحظة ناداها من تحتها:

«أن لا تحزني قد جعل ربك تحكماً سرياً، وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً
جنياً، فكلّي واشرب وقري عيناً فاما ترين من البشر أحداً فقولي اني نذرت للرحمٰن صوماً فلن أكلم
اليوم إنسياً».

انتهى الأمر وببدأ صوم العذراء عن الكلام .
خرجت بالطفل وعادت إلى قومها وهي تحمله ..
وببدأ اللعنة وطارت الشائعات ولم يعد للمجتمع اليهودي المنافق كله غير حادث العذراء التي ولدت ..

تجاوز المجتمع اليهودي الظاهرية الخارقة فيها حدث، وتوقف عند طين الشائعات وراح ينشر من شفتيه طيناً مماثلاً ملأ به الجو..
كنت أمثل الأرض، وكان أبنائي من الورود يمثلون النبات.. وكنا معًا شاهدين على طهارة مرريم وبراءتها..

لم نكن وحدنا الشهدو.. . كان الكون كله شاهداً على براءتها، وكان رب الكون يعلم كل شيء، ورغم ذلك مرت مريم العذراء بأيام عصبية.. . كان المجتمع اليهودي يعرف في قرارة نفسه براءة مريم.. . ولكن نفاقه حكم عليه أن يقف في صف اتهامها.. . رغم أنني جزء من طين الأرض إلا أنني أستطيع أن أفهم هذه الظاهرة العجيبة.. . حين ينحط مجتمع ما.. . يرفض أن يصدق وجود النقاء أو الطهر في أي صورة من الصور.. . بل إن هذا المجتمع نفسه يقف ضد النقاء والطهر في أي صورة من الصور.. .

إن وجود النقاء في صوره العليا يؤذى مشاعر النفاق والفساد.. ومن ثم يستل الفساد أسلحته ويفيدا الحرب.. وليس هناك أسهل من حرب الشائعات الوضيعة.. ولقد وقع حادث حسم الأمر كله، أو كان المفروض أن يجسم الأمر.. ورغم ذلك لم يفلح هذا الحادث في قطع الألسنة الموجلة..

عادت مريم وهي تحمل عيسى، عليها السلام.. سألاها قومها نفس العبارة: يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيّاً.. نفس العبارة التي ردتها مريم في نفسها حين تذكرت الموت.. تذكرت مريم هذه المرة ما حدثها به عيسى.. أشارت إليه..

فهموا أنها صائمة.. لكن دهشتهم تعاظمت.. كيف يكلمون طفلاً ولد منذ لحظات.. قال رؤساء الكهنة لمريم: كيف نكلم من كان في المهد صبياً؟ ووَقَعَتِ الْمُعْجَزَةُ وَتَكَلَّمُ عِيسَى.. قال: أَنِي عَبْدُ اللَّهِ أَتَانِي الْكِتَابُ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مَبْارِكًا أَيْنَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دَمْتُ حَيًّا، وَبِرَا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَارًا شَقِيقًا.. وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلْدَتْ وَيَوْمَ أَمْوَاتُ وَيَوْمَ أَبْعَثُ حَيًّا.

رغم هذه المعجزة الخامسة ظلت حرب الشائعات تدور حول مريم، وظل المجتمع اليهودي يلوك في فمه القصة بعد حذف المعجزات منها.. وزاد احساسي بالألم وزاد حبّي لمريم وعيسي عليهما السلام ..

رغم اني قطعة من طين الأرض، رغم درجتي البسيطة في عالم الحياة والأشياء كنت أتألم وأحب وأسعد وأشقي ..

ومرت أيام.. لم أعد أرى فيها مريم..
نسيت مريم الإناء الذي أحضرت لنا فيه الماء..
نسيته في مكان قريب مني..
يا إلهي.. كيف تشرب أذن؟..
افتقدت أخبار مريم وبابها العظيم..

ثم مر جواري ذات يوم بعض حرس الحكم الروماني هيرودس، وكان معهم رجل يبدو أنه من جهاز الأمن الاستخباري أو المخابرات الأمنية، كان هذا الرجل يسأل أسئلة كثيرة.
نظر الرجل إلى شجيرات الورد وتحكيم العنبر وأشجار التحيل وأمر أن ينصبووا له مائدة جوار أرضي وجلس يسأل الصغير والكبير..

- ما هي قصة الطفل الذي تكلم في مهد؟ ما هي حكاية الشائعة التي تقول إنه هو «المخلص» الذي سيخلص شعبه؟.. من هو شعبه؟.. من سيخلص شعبه؟ هل يخلصه من روما؟ هل هناك مؤامرة ضد روما؟ هل يقود المؤامرة طفل يتكلم في لغافته؟ هذا الطفل ستار يخفى وراءه رجالاً كباراً هم مخططو المؤامرة، من هم هؤلاء؟

كانت أسئلة المحقق تنهال بسرعة على الكاهنة وسدنة المعبود وكل من كان في السوق أو سمع أو رأى أو خيل إليه أنه سمع أو رأى.. كان واضحًا أن الأمر قد أزعج سلطات روما..
وادرك الناس أن يد الدولة تتحرك وتوشك أن تضرب، وهذا أخفاوا القصة بأكمالها وأنكروها تماماً..

قال أحد الكهنة رداً على سؤال المحقق: هل تصدق أنت يا سيدي المحقق أن طفلاً يولد من غير أب.. أجاب عن السؤال الثاني بقوله: هل تصدق أنت يا سيدي المحقق أن طفلاً مولوداً يتكلم في المهد.. رفع المحقق رأسه وقال: أيها الكاهن.. أرجو أن تجيب على أسئلتي إجابات كاملة، إني لم أحضر لهذا المكان لتسألني أنت وأجيبيك أنا..

أصابت صوت المحقق خشونة مفاجئة حين جاء لهذا الجزء من عبارته.. قال الكاهن وقد سرت إليه عدوى الخوف من خشونة المحقق: سيدي المحقق. أنت تسألي في أوهام وأحلام.. أنا لا أصدق أن عذراء تلد ويتكلم ابنها في المهد.. لا أحد يصدق هذه القصة الخرافية.. لقد أزعجوا سيادتك بلا مبرر..

كان المحقق الروماني يحسن بالبؤس لأنّه ترك روما وجاء إلى فلسطين وأدرك أن القضية التي جاء يسعى وراء خيوطها تكشف عن أوهام، أقنعته كلمات الكاهن اليهودي فقد كانت - بمنطقه

المعتاد - صحيحة، وانتشر خبر المحقق وتسامع به الناس وأوصى بعضهم ببعضًا أن يخفوا تماماً قصة المسيح الذي ولد بكلمة من الله، وتكلم بعد ساعات من ولادته.. كان هذا أكثر أماناً في الظروف القاسية يومئذ.. وأنكر جميع الناس ما شاهدوه بأعينهم وسمعوا بهاؤهم.. وحمل المحقق أوراقه وعاد راضياً إلى روما..
اختفى المحقق ولم أعد أراه..

بعد اختفاء المحقق بيومين ظهرت مريم، كانت تحمل ابنها وتسير في ظلمة الليل وهي تتوقف كل خطوات وتتلفت حولها.. وظهر لها ملاك الرب.. أمرها أن تسفر إلى مصر.. أبدت مخاوفها من وحشة الطريق ورعبه الخروج فطمأنها الملاك وأفهمها أن كل أصحاب الرسالات يخرجون من ديارهم فترة..

وهكذا خرجت مريم واحتفت أخبارها عني سنوات.. أحببت مصر بقدر ما أحببت مريم وبابها آية الله.. كنت أعرف أن طين مصر قد حنا عليها وأواهها، وكنت أحس أن أرض مصر أحبتها بمقدار ما أحببتهما..

ومرت سنوات.. وبلغ المجتمع اليهودي قمة نفاقه.. كان هناك شكل خارجي تتم المحافظة عليه، وحقيقة داخلية تهدرها التصرفات تماماً.. كانت الشريعة مطبقة تطبيقاً حرفاً جاماً وحوها آلاف السياجات، وكان الظلم قانوناً سائداً في الحياة، وكانت هناك سبع درجات للطهارة، وستة وعشرون صلاة ينبغي تلاوتها أثناء غسل الأيدي قبل تناول الطعام، ولم يكن في المجتمع كله ظاهرون بحق، كما كانت الصلاة قد تحولت إلى طقوس.. أفرغت من محتواها كاتصال بالله، كان الكهنة يرثشون، ويغيرون في كلمات التوراة، يخفون بعضها ويظهرون البعض، وكان كهنة المعبد يبيعون كفارات الذنوب من الحمام والطير بأسعار مرتفعة يثرون منها على حساب المصلين الفقراء، وساد المجتمع كله لون من ألوان البغاء الفكري، وفسدت الروسوس فيه ففسد الجسد..
وكان هناك تشديد ظاهري في تطبيق نصوص الشريعة، يقابلها تسبيب مخيف في رعاية روح الشريعة..

وهكذا التأمت قشرة المجتمع اليهودي على نظام بشري قد ثبراً تماماً من الداخل.. ووسط هذا الجو عاد عيسى من مصر، وبعثه الله إلى الناس.. كانت القيمة الوحيدة المعبودة في هذا الوقت هي الذهب.. أو النقود بصفة عامة.. أما الروح فقد ألغى من قاموس القيم، حتى ظن اليهود أن دم المخلوق هو روحه..
كان عيسى بشراً جاء بكلمة من الله.. وروح منه..
وكان هدف دعوته إعلاء كلمة الله وروح الشريعة الحقيقة.

وكانت معجزاته كلها تتصل بالروح..
كان يحيي الموتى.. أليس هذا إعادة لروح من مات وإثبات لوجود الروح وجود البعث..
كانت معجزاته معنى أنا الطين أيضاً تتصل بالروح..
أراد عيسى عليه السلام أن يحيط فكرة الحياة الجسدية كفكرة علياً للحياة.

ولهذا كان يطعم الآلاف من سمة واحدة.. وكان يريد أن يقول للناس إن وجود الروح لازم لملء خيمة الجسد، وإن الخيمة لا يصيبها الجشع إلا إذا غاب عنها الوعي بالروح، فإذا ملأ الروح الجسد شبع الآلاف من سمة واحدة.

ثم جاء دوري ..

كان الناس يتصورون أن المرء إذا مات وعاد لطين الأرض لم يعد هناك من يقدر على بعثه.. انتهى الأمر وضاعت الروح مع الدم وذهبت حين ذهب..

كان الناس يحدثون عيسى بهذا.. وكان يسمع جهل الجاهلين فلا يتغير وجهه، وذات يوم جلس عيسى جوار شجرة الورد.. والتف حوله جموع هائل.. كانوا يحدثونه في الروح، ويبدون شكوكهم حول القيمة التي يتصورها عيسى للروح..

نظر عيسى حوله ثم انحنى على الأرض، أمسك بيديه الكريمين قطعة من الطين هي أنا.. ارتفعت عن الأرض للمرة الأولى في حياتي.. راح عيسى يستمع إلى كلماتهم وهو يضغط علىّ.. كنت أحس أن ضغطاته تملؤني بشيء جديد.. رفع عيسى يده بقطعة الطين وسأل من حوله:

□ ما هذه؟

قال الناس: هذه قطعة من طين الأرض..

سأله عيسى: هل تستطيع هذه القطعة الطينية أن تطير في السماء؟.

أجابوا: لا تستطيع!! سأ لهم لماذا؟ صمتوا فلم يجيبوه.. قال عيسى: لأنها تخلي من الروح.. لو صنعت منها طيراً كالبلبل.. لو نفخت فيها سائلاً الله أن يولد فيها الروح.. ألا تطير عندئذ؟..

كان عيسى يتحدث وهو يصنع مني كهيئة الطير حتى إذا انتهى نفح في جسدي فتحولت إلى ببل.. طرت بعيداً وأنا أنظر إلى عيسى والجمع المتحشد حوله..

أنشأت أغنى.. هزت أجنبتي ومضيت أطير.. أي متعة أن يكون المرء طيراً يستطيع الصعود عمودياً في السماء..

كان عيسى يتحدث وأنا أبتعد..

أطير إلى مريم.. أريد أن أغنى عند أقدامها طويلاً.. المشهد يصغر كلما ارتفعت في السماء..

يا إلهي.. أني أرتفع في السماء أكثر..



فِيلٌ أَبْرَهَةٌ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفَيْلِ﴾.

(سورة الفيل - آية ١)

في الكتلة شيء مهيب يعلو على النقاش، كتلة الحجارة أو الصخور أو اللحم الحيواني، وحين تتبدى هذه المهابة أمام المخلوقات الأصغر، تنكمش الأحجام الصغيرة مستجيبة لغريزة حب البقاء.. وليس في ضخامة الفيل على الأرض حيوان، ولست مزهوا لأنني ضخم، لا أنكر أن الرهو هو الذي يحرك أعطافي بالقوة، حين اندفع مهاجماً أدفع بكتلة الجسد كتلة مماثلة من الهواء.. ويرتد عدوي إلى الخلف مدفوعاً بقوة الهواء، يقهره الهواء قبل أن أقهره..

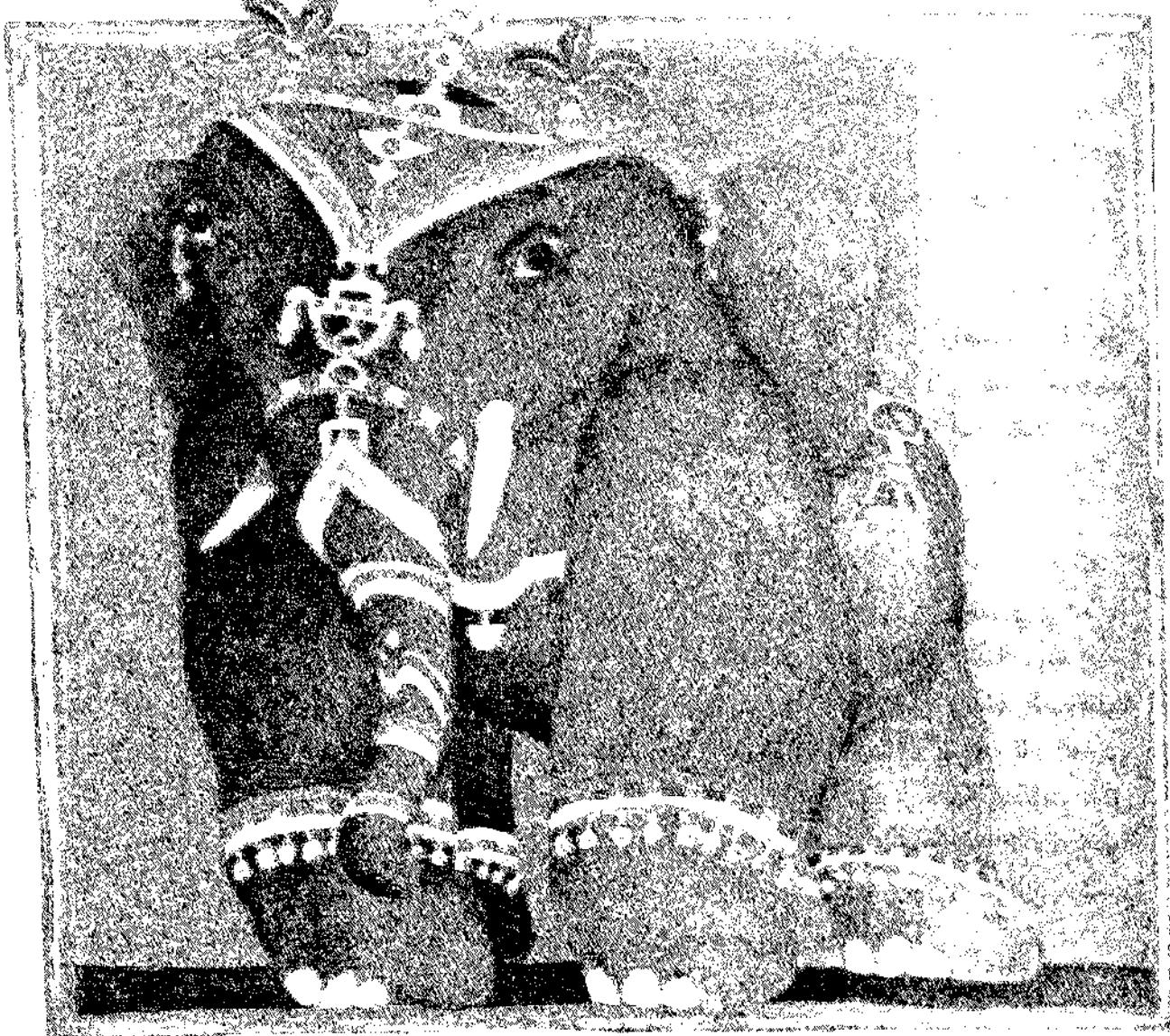
ما أعجب أحاسيس القوة، أي عقل بسيط مثل عقل الفيل لا بد أن تسکره القوة، ولقد عشت الجزء الأعظم من أيام حياتي خاصعاً لتأثير هذه القوة المسكراة، وحين سكرت صحوت.. لن أسبق الأحداث..

كان رأسني يدور نشوة حين تنحني أمامي أشجار الغابة وتتمزق أغصانها وهي تفسح الطريق لجمي الضخم، وكان رأسني يدور عنوية حين يشير الناس نحوي قائلين: فيل أبرهة.. أنظروا إلى قوته..

كانت قوتي أسطورة تحملها الرياح وتسبقي بها إلى الكائنات، وكان جيش أبرهة أسطورة بسبب هذه القوة.. أعرف أن اسم أبرهة سيدهب في التاريخ على علاته على الكراهية والعناد، وأعرف أنه أصغر من أن يذكر في كتاب الله، إنما يشير الله إليه فينسبه إلىي، يغفل اسمه ويذكر اسمي.. ﴿أَلَمْ ترَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفَيْلِ﴾.

أصحاب الفيل المشار إليهم هو النظام الحاكم لأبرهة، وأنا الفيل الذي يتسبون إليه.. أرأيت كيف ينسب الله تعالى بشراً لحيوان.. إن هذا يعني أن الحيوان أعلى مرتبة، ولا ريب أنني أفضل من أبرهة..

كان هو إنساناً كافراً وكنت حيواناً على الفطرة، والإنسان أعلى مراتب الخلقة في الأرض،



ولكنه حين يكفر بالله يفقد مزيته ويصير الحيوان أفضل منه وأكرم.. بل إن تراب الأرض يفضله عندئذ..

لا أريد أن أسخر من القوة..

كان أبرهة ملكاً يجلس على عرش صنعه الخوف والذهب، وخلفه يقف عشرات العبيد وهم يحركون الماء بمراوح من ريش النعام.. وأمامه ينحني كل شيء.. هامات الرجال ونفوس الشعب وأعلام الجيش..

أنا الوحيد الذي لم يكن ينحني أمامه..

رفضت أن أفعل.. ضربوني بالسياط عاماً كاماً لأنحني أمامه ولكنني رفضت.. لم أكن أعاده، ولا كنت أتحداه، وإن تصور بتعقيله أنني أتحداه، كل ما في الأمر أنني كنت أستجيب لفطري في الحرية.. لقد خلقني الله لتنحنى أغصان الأشجار لي.. لا لأنحني أنا أمم الملوك.. لم تعلمني الغابة أن أنحني لأحد..

كانت طفولتي جنة من البراءة

اذكر حليماً لأشجار ملتفة وأعشاب طويلة وعشرات من بيوت النمل.. هذه طفولتي في احدى غابات أفريقيا.. وهذا هو حلمي في نفس الوقت.. كنت ابنا لفيل أبسط أعماله أنه اقتلع أضخم أشجار الغابة.. كان أبي يجري فاصطدم بالشجرة.. عاد للخلف وفرد أذنيه الضخمتين وارتفع ذيله من الغضب وثنى زلومته لأعلى واندفع بسرعة الريح نحو الشجرة.. غرز نابه العاجي كالسكين في لحمها الخشبي، ولف حوالها زلومته وضرب الشجرة لأعلى فانخلعت بصوت هائل وانتزعت من الأرض كتلة طينية تضم جذورها العائرة وخرج الماء من الحفرة التي كانت تحتلها جذور الشجرة، وجاءت أمي تجري على الصوت، أمرها أن تستحم في مياه الحفرة التي صنعتها قوته.. وكانت الشجرة الصريعة تنظر إلى أمي بلحائها المكفر واستسلامها المكسور..

كان أبي ملكاً على الغابة بلا منازع..

حتى الأسود كانت تخشى أبي.. وكانت أنا الوحيد الذي لا يخشى.. كنت أحس أن كتلي الصغيرة هي الصورة المتطورة لكتلته الضخمة، وكانت أعرف أن قوته حين تنحدر للشيخوخة ستولد في جسدي بشكل ما، وكان أبي يهز كل شيء وينهزم أمامي ضاحكاً متضاحكاً وهو سعيد.. ثم مات أبي ذات يوم..

كان يعرف أنه سيموت.. وقبل أن يبدأ رحلته نحو مقبرة الفيلة استدعاني وقال لي: ابني راحل ولن أعود..

سألته: لماذا لن تعود؟.. قال: دعك من الأسئلة السخيفة.. افهمني الآن فربما لا أحدهك بعد اليوم.. انصت إلى كلماتي جيداً.. قلت له: إنني أسمعك يا أبي.. مزاجك اليوم معتركر.. قال: هذه عکارة النهاية.. إن قوي تسرب مني.. ولقد عشت فيلاً شريفاً ومت فيلاً شريفاً.. قلت له: لا أفهمك يا أبي.. قال لم أوظف قوي في خدمة قوة ظالمة.. هذا هو الشرف عندنا.. قال: لم أظلم أحداً.. لم أضرب أحداً.. لم أقتل شجرة بلا سبب.. إلا أن تعترضني أو تعترض



طريقـي .. أنا مطمئـن على نفسي .. لكنـي رأـيـت حـلـمـاً غـرـبيـاً عـنـكـ بالـأـمـسـ، لا تـسـأـلـنـي ما هوـ الحـلـمـ .. فـقـطـ تـذـكـرـ هـذـهـ الـكـلـمـاتـ .. سـتـجـيـءـ عـلـيـكـ لـحـظـةـ يـجـبـ عـلـيـكـ فـيـهاـ أـنـ تـخـتـارـ ..

إـذـاـ صـادـفـتـ هـذـهـ الـلـحـظـةـ فـلـيـكـ الشـرـفـ هـوـ اـخـتـيـارـكـ.

قـلـتـ لـهـ: لـاـ أـفـهـمـكـ يـاـ أـبـيـ .. مـاـ هـوـ الـحـلـمـ الـذـيـ رـأـيـتـهـ؟ـ

قـالـ: لـاـ يـهـمـ أـنـ تـفـهـمـنـيـ .. المـهـمـ أـنـ تـذـكـرـ كـلـمـاتـ هـذـهـ ذاتـ يـوـمـ ..

استـدـارـ أـبـيـ وـانـدـفـعـ فـيـ ظـلـامـ الـغـابـةـ .. مـنـ يـوـمـهـاـ لـمـ يـعـدـ ..

ماتـ أـبـيـ وـصـرـتـ مـلـكـاـ مـتـوجـاـ عـلـىـ الـغـابـةـ، وـنـسـيـتـ وـصـيـتـهـ فـيـ زـحـامـ الـحـيـاةـ وـزـهـوـ الـقـوـةـ ..

وـمـرـتـ بـيـ الـأـيـامـ سـكـرـىـ بـالـأـنـتـصـارـاتـ حـافـلـةـ بـالـصـرـاعـ.

ثـمـ جـاءـ يـوـمـ .. وـهـبـطـ الـغـابـةـ بـشـرـ ضـئـيلـ الـحـجـمـ بـارـدـ السـحـنـةـ غـبـيـ الـمـلـامـحـ .. وـرـاحـواـ يـحـفـرونـ

الـأـرـضـ وـيـسـوـونـهـا .. وـلـمـ نـفـهـمـ نـحـنـ الـفـيـلـةـ شـيـئـاً .. وـوـسـطـ عـهـمـ الـفـهـمـ تمـ اـصـطـيـادـنـا .. وـلـفـدـ أـدـرـكـتـ

يـوـمـذـاـنـ أـنـ اللـهـ قـدـ كـرـمـ عـلـيـنـاـ هـذـاـ الـمـخـلـوقـ الـضـعـيفـ الـمـسـمـيـ الـأـنـسـانـ ..

لـقـدـ حـفـرـواـ لـنـاـ أـرـضـ الـغـابـةـ وـغـطـوـهـاـ لـتـبـدوـ آـمـةـ، فـلـمـ سـرـتـ عـلـيـهـاـ هـوـيـتـ بـكـتـلـيـ الـضـخـمةـ

وـسـطـ فـخـ أـعـدـهـ لـيـ الـإـنـسـانـ ..

وـهـكـذـاـ تـمـ اـصـطـيـادـيـ ..

جـنـتـ فـيـ الـبـدـاـيـةـ .. رـحـتـ أـضـرـبـ الشـبـاكـ فـتـسـتـجـيـبـ لـضـربـاتـيـ وـتـمـددـ دـوـنـ أـنـ تـنـكـسـرـ .. ثـمـ

بـدـأـتـ رـحـلـةـ عـذـابـ طـوـيـلـةـ كـانـتـ نـهـاـيـتـهـ قـصـراـ غـرـبـيـاـ ..

فـيـ غـرـفـةـ بـنـيـتـ مـنـ الـحـجـارـةـ الـقـاسـيـةـ وـضـعـتـ .. وـجـاءـ فـيـ الـيـوـمـ الثـانـيـ رـجـلـ قـصـيرـ وـقـمـيـ عـوـلـهـ

جـنـدـ كـثـيـرـونـ وـوـزـرـاءـ كـالـخـدـمـ ..

كانوا ينحنيون له بمناسبة وبلا مناسبة، وحدثوه أن صيدي كان بفضل توجيهاته، وكانوا ينافقونه ويعظمونه ويعبدونه.. وأشاروا إلى وقال أحدهم: هذا أعظم فيل في الغابة، هذا ملك الغابة قد صار خادماً لأبرهه.. وجندياً في جيشه..

لم أفهم كيف أصبح جندياً في الجيش، ورفعت زلومتي وهويت بها على الهواء فشقته بصوت رائع، وتراجع أبرهه مثل طفل جبان وثار خدمه من الوزراء والقادة وارتقت السياط تهوى على جسدي.. قاومت في البداية وأعانني سمك جلدي ولكنني مع ازدياد الضرب وشدة بدماء أتوّجع.. وتراجعت قليلاً إلى الخلف..

قال أبرهه القميء: لا تضربوه.. الجوع أفضل من الضرب.. أدبوه بالجوع.. وانصرف فانصرفوا خلفه..

لم أفهم لماذا غضب الملك.. هل أغضبه أنني أظهرت جبئه أمام حاشيته التي تعبده.. ثم لماذا يجوعني هذا الفزم الذي يبدو أصغر من أنفي نفسه.. ان زلومتي أضخم منه وأكثر استدعاءً للهيبة.. لم أدرك مدى شروره إلا وسط أوجاع الجوع.. ان ضرب السياط أهون من لدع الجوع.. ابني حيوان لا بد أن يأكل طناً من الطعام كل يوم.. وحين جمعت أصبحت موظفاً عند أبرهه.. قتلتني الجوع فتعلمت الجن.. كنت أرفع زلومتي حين أراه.. علموني كيف أحبي الطاغية بالجوع.. عليهم وعليه اللعنة..

تعلمت من الجوع ما لم أتعلم من ضرب السوط..

كنت في الغابة حراً لا تخضع لقمة عيشي لمشيئة أحد، وحين ضاعت حريري ضاعت معها كرامتي وضاعت مذاق لقمة العيش نفسه.. لا أنكر أن معظم مشاكل في الغابة كانت هي الصراع الذي لا يهدأ مع الكائنات والوحوش بهدف السيطرة على المكان والأخذ عليه.. ولا أنكر أن مشاكل في الحصول على الطعام كانت قائمة وواردة ولا أنكر أنني كنت أعياني وأقاسي، ولكن أي قدر من المعاناة يمكن احتماله في وجود الحرية، وأحياناً تضييع الحرية ويتتوفر الأمن والطعام، وتبدو كل مشاكل المخلوق وقد حللت إلى الأبد، فهل تظن الفيل منا يحس بالسعادة..

بعد تجربتي في السجن أدركت أن لا شيء يساوي الحرية، ولعلي أدركت شيئاً آخر، ان ضياع الحرية يعني ضياع القدرة على الحب، ويعني ضياع مذاق الخنزير الحقيقي، ساحكي لكم فيما بعد كيف اكتشفت هذين الاكتشافين، لا أريد أن أسبق الأحداث.. بدأ خدم أبرهه في سياسة تجويغ طويلة لقهر ارادتي على تنفيذ ما يريدونه.. كانوا يريدون كسر ارادتي وقد فعلوا..

درّبوني على تحية الملك.. وربطوا نصبي من الطعام بقدر استطاف الملك لحركات التحية، ودرّبوني على الهجوم على البشر، ودرّبوني على الهجوم على الحصون، ودرّبوني على تحطيم الحصون، وفي كل مرة كان حصولي على الطعام رهناً بتنفيذ الأوامر..

وبهذا الارتباط بين تنفيذ رغباتهم وحصولي على الطعام صرت موظفاً.. حين لم تعد أوامر تصدر إليّ من عالمي الداخلي، لم أعد بريئاً وحرجاً.. صرت قوة هائلة تخضع لعقل الغير.. وليس

هناك حدود لدناءة الغير إذا كفر بخالقه .. من أين لي أن أعلم أن هذا العقل الذي يصدر إلى الأوامر هو نفسه الأداة التي ستقودني إلى المأساة ..
بوضعي فيلاً لم أكن أعرف غير الهجوم والتحطيم، لم أكن أعرف وجه الحق في الهجوم من عدمه، ولا كنت أعرف هل يستحق المكان المطلوب تحطيمه التحطيم أم لا، إن الجندي لا يسأل لماذا يهجم، انه يسأل متى يهجم..
ولم يكن من حقي أن أسأله إذن ..

وهكذا قادني حظي العاشر إلى المأساة لأن السؤال كان ممتنعاً عليّ في الأصل .. ان مهمتي كفوة مسيرة أن أطيع، ولقد كانت مأساتي اني أطيع جباراً وأحق في نفس الوقت، أو أطيع أحمق جباراً في حقه، والاحمق والجبروت من الصفات التي تقود الى تحطيم المرء لنفسه ..
دعوني أذكر كيف بدأت القصة ..
إن بداية القصة هي نفسها بداية المأساة.

بدأت المأساة بخبر سمعه أبرهة ..
سمع أن العرب تعظم بناء يسمى الكعبة، وتحجج إليها، وساعده أن يقع ذلك فجمع وزراءه ومهندسيه وقال لهم :
- أريد أن أبي معبداً يحجج إليه العرب بدلاً من الكعبة ..
إنحني الوزراء وقالوا: سمعاً وطاعة ..
التفت أبرهة إلى كبير المهندسين يتظر قراره .. قال كبير المهندسين: يا مولاي .. نحن على استعداد لبناء معبد أكبر من الكعبة وأعظم .. ولكن المشكلة كلها أن العرب لا يحجون إلى الكعبة لأنها بناء عظيم ..
انتفضت أبرهة واقفاً وسأله: لماذا يحجون إلى الكعبة إذن؟.

قال كبير المهندسين: إن الكعبة بناء قائم في الصحراء .. والصحراء من بين كل الأمكنة التي خلقها الله هي العرى النظيف الذي لا يقبل أنصاف الحلول .. إنها تحرف من القلب كل النزوات والأوهام التي تسلم إلى التفكير الخاطئ ، وبهذا العرى يتحرر الإنسان من نفسه ويسلم نفسه إلى «كلي» مجرد لا صورة له .. «كلي» أبعد من كل ما هو بعيد، ومع ذلك فهو أقرب من كل ما هو قريب ..

قال أبرهة حانقاً: لا أفهمك أيها المهندس .. لماذا يحجون إلى الكعبة ..
قال كبير المهندسين: الكعبة يا مولاي هي أبسط أثر معماري في العالم .. إنها مجرد مكعب من الحجر، وقد عرف من بني الكعبة أن أي جمال في تناسق البناء أو كمال في خطوطه أو عظمة فيه لا يمكن أن يوفي الفكرة الإلهية حقها، وهكذا قصر نفسه على أبسط شكل يمكن أن يتصوره العقل .. مكعب من الحجارة ..

هذا المكعب البسيط رمز لضعة الإنسان وعجزه أمام الله .. هي رمز للتوحيد ..
صرخ أبرهة يقول: أيها المهندس .. لم تجب على سؤالي .. لماذا يحجون إلى الكعبة ..

قال المهندس بدهوء بالغ: هي رمز يا مولاي.. يقولون إنها رمز لبيت الله...
قال أبرهه بخث ودهاء: يقولون.. من الذي يقول.. هل تصدق أنت ما يقال؟.
تغير وجه كبير المهندسي وقال: ليست المشكلة هي التصديق أو التكذيب، المشكلة الهندسية
أن أي بناء معماري لا بد أن يحدد شيئاً أو يقول شيئاً أو يشير إلى شيء.. الكعبة هي البناء
المعماري الذي لا يفعل ذلك.. هي البناء المعماري الوحيد الذي يرمز للمطلق المجرد الكلي
الذي لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء.. والسؤال الآن يا مولاي.. ما الذي تزيد منا أن نقوله في
المعبد الجديد الذي انتويت إنشاعه ليحل مكان الكعبة..
أنت ترى يا مولاي أني أسأل سؤالاً هندسياً بحثاً.. وهذا السؤال يحتاج إلى إجابة.. وعلى
الإجابة يتوقف شكل عملنا في معبدهك المزمع إنشاؤه..
لم يكدر المهندس ينتهي من كلامه حتى وقع شيء غريب..

نهض أبرهه من كرسي العرش وهمس من بين أسنانه - خيانة في القصر.. هذا الكلام
خيانة.. اقبضوا على كبير المهندسين.. تقدم الحراس وأمسكوا كبير المهندسين.. كان وجهه متفقاً
ولكن لوناً من ألوان النبل الإنساني كان يشيع في صفحة الوجه الشاحب، عاد أبرهه يقول:
فضححتك كلماتك.. أنت تؤمن بالله الكعبة.. أنت لا تزيد بناء معبد يحتل مكانها.. اعترف..
حاول كبير المهندسين أن يرد ولكنه فتح فمه وفك لحظات ويدو أنه اقتنع أن أحداً لن
يفهمه فعاد يغلق فمه..

قال أبرهه صارخاً: اعترف.. اعترف أنك لا تؤمن بالآلهة التي نعبدها، قال المهندس وقد
قرر أن يتكلم أخيراً: مولاي.. أنا أؤمن بالوحدة الهندسية القائمة في الكون.. وبالنالي أؤمن بإله
واحد.. أنت أنت أنت أنت بذلك.. قال أبرهه: هذه خيانة.. ما الذي قادك إليها.. قال المهندس
مبلغ علمي في الهندسة..

قال أبرهه: سوف تنسى في أيام السجن الأولى كل علمك في الهندسة.. ضعوه مع الفيل
وجوعوا الفيل ودعوه يقتله.. وهكذا وصلني كبير المهندسين..

فوجئت أن باب حجري يفتح وفوجئت برجل يقدفونه تحت أقدامي.. تحركت في الغرفة
بدافع الفزع المbagت.. لكنني لم المس كبير المهندسين.. لم أفهم لماذا ألقوه إلي..
تأملني المهندس وزاد لونه شحوناً وهمس يقول: بسم الله خالق الحيوان والوحش..
لم يعجبني رأيه في شخصي كوحش.. رفعت خرطومي وكدت أهوي به على رأسه فأدقي
عظامه، ولكنني بدلاً من ذلك وجدت نفسني أضع خرطومي على المهندس بحنان بالغ.. أحبيته
فجأة.. لا أعرف لماذا ولا كيف.. فوجئت أن في صدره سلاماً لا نهائياً للرجل، وتأملت تعbir
عينيه وذكرت تعbir عيني أبي حين كان يحييش بالحان ويسقط خرطومه على رأسه ويحركه يميناً
ويسرة..

أدهشت حركتي كبير المهندسين فوضع يديه على خرطومي كأنه يحمي نفسه، وقع بعد ذلك

شيء أ عجب.. رفعت خرطومي ووضعته تحت جسده كوسادة ثم رفعته فجأة ووضعته على ظهري ..

كانت هذه أول مرة أضع فيها إنساناً على ظهري .. كان ظهري منطقة محمرة تماماً على البشر، هي منطقة من مناطق السيادة عند الفيلة، وأي فيل شريف ويحترم نفسه لا يسمح أن يركب الإنسان ظهره، ولكنني للمرة الأولى اكتشفت أن هناك شيئاً اسمه الحب، وأن للحب قوانينه القاهرة .. أحببت هذا الرجل مثل حبي لأبي .. وتذكرت وفاة أبي وفاض قلبي حناناً، وهكذا استقر المهندس على ظهري فرحت أتمشى به في الغرفة .. وفوجئ أبرهه بهذا المشهد ..

صرخ أبرهه حين شاهد كبير المهندسين يعتلي ظهري:

- هذا المهندس ساحر.. لقد سحر الفيل.. ضحك.. نحن نضحك في عالم الفيلة بأن نحرك آذاننا ونرفع ذيلنا.. ونفعل نفس الشيء في حالة الهجوم والغضب، فانظر كيف يرتبط الضحك والغضب عند الفيلة في مظهر تعبيري واحد..

جن جنون أبرهه حين رأى كبير المهندسين يعتلي ظهري، وسحبوه من ظهري ومضوا به .. وعوقيت بالجوع وضرب السياط لأنني استسلمت لسحر المهندس، ولم أفهم لماذا القوة إلى ولا فهمت لماذا يضربني بالسياط لأنني حملته، ان عقل الفيلة ليس كبيراً مثل جسمها الضخم، ولو كان عقلنا في ضخامة جسمنا لكان سادة الأرض، ولعلمنا الإنسان كيف نركب ظهره وببطشه ..

عرفت بعد يومين أن كبير المهندسين ألقى في السجن تهيداً لتعذيبه وقتله، وبدأ صغير المهندسين الذي احتل مكان كبير المهندسين يبني معبداً لأبرهه ليحج إلىه العرب بدلاً من الكعبة ..

كان صغير المهندسين رجلاً عملياً.. واقعياً.. متفهماً.. وحين ناقشه أبرهه فيها قاله كبير المهندسين قال: يا مولاي .. نحن عبيدك. أنت تأمر ونحن نطيع.. ماذا تريد.. جلالتك تريد معبداً يحج إليه العرب.. ما دام جلالتك قد أراد.. فعلينا التنفيذ.. سنبني لك معبداً لم يشيد مثله.. قد تكون تكاليف البناء كثيرة، وربما تكون أكثر من اللازم، ولكن الذهب يسيل من أطراف جلالتك.. بل ويكتفي رضاك.. هذا هو الذهب الأصلي..

انتهى صغير المهندسين من كلماته فانشرح صدر الملك انشاراً.. وأضاءت أسارير وجهه بنور الظلمة الغبية.. وعلى الفور بدأ بناء المعبد الجديد، كان أبرهه يغدق عليه، ولا يدخل في سبيله بشيء، وكان صغير المهندسين الذي صار كبير المهندسين الآن يشرف على البناء، وكان عنده صندوق صغير يملؤه له أبرهه بالذهب، فإذا انتهى ما في الصندوق أعاده المهندس لأبرهه للائه، ويبدو أن هذا المهندس كان عملياً واقعياً متفهماً فأغدق على من حوله فأغمض من حوله عيونهم عما يغدقه على نفسه..

ويبدأ البناء يرتفع وراح صندوق الذهب يقطع رحلته بين يد المهندس وقصر الملك.. حتى إذا تهراً، الصندوق من كثرة استعماله كان البناء قد انتهى ..

كان المعبد مبنياً من الحجارة المطعم بالفضة، وكانت مخاربيه من خشب الصندل المعطر..
وكانت أبوابه من الذهب الابريز البندقي الأحمر.. وانتظر أبرهه أن يحج الناس إلى معبده..
انتظر أبرهه طويلاً فلم يحج لمعبده أحد..

كان هناك سدنة للمعبد وكهنة له.. وكان السدنة والكهنة يطلقون في المعبد أنواع
البخور، وكانوا يعطرون جوه بأجمل العطور، وكان العطر الناعم لخشب الصندل يمتزج بأريح
البخور فيصنع جواً أسطوريًا يحمله الهواء وتصلني رائحته فأحس - أنا الفيل - أنني أعود لطفولتي
في الغابة.. إن للفجر في الغابات رائحة عجيبة، إن الأمطار المنمرة تغسل الشجر طوال الليل،
وللشجر رائحة خاصة حين يستحم في المطر ويحففه نور القمر أو ضوء الشمس..
وكنت أذكر طفولتي في الغابة ويلوح لي وجه أبي ووجه أمي.. وكان هذا الاحساس يوقف
داخلي لوناً من الحنان والقلق في نفس الوقت، إن ذكرياتي القديمة كانت هي حريري.. وكان
وعي بهذه الذكريات يوقف داخلي طعم السجن وادراسي بموت الحرية..
وكان هذا الاحساس يحزنني كثيراً، وأحزان الفيل أضخم من جسده أو هي مساوية
لوزنه..

ولقد كانت أحزاني ثقيلة مثل وزني..
ويبدو لي أنني لم أكن وحدي الحزين.. كان أبرهه حزيناً هو الآخر، مرت سنوات على
افتتاح المعبد ولم يدخله أحد من العرب.. ولا حج إلى عرب واحد.. وبدأ أبرهه يتحول من
الحزن إلى الغضب، ووقع حادث في المعبد فزاد غضب أبرهه..

دخل أحد البدو المعبد ذات يوم.. لم يكن أحد من الناس يعرف هذا البدوي.. ولكن
دخوله المعبد كان خبراً طيرته الألسنة لأبرهه، وانصرف البدوي من المعبد، وفوجيء كهنة المعبد
أن هذا الزائر قد قضى حاجته في المعبد..

لا أحد يعرف هل كان الفعل ارادياً هدفه احتقار أبرهه، أم أن الزائر فعل ما فعل بشكل
عفوي نتيجة اضطراره وغريته.. لا أحد يعرف حقيقة نوايا هذا الزائر البدوي المجهول، ولكن
أبرهه استحال إلى عاصفة حين بلغه الخبر.. حل أبرهه ما وقع على أنه احتقار له وتهين من شأن
معبده ورفض لفكرته.. وظل أبرهه يدور في قصره يومين وهو يهدد ويتوعّد ، وفي نهاية اليومين
أصدر قراره الخطير..

قال أبرهه: سوف أهدم الكعبة حتى لا يجد العرب أمامهم مفرأً من الحج إلى معبدك..
ونفخت أبواق الحرب..

بدأت أستعد للحرب..

كنت سعيداً لدرجة يستحيل على فيل مثيل أن يعبر عنها، ان التعبير عن المشاعر مشكلة عند
أهل الأدب، فما بال الفيلة، كنت سعيداً كأنني حر..
إنني أشكل القوة المدرعة للهجوم في جيش أبرهه.. ويتوقف على إدائي كل شيء.. أو

فلنلقي بتواضع إن أهم شيء يتوقف على هجومي واحتراقي .. وفي الحرب آكل ضعف ما آكله في السلام، كما أنني أشرب ضعف ما أشربه في أوقات السلام، كما أنني أستحم في الحرب أربع مرات كل يوم، ولا يتاح لي أن أستحم غير مرتين في غير أوقات الحرب لم يكن هذا مبعث سعادتي وحده ..

اعترف - كحيوان - إن امتلاء بطني يحمل لي سعادة قصوى وخدراً رائعاً، ولست وحدي في ذلك، كل أنواع الحيوان تسعد بالطعام وتكتسب بالجوع وبصيتها الجنون إذا استمر. كان هناك سبب آخر لسعادتي .. إن قدر الحرية الذي يمنعني لي في الحرب يفوق القدر المنوح لي في الأيام العاديّة .. باختصار.. الحرب عندنا موسم ..

أخرجوني من بيت الفيلة الكثيب الذي أسكن فيه، وأخرجوا بقية الفيلة التي تتبعني بوصفي القائد الأعلى لهم. وبدأ تدربنا على هدم بناء حجري قال المهندسون إنه يشبه الكعبة .. وضعوا السلسل الحديدية حول البناء وربطوا نهاية السلسلة في أجسام ثلاثة من الفيلة .. وبدأوا يضربون الفيلة بالسياط لكي تهدم المبني .. لم تستطع الفيلة أن تفعل .. وجاء دورى ..

كنت وحدي .. ربطوا السلسلة جيداً حولي وبدأت أشد .. في البداية شددت مرة فوجدت البناء ثابتاً في الأرض .. ولكنني عاودت الشد .. ضربوني بالسياط فاللفت لهم وتوقفت عن الشد ولوحت بخرطومي غاصباً فجرى الجميع من حولي .. كان خرطومي يشق الهواء ويمزقه، وروعهم غضبي فابتعدوا مسافة كافية، استنجدت بكل ما لدى من قوة حيوانية هائلة، واستنجدت بكل الغضب الجنون الذي ثار داخلي بسبب اهانتهم لي، واندفعت كالاعصار أشد السلسلة، وأزالت حلقاتها وتمددت وانهار البناء ..

هلل قادة الجيش وأصحابهم الفرح، وأضيئت المشاعل وأريقت الخمر المعتقة من الدنان وذهب قائد الجيش إلى أبرهة .. انحنى له وقال:
□ مولاي .. نجح الفيل العظيم في مهمته .. الجيش رهن اشارتك .. قال أبرهة: غداً نتحرك نحو الهدف الأصلي .. الكعبة.

أتبع لي خلال رحلة الجيش إلى بلاد العرب أن أرى أبرهة كثيراً وأن أدرس شخصيته عن كثب، كما أتبع لي - بوصفي جندياً في الجيش أن أتأمل القضية التي خرجنا نحارب من أجلها.رأي في أبرهة أنه كان جباراً بالغ القوة، كما كان طاغية شديد الحمق، والطغيان والحمق فوتان تكفي إحداهما لتدمير حاملها، ولهذا خيل إلى أن هذا الخروج المثير لأبرهة سيكون هو آخر خروج له ..

لا أعرف لماذا راودني هذا الاحساس .. أما القضية التي خرجنا نحارب من أجلها فكانت تخرج عن نطاق إدراكي كحيوان .. لم أكن طرفاً في الصراع بين أبرهة وما تبقى لديه من قوة العقل المدرك، لم أكن داخل رأسه والجنون ينتصر على العقل ويرجح فكرة هدم الكعبة .. أيضاً لم

أكن أعرف حتى هذه اللحظة ما هي الكعبة.. أو ما هي أهمية التعرض لها.. كل ما عرفته أن أبرهة أراد.. وإذا أراد الحاكم المطلق ساق أمته كالخراف وراءه نحو الملائكة.. لا لسبب إلا لأنه أراد..

يعلم الله أنني بريء..
أقسم بالله أنني بريء.. إنني أرفع خرطومي لأعلى وأصرخ معلولاً أنني بريء.. لا علاقة لي بفكرة هدم الكعبة، ومعلوماني كحيوان لا تتيح لي أن أدرك قداسة الكعبة..
يعلم الله أنني بريء.. ولكنني أريد - أمم التاريخ الحيواني والتاريخ الإنساني - أن أعلن براءتي.. إنني فيل دفعوه دفعاً هدم ما لا يعرف.. وساقوه سوقة لتحطيم ما لا يدرك..
لن أسبق الأحداث.. ولكنني لا بد أن أضع براءتي أمام أنظار الكون قبل أن أحكي المول الذي وقع..

بدأت رحلتنا بداية لطيفة.. كان الجو ربيعاً والجيش بديعاً والمقاومة صفر.. في هذا الوقت من أوقات التاريخ، كان جيش أبرهة - وسط جيوش الأرض هو أقواها بلا تردد..
اعتربنا جيوش قوم من اليمن والعرب، قبائل ساعدها أن يحاول أبرهة هدم الكعبة، ولكن هذه الجيوش ذات أمم قوتنا كما تذوب ورقة الشجر في جوف الفيل، وتم أسر واحد من أشراف اليمن اسمه ذو نفر حين تصدى بجيشه لأبرهة، وتم أسر نفيل بن حبيب الخثعمي وكان قد خرج لحرب أبرهة.. وهكذا أبسدت كل الجيوش التي اعتربتنا ونحن في طريقنا إلى مكة.. هذا إسم المدينة التي نتجه إليها..

مرة أخرى - أعلن براءتي من معرفة شيء عن مكة.. أريد أن يبدو الأمر واضحاً لأن هذا يفسر تصرفاتي فيها بعد..
أخيراً لاحت مكة عند الأفق..

وقفنا أخيراً عند أبواب مكة.
بعث أبرهة رسولاً إلى مكة يسأل عن سيد هذا البلد، وبلغه أن الملك لم يأت لحرفهم وإنما جاء هدم هذا البيت، فان لم يتعرضوا له فلا حاجة له في دمائهم، فإذا كان سيد البلد لا يريد الحرب فليحضر إلى الملك، وتم إبلاغ هذا لسيد مكة، وكان عبد المطلب.. وقال عبد المطلب لرسول أبرهة: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام.. وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، فإن يمنعه فهو بيته وحربه، وأن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه.. وانطلق الرسول مع عبد المطلب إلى أبرهة.

كان عبد المطلب وسيماً عظيم الهمية، لما رأه أبرهة أجله وأعظمه، وأكرمه عن أن يجلس تحته، وكروه أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه الثمين وأجلس معه عبد المطلب.. قال لترجمانه: سله ما حاجتك؟ قال عبد المطلب: حاجتي أن يرد على الملك مثي بغير أصابها لي.. قال أبرهة لترجمانه: قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتكم،

ثم قد زهدت فيك حين كلمتني . . أتكلمني في شيء يعبر أصيتها لك وتترك بيّناً هو دينك ودين آبائك وقد جئت لهدمه لا تكلمني فيه . . قال عبد المطلب: أني أنا رب الأبل، وإن للبيت رباً سيمنعه . .

قال أبرهة: ما كان ليمتنع مني . .

قال عبد المطلب: أنت وذاك . .

أمر أبرهة أن يردوا على عبد المطلب ما أخذوه من أبله وصرفه فعاد عبد المطلب إلى مكة .

قال لقومه: اهجروا مكة . . شاهدت جيشاً لا قدرة لأحد على مقاومته . . اخرجوا إلى

شعياب الجبال فادعوا الله أن يمنع بيته

قال عبد المطلب كلمته وانخرط في البكاء . .

نهض إلى باب الكعبة وأمسك بحلقة الباب ومعه نفر من مؤمني قريش وراحوا يدعون الله ويستنصرونه .

قال عبد المطلب وهو يشد قبضته على حلقة الباب ويزداد ارتعاشاً اللهم إن العبد يمنع رحله فامنعني رحالك . .

انصرف الجميع من الكعبة . . وأخلت مكة تماماً فلم يعد فيها مخلوق ووقف أبرهة أمام جيشه الجبار وهو يواجه مكة وقال غداً في الصباح نبدأ الهجوم . .

جاء الصباح المشؤوم أخيراً . .

تفتحت أبواب الحرب وتحرك الجيش . . كانت مهمتي تأتي بعد حركة الجيش كان المفروض أن يطوق الجيش مكة حتى لا يفاجئنا أهلها بأي هجوم . . ثم اندفع كالاعصار فأدخل مكة وأني مهمتي في تحطيم الكعبة . .

كان هذا هو المقدر المحسوب . . ثم فوجئت حين صدر إليّ أمر الهجوم أني لا أستطيع . . في البداية . . انكشف الغيب داخلي عن معنى وصبة أبي . .

□ قال: ستجيء عليك لحظة يتبعين عليك فيها أن تختر فال يكن الشرف هو اختيارك، وعيت فجأة أني في مهمة ليست شريفة على المستوى الكوني . . وهذا هو المستوى الوحيد الذي تخضع لبداهته أنواع الحيوان والنبات . .

وبدأت أرتعش من الخوف . . كان الخوف يلمل جسدي كله بالعرق . . وكانت عظامي ترتعش من هول مجهول يخفي ويله الويل في خفائه . . بركت على الأرض . . صدر إليّ أمر الهجوم فبركت . . حسني حابس لا أستطيع أن أتحدث عنه، فوجئت أنه يقف جواري مباشرة . .

وثمة صوت مهموس وأمر يصدر منه . . لا تتحرك من مكانك إلا لتهرب، أنت حبيس لهذا المكان .

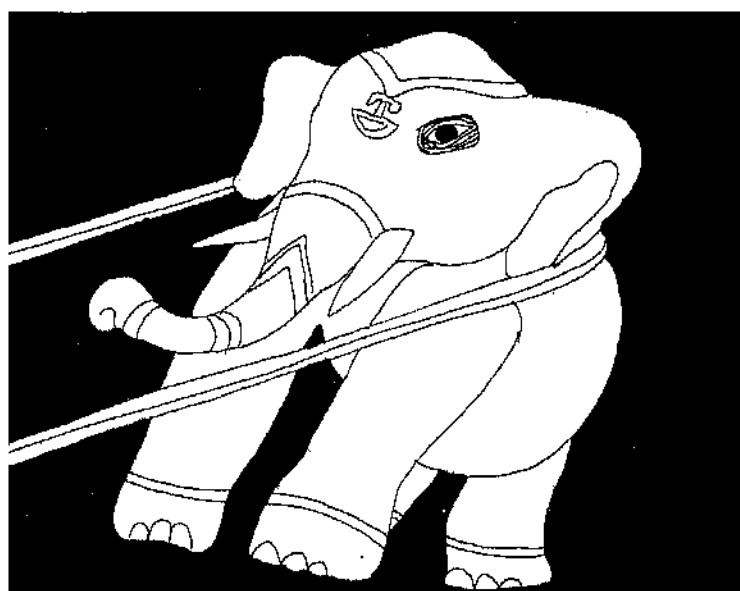
عاودتني ارتعاشة أشد . . قلت للصوت الآخر: سيدى الملائكة الكريم أني بريء من كل شيء . . سوف أهرب حين تأذن لي . .

انهالت السياط على جسدي تستحثني لأنهض.. تللت ولكنني كنت أرقب آلامي كأنني
أشاهد فيلمًا سينمائيًّا لفيلم يتألم.. كان كل شيء يتعد عني ويتجري من أمامي ويسرع.. كان
الملوء الذي أعيشه داخلي كفيلاً بتصريف عن أي ألم دنيوي.. قلت للصوت الأمر اني بريء.. لا
علاقة لي بما يحدث.. لن أتحرك من هذا المكان.. لقد بركت وانتهى الأمر.. صرخ أبرهة ماذا
يحدث.. ولماذا لا تتقدم الفيلة.. قال قادته: برث الفيل الكبير فجأة، وهو يرفض أن ينهض أو
يتتحرك.. صرخ أبرهة: أرغمه على النبوض والهجوم.. اقتلوه ضرباً لينهض..

كنت أسمع أبرهة كأنني أسمع تسجيلاً على الفيديو لكلام لا يهمني البتة.. انهالت السياط على
جسدي وانهالت السيوف في غدمها على رأسي لأنهض ولكنني تشبث بالأرض وانخرطت في صلاة
كونية تحدث فيها خالق الكون والملائكة.. قلت له: ابني بريء يارب.. لا علاقة لي بما يقع..
لقد صدر إليَّ الأمر أن أحبس نفسي هنا.. وقد فعلت.. ساعدني على الهرب يا رب.. اسودت
السماء فجأة فرفعت رأسي ونظرت.. كان قرص الشمس محظوظاً بأعداد لا نهاية من الطير
الأبابيل..

شاهدت في نفس الوقت ملائكة العذاب.. نهضت من مكانني واستدرت أعدو نحو
الصحراء..

يحب أن أفر بتضي من هذا المكان على الفور..



الطَّيْرُ الْأَبَيْلُ

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طِيرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سَجْنِنِنَا، فَجَعَلْنَاهُمْ كَعَصْفِ مَأْكُولٍ ﴾ .

(سورة العنكبوت - آية ٣ - ٥)

إذا كانت الوداعة هي صفة المخلوقات المرئية في الكون فإن الرعب المهوول هو صفة الخلائق الخفية.. لن أصرح بأكثر من هذه العبارة.. ليس مسموحاً لي أن أحدث عن ذاتي، وفي حقيقتي سر لو انكشف لمخلوق، لتجمد دم المخلوق وانهار وجوده من الخوف.

إنني واحد من الطير الأبابيل.. قائد الاتصال بين الأجنحة الستة للجيش الثامن من هذه الطيور.. عدد الجيوش سر.. عدد أفراد الجيش الثامن سر هو الآخر.. لا نخرج إلا بأمره تعالى، لن أصرح بعدد المهام التي خرجنا فيها، هذا شأنه سبحانه (وكل يوم هو في شأن) .. كل ما أستطيع قوله إن هذه المهام مسجلة ومعروفة لرب العالمين.. أما الخلائق فيبينا وبينهم ستائر مسدلة وحجب كثيفة، وهذا من رحمة الله بعباده..
مهمنا صرح الحق عز وجل بذلك في كتابه الأخير للبشر الفانين.

المهمة الأولى: ضرب مدن لوط.
قال تعالى (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَّهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سَجْنِنَا مَسْوِةً عَنْ رِبَكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ) ..

وفي هذه المهمة لم يذكرنا الله تعالى بالاسم في سياق الآيات.. المهمة الثانية التي ذكرنا الله تعالى فيها بالإسم.. كانت ضرب أصحاب الفيل.. قال تعالى (أَلمْ ترَ كِيفَ فَعَلَ رَبُكَ بِأَصْحَابِ الْفَيْلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طِيرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سَجْنِنَا فَجَعَلْنَاهُمْ كَعَصْفِ مَأْكُولٍ) ..
وصلني الأمر أول واحد..

صرخت فاجتمع الجيش.. أرعدت صرختي قلب أبعد النجوم فارتعدت ذراتها من الشؤم،



وتحمّلت الدماء في عروق الجبال وكللت هاماتها بثلاج الموت الأبيض، وسرى في الجو كله تيار رعب غامض مروع. بعد صرختي بجزءٍ على مليون جزء من الثانية، كان الجيش الثامن كله قد خط فوق أغصان الخوف وأشجار الرعب ووحشة الخراب والخلاء، سأله قائد الطيور: من يستدعيانا من أعماق الجحيم؟.

قلت: هذه مشيئة الله.

سجدت الطيور رعباً وهي عمق الرعب الرعيب في الأصل..

قال قائد الطيور: ما هي مهمتنا؟.

قلت: ضرب جيش يتجه لدم الكعبة.

أخذت الطيور مناقيرها وغمستها في الجحيم.. غاصت فيه بمناقيرها وعادت بحجارة من سجيل.. في نفس الوقت تم تصوير الجيش المهاجم وتم تقدير القوة اللازمـة لتدميره.. ومنح كل واحد من الطير الأبابيل قوة تكفي لتدمير جيش أبـرهـة واصطفت تشـكـيلـاتـنا في الجـحـيمـ ثم خرجـت بلا صـوتـ نحوـ العـدوـ..

كان جـيشـ أـبـرـهـةـ يعتمدـ علىـ المـشـاةـ وـالـفـرـسـانـ وـالـمـدـرـعـاتـ..ـ أماـ المـدـرـعـاتـ فـهيـ الفـيـلـةـ..ـ أيـ أنـ جـيشـ أـبـرـهـةـ كانـ يـفتـقرـ إـلـىـ سـلاحـ الطـيـرانـ..ـ وـمـنـ هـاـ جـاءـتـ مـيـزـتـاـ الـأـوـلـىـ عـلـىـ جـيـشـهـ..ـ كـنـاـ فـيـ طـرـيقـنـاـ لـقـصـفـهـ مـنـ جـوـهـ.

لمـ تـكـنـ المـدـفعـيـةـ قـدـ اـكـتـشـفـتـ بـعـدـ..ـ كـمـاـ أـنـ المـدـفعـيـةـ لـاـ تـؤـثـرـ فـيـنـاـ..ـ كـنـاـ فـيـ طـرـيقـنـاـ لـقـصـفـهـ بـحـجـارـةـ مـنـ سـجـيلـ..ـ

هذه الحـجـارـةـ سـرـ رـهـيـبـ سـافـسـحـ النـقـابـ عنـ طـرـفـ مـنـهـ لـكـنـيـ لـنـ أـرـيدـ السـرـ غـيرـ خـفـاءـ وـتـعـمـيـةـ..ـ بـعـدـ قـرـونـ مـنـ ضـرـبـنـاـ لـأـبـرـهـةـ،ـ سـيـكـشـفـ الـبـشـرـ سـرـ الطـاـقةـ الـكـامـنـةـ فـيـ النـوـاءـ..ـ وـسـيـخـتـرـعـونـ قـنـابـلـ يـنـسـبـوـنـاـ إـلـىـ الطـاـقةـ النـوـوـيـةـ..ـ وـسـيـكـوـنـ هـذـهـ القـنـابـلـ قـدـرـةـ تـدـمـيرـيـةـ لـيـسـ لـلـأـسـلـحـةـ التـقـليـدـيـةـ،ـ هـذـهـ القـوـةـ النـوـوـيـةـ تـبـدوـ جـوـارـ الحـجـارـةـ الـقـادـمـةـ مـنـ سـجـيلـ لـعـبـةـ أـطـفـالـ أـبـرـيـاءـ..ـ أـوـ عـبـثـ صـبـيـانـ أـغـرـارـ..ـ هـذـاـ كـلـ مـاـ أـسـتـطـعـ الـفـصـاحـ عـنـهـ بـالـنـسـبـةـ لـلـقـوـةـ التـدـمـيرـيـةـ الـتـيـ اـسـتـخـدـمـتـ مـعـ جـيـشـ أـبـرـهـةـ..ـ هـذـهـ آـخـرـ حدـودـ أـمـلـكـ الطـيـرانـ إـلـيـهـاـ مـنـ الـحـدـيـثـ..ـ لـاـ أـرـيدـ أـنـ أـطـيلـ فـيـ الـحـدـيـثـ،ـ كـانـ عـدـنـاـ هـائـلـاـ وـنـحـنـ نـقـضـنـ عـلـىـ جـيـشـ أـبـرـهـةـ..ـ كـنـتـ أـوـلـ مـنـ رـأـيـ سـلاحـ المـدـرـعـاتـ فـيـ جـيـشـ أـبـرـهـةـ..ـ كـانـ هـنـاكـ فـيـلـ ضـخمـ قـدـ بـرـكـ وـبـرـكـتـ وـرـاءـهـ فـيـلـةـ كـثـيـرـةـ،ـ وـاسـتـطـعـتـ أـنـ الـمـعـ اـرـتـعـاشـتـهـ رـغـمـ اـرـتـفـاعـيـ الـهـائـلـ،ـ عـرـفـتـ أـنـ يـرـتـعـشـ مـنـ ذـبـلـيـاتـ الـهـوـاءـ حـولـهـ..ـ كـانـ الـفـيـلـ بـارـكاـ ثـمـ نـهـضـ فـجـأـةـ وـانـطـلـقـ يـجـريـ نـحـوـ الصـحـراءـ مـحاـوـلـاـ أـنـ يـفـلـتـ بـجـلـدـهـ،ـ الـفـيـلـ أـوـلـ حـجـرـ مـنـ الجـحـيمـ وـسـطـ الـجـيـشـ..ـ انـفـجـرـ جـيـشـ أـبـرـهـةـ دـاـخـلـ نـفـسـهـ..ـ كـانـ الـانـفـجـارـ مـحـكـومـاـ بـحـيـزـ مـكـانـيـ مـعـينـ..ـ لـمـ يـكـنـ مـسـمـوـحـاـ لـلـقـوـةـ التـدـمـيرـيـةـ أـنـ تـنـفـجـرـ بـشـكـلـهـ الـطـبـيـعـيـ فـيـ الـمـنـطـقـةـ،ـ وـلـاـ كـانـ مـسـمـوـحـاـ لـهـ أـنـ تـرـفـعـ صـوـتـهـ وـهـيـ تـنـفـجـرـ..ـ كـانـ الـانـفـجـارـ بـلـاـ صـوـتـ وـكـانـ مـحـكـومـاـ بـجـيـشـ الـعـدـوـ فـقـطـ..ـ كـانـ الـانـفـجـارـ مـأـمـورـاـ لـأـحـرـاـ..ـ لـوـ تـرـكـ حـرـاـ لـدـمـ الـكـعـبـةـ وـالـمـنـطـقـةـ كـلـهـاـ إـلـىـ الـأـبـدـ وـلـاـسـتـحـالـ اـنـفـاذـهـ بـعـدـ ذـلـكـ..ـ

كان الانفجار صامتاً هو الآخر.. كان صوته يموت خوفاً قبل أن يولد.. وأسقطت بقية الطير الأبابيل ما تحمله في مناقيرها من عذاب الجحيم.. فيما بعد.. سيكتب المؤرخون أن أبرهة عاد ولحمه يتتساقط في الطريق قطعة بعد قطعة.. هذا الوصف ليس دقيقاً.. الصحيح أن جيش أبرهة تحول إلى عصف مأكول.. وهذه صورة لطعام هضمته البهائم وقضت حاجتها وعصفت الشمس والرياح بما بقي من آثار.. وهبت الرياح تكتنس ما بقي من جيش أبرهة.



عَنْكِبُوتُ الْغَارِ

﴿أَلَا تَتَسْرُّوْ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزُنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَإِنَّ اللَّهَ سَكِينَةٌ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ بِجُنُودِ لَمْ تَرُوهَا وَجَعَلَ كَلْمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلْمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلَى وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

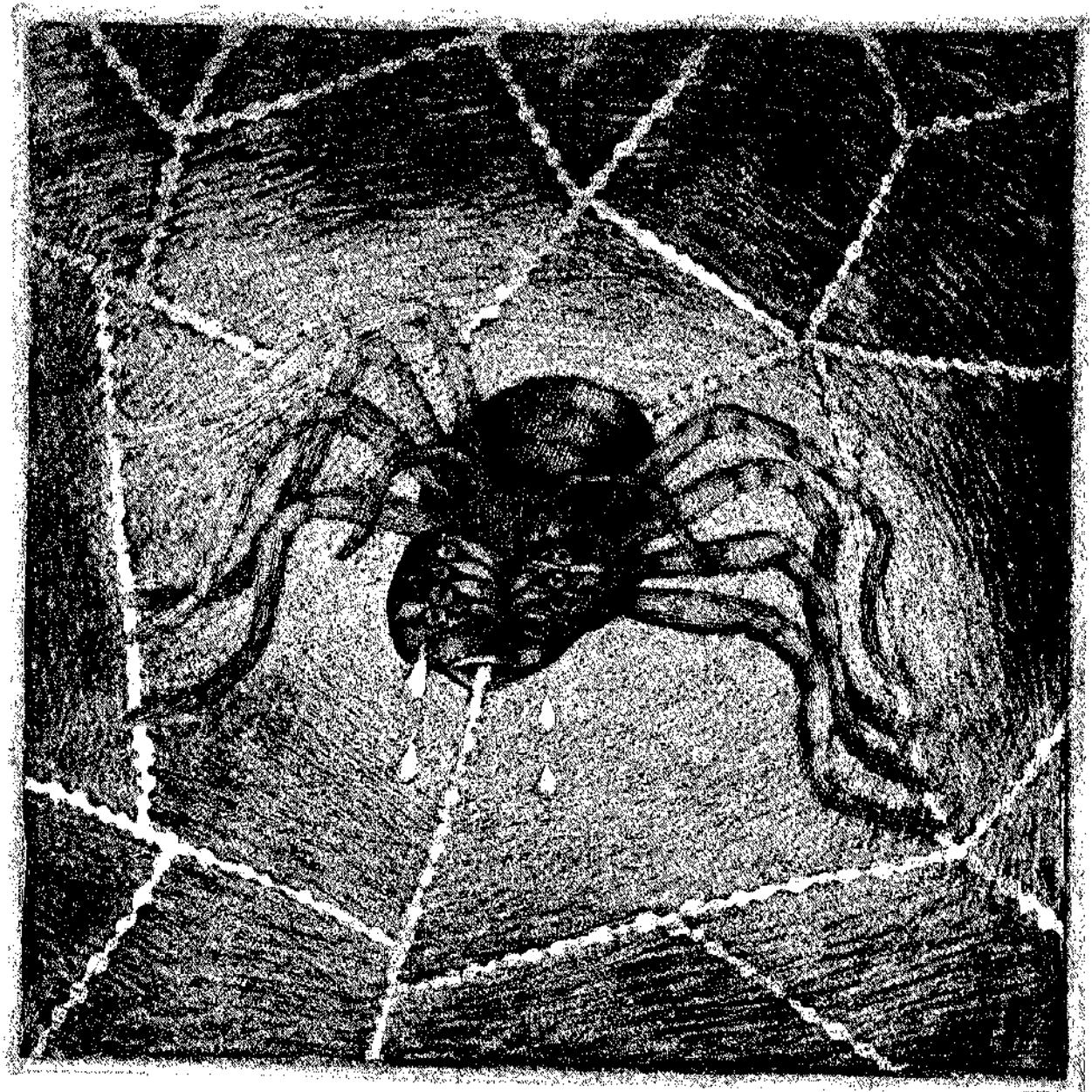
(سورة التوبه - آية ٤٠)

أنا عنكبوت ولا كل العناكب.. لو وضعتم عناكب الدنيا في كفة، لرجحت كفتي ولا فخر..
لست في مجال الادعاء والتفاخر.. إنما أذكر الحقائق.. لا أظن أنني أحتاج لتقديم نفسي إلى
القارئ.. فهمتم.. فهمتم انني عنكبوت الغار الذي اختبا فيه رسول الله ﷺ.. أنا المسؤولة عن
نجاة الرسول.. أنا التي حميته.. نسيجي رقيق هفاف تطيره أقل هبة من هبات الهواء، ورغم
هذا النسيج الضعيف.. وقفت أمام حديد السيوف الكافرة التي خرجت تطارد النبي، واستطعت
أن أهزها.. أسرر الصراع بين حرير العنكبوت الضعيف وحديد السيوف عن هزيمة الحديد..
انهزم الحديد أمام الحرير.. وجلست في بيتي الذي يضرب به المثل في الضعف.. ان أوهني
البيوت لبيت العنكبوت.. جلست في بيتي أحني بيت الاسلام الكبير وأحرس نبي الله محمد بن
عبد الله ﷺ.

ليس هذا فحسب ما وقع لي.. وقع لي ما هو أروع من ذلك، رأيت النبي.. أعرف أن
هذا النبي عندما يموت، سيقصد قبره الملايين للبكاء والدعاء.

وسيتصور كل واحد من الباكين الداعين صورة لرسول الله في عقله، أنا رأيته.. عشت معه
ثلاثة أيام.. عاش ضيقاً في حراستي ثلاثة أيام.. آه.. يدور قلبي حين أعود تذكر أيامه..
كانت أيام مهيبة.. كنت أحب - قبل أن أراه العناكب والطعام والحياة.. بعد أن رأيته لم أعد
أستطيع أن أحب سوى الحقيقة.. تغيرت بعد أن رأيته.. هل رأيتم عنكبوتًا تبكي قبلي، بكيت
أنا العنكبوت حين انتهت فترة ضيافي له وخرج من الغار قاصداً المدينة.. قلت له يا رسول الله
سوف أفتقدك..

لم يسمع ما قلته له عليه الصلاة والسلام.. عدت أقول له يا رسول الله أعطني يدك
أقبلها.. أو دعني أقبل طرف ثوبك.. لم يسمعني ومضى.. غير أنه وهو يخرج من الغار اضطر



أن يحطم بيقي الذي بنىته له.. لم أفهم لماذا فعل ذلك.. أحياناً أقول إنه كان لا بد أن يحطم بيقي لكي يخرج.. كان بيقي أنا باب الكهف.. وكان لا بد من فتح الباب.. ومد الرسول يده إلى بيقي وأزاح حرير البيت بطف..

حاولت أن أقرب منه لأقبل يده.. لم يلاحظ أنني أريد أن أقبل يده.. استردها قبل أن أنحنى عليها لتفقيلها.. وخرج.

وانكفت على الحرير المزق الذي كان بيقي وقلت: مس الحرير يد رسول الله قبلي.. وبكيت..

ظللت أبكي حتى ذاب بيتي في دموعي.. وعاد الغار كما كان.. أحكى قصتي من بدايتها.. أرجو أن يعذرني القارئ لأنني مضطربة..

كنت من عناكب الجبال.. وعنakin الجبال هي أتعس العناكب حظاً.. إن طعامنا الأساسي هو الذباب والمحشرات.. وقد ولدت في كهف مهجور في غار موحش في جبل ثور.. وهو جبل من جبال مكة.. ومكة مدينة صغيرة لم أرها في حياتي أبداً.. وأحياناً نسمع من الحمام وهو يطير تسبيحات نفهم منها أن هذا الحمام يعيش في حمى بيت الله في مكة.. وكنت أحاول أن أتصور شكل مكة أو منظر بيت الله فلا أستطيع.. كنت أعيش حبيسة في غار ثور.. وهو غار موحش أثناء النهار تخفف أثناء الليل، هو غار يقع جنوباً في اتجاه اليمن، ولا أحد يزورنا، حتى الوحوش تهرب من وحشة الجبل وتفضل عليه جباراً مأنوساً تضم غيرها من الخلائق.

باختصار.. كيف أنا سيدة هذا الجبل وملكته.. وجاء يوم..

كنت مدللة من سقف الغار في خيط من خيوط الحرير الذي صنعته.. وكانت الدنيا شديدة الحرارة، فرحت أورجح نفسي ذهاباً وإلياً في الغار.. ثم سمعت صوتاً لا يتنمي لهذه الأرض وهو يسأل:

- من يسكن هذا الغار من خلوقات الله.

انكشف الحجاب عنى وأدركت أنني أستمع لصوت سيد من الملائكة، أوقفت نفسي عن الانتظار وحننت جسمي كله وسجدت سجدة تحية..

رددت على الصوت الملائكي قائلة:

- تشرف بالحديث إليك عنكبوت الغار ميمي ابنة موما حفيدة مامو.

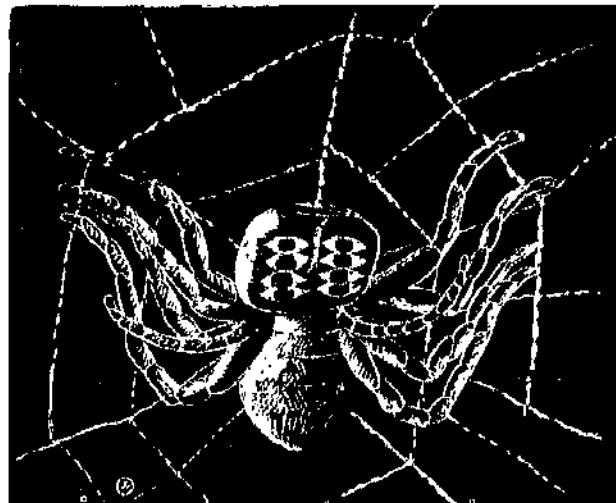
قال الصوت الملائكي: اخرجي إلى باب الغار..

حركت خيط الحرير إلى باب الغار وخرجت.

قال الصوت: بعد قليل، سيهبط الغار اثنان من رجال الله.. محمد صلوات الله عليه، وصاحبه في الدنيا والآخرة أبو بكر.

سألت - ولم أزل ساجدة -: من يكون محمد صلوات الله عليه.

قال الصوت: هذا آخر أنبياء الله في الأرض.. ورحمة الله التي أرسلها للعالمين.. أنت خادمته مع صاحبه ثلاثة أيام في الغار..



سألت ودهشتني تتعاظم - ما الذي يجيء به لهذا الغار الموحش.
قال الصوت: - خرج مهاجراً تطلب القبائل الكافرة دمه.. كم يلزمك من الوقت لبناء
بيتك على باب الكهف.
قلت وأنا أقيس الزوايا: أربع ساعات من العمل المتواصل الذي تتخلله فترتان من
الراحة..
قال الصوت الملائكي آمراً: اشتغل بغير راحة.. إن الله يكلفك بأمانة الحراسة..
وستودعك العناية الإلهية مصير الرسالة الخاتمة.. ومستقبل حضارة كاملة.
زاد سجودي وهمست - سمعاً وطاعة.
انصرف سيد الملائكة.. وناديت الصمت والوحشة والانقطاع أن يحضروا.. وبدأت
أعمل..

نظرت في غدي السبع التي تصنع الحرير.. الغدد مليئة.. تأملت باب الغار.. الباب
واسع.. رحت أقيس الزوايا وأحسب بسرعة من أي زاوية أبدأ.. سأحتاج إلى خمس دعائم صلبة
من الحرير.. وسنخرج منها ستة وعشرين خيطاً كدعائم تكميلية.. وسنحتاج إلى خمسة وتسعين
خيطاً لثبيت الجدران.. بدأت أصنع الحرير.. هذا النسيج الهفهاف أقوى من أي صلب يتحول
إلى خيط دقيق قطره واحد على ألف من البوصة.. هذا قطر خطيبي أنا العنكبوت.. لا يعرف
الناس أن العنكب تستطيع أن تقيس الزوايا وأن تقسمها، وأن تقدر متانة المواد وشدة الضغط،
 وأن تحسب حسابآلاف المشاكل الهندسية المعقدة التي تواجه عملية البناء.. لا يعرف الناس أن
العنكب تنسج ضرورياً من الحرير تقضي بها كل حاجة.. نستعمله شركاً ومائدة وفراشاً وملاعة

لف وجهاز انذار وطريقاً للفرار وقيداً وسبيلاً للانتقال ودرعاً للحماية أي أنها كعاكب نصنع أكثر المواد نفعاً وأكثرها تعددًا للنفع.

وما تفرزه عدد العنكبوت حرير ولا ريب كالحرير الذي تخرجه دودة القر، ولكن هناك فروق بين حرير دودة القر ونسيج العنكبوت. وهذه الفروق تجعل نسيج العنكبوت أفضل، فهو أرق وأنعم وأمن من أي حرير آخر.. فوجئت أن الرسول يدخل الغار مع أبي بكر.. توقفت عن العمل لحظة.. نظرت في وجهه البسيط المهيب الذي يشبه صفحة الذهب، وأحسست بخشوع عميق.. بعدها قلت له: أهلا بك ومرحبا يا رسول الله..

لم أكمل تعقيبي له حتى بدأت أنسج بيقي على باب الغار.. انحدرت انحداراً عمودياً من فتحة الغار إلى أرضه، وأنا أصنع خيط الحرير، ثم شدته وثبته في الأرض بمادة حمضية أفرزتها من غدي، ثم صعدت متسلقة بسرعة إلى باب الغار، ورحت أهبط وأرفع وأميل إلى اليمين واليسار وأنا أنسج بيقي.. انتهت النسيج في ثلات ساعات وست دقائق وعشرين ثانية.

وصل الكفار إلى باب الغار.. سيفهم اللامعة تقف وجهاً لوجه أمام حريري العنكبوتي..

قال أحد المشركين:

لو دخل هنا أحد، لم يكن نسيج العنكبوت على بابه..

ابتسمت داخل بيقي ابتسامةً واسعة.. قال أبو بكر للنبي بصوت خافت:

- لو نظر أحدهم تحت قدمه لرأينا..

قال رسول الله ﷺ - لا تخزن، إن الله معنا.

لم يكدر النبي يقول كلماته حتى امتلأ المكان بالملائكة فجأة.. امتلاً بصوت يقول:

﴿أَلَا تَنْصُرُونَهُ فَقَدْ نَصَرَ اللَّهَ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمْ فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحْبِهِ لَا تَحْزُنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيْدِيهِ بِجُنُودٍ لَمْ تُرُوْهَا وَجَعَلَ كَلْمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلْمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ أَعْزِيزُ حَكِيمٍ﴾.

لم يكدر ينتهي الصوت حتى امتلأ الغار فجأة حولي بالملائكة.. فوجئت بملائكة تقف أمام بيبي العنكبوتي وتقف خلفه.. سالت أقربيه لي.. ماذا حدث؟.. قال: جئنا بأمر الله نحمي نبيه الكريم.. قلت صارخة: ولكنني مكلفة بحمايته.. مكلفة بحراسته.. لماذا تكسرون قلبي.. لن يحرق أحد عليه.. انه ضيفي أنا.. خادمه أنا.. بكثي من فرط الانفعال فادهشني أنني أستطيع أن أبكي..

التفت إلى الرسول وأردت أن أشكوه.. رأيته مشغولاً بالصلوة.. كان يصليل وخلفه صاحبه أبو بكر..

وسجدت معهما حين سجدا..



مَوْضِعُ الْآيَاتِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

- ١ - وورد ذكر غراب أبي آدم في سورة المائدة.. آية رقم ٣١.
- ٢ - وورد ذكر ناقة صالح في سورة هود.. آية رقم ٦٤.
- ٣ - وورد ذكر طير ابراهيم في سورة البقرة.. آية رقم ٢٦٠.
- ٤ - وورد ذكر ذئب يوسف في سورة يوسف.. آية رقم ١٧.
- ٥ - وورد ذكر حوت يونس في سورة الصافات آية رقم ١٤٢.
- ٦ - وورد ذكر بقرة اسرائيل في سورة البقرة آية ٦٧.
- ٧ - وورد ذكر عصا موسى في سورة طه.. آية رقم ١٧ - ٢١.
- ٨ - وورد ذكر هدهد سليمان في سورة النمل.. آية رقم ٢٠.
- ٩ - وورد ذكر ثملة سليمان في سورة النمل .. آية رقم ١٧ - ١٨.
- ١٠ - وورد ذكر دابة الأرض في سورة سباء.. آية رقم ١٤.
- ١١ - وورد ذكر حمار عزير في سورة البقرة.. آيات رقم ٢٥٩.
- ١٢ - وورد ذكر كلب أهل الكهف في سورة الكهف .. آيات ١٨ - ١٢.
- ١٣ - وورد ذكر طين عيسى الذي تحول إلى طير في سورة المائدة.. آية رقم ١١٠.
- ١٤ - وورد ذكر الطير الأبابيل في سورة الفيل - آية رقم ٣.
- ١٥ - وورد ذكر فيل أبرهة في سورة الفيل .. آية رقم ١.
- ١٦ - ولم يرد ذكر عنكبوت الغار الا في السنة المطهرة.. رواه أحمد في المسند.

مِلْجَعُ الْكِتَابِ

لاعتقادي ان هذا الكتاب فن من لون معين، فقد استعنت فيه بنوعين من المراجع ..

(١) المراجع الدينية

- قصص الأنبياء في القرآن.
- تفسير القرطبي والمغار.

(٢) المراجع العلمية:

- موسوعة علمية من ثلاثة مجلدات لسبعة من علماء متاحف التاريخ الطبيعي في أمريكا. جورج جودوين، وشالز بوجرت، ودين إمادون، وتوماس جيليارد، وكريستوفر كوتيس، وجيمس أفر، وجون باليستر .. تحت اشراف فريديريك درير .. مطبعة جراري ستون. نيويورك.
- موي ديك - رائعة أدبية تأليف هرمان ملفيل.
- دنيا الحيتان لروي تشامبان اندروز ترجمة د. محمد صابر سليم.
- دنيا الحشرات لفردیناندلین ترجمة د. أحمد أبو النصر.
- عالم الطير في مصر د. أحمد محمد عبد الخالق.
- سلوك الحيوان د. أحمد حماد الحسيني.
- أضواء على قاع البحر د. أنور عبد العليم.
- الصيد في أفريقيا - فرانك هيбин.
- الطريق إلى مكة - محمد أسد (ليوبولد فايس).

الفهرس

صفحة

٧	مقدمة
١٦	(١) غراب ابني آدم
٢٨	(٢) ناقة صالح
٣٨	(٣) طير ابراهيم
٥١	(٤) ذئب يوسف
٦٤	(٥) حوت يونس
٨٤	(٦) بقرة بنى اسرائيل
٩٢	(٧) عصا موسى
١٢١	(٨) هدهد سليمان
١٣٨	(٩) نملة سليمان
١٤٨	(١٠) دابة الأرض
١٥٤	(١١) حمار عزير
١٦٦	(١٢) كلب أهل الكهف
١٧٨	(١٣) طين عيسى
١٩٠	(١٤) فيل أبرهة
٢٠٤	(١٥) الطير الأبابيل
٢٠٨	(١٦) عنكبوت الغار
٢١٤	(١٧) موضع الآيات في القرآن الكريم
٢١٥	(١٨) مراجع الكتاب

طباع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سفيون المصري - ت ٤٠٢٣٩٩١ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢)
بيروت : ص.ب. ٨٠٦٤ - هاتف . ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (١)



- يقدم لنا القرآن الكريم، في سياق قصص الأنبياء والأولياء، مجموعة من أفراد المملكة الحيوانية، التي أدت دوراً في التاريخ، كغراب ابني آدم، ونافقة صالح، وطير إبراهيم، وذئب يوسف، وحوت يوئس، وبقرة بنى إسرائيل، وعصا موسى، وهدهد سليمان، ونملة سليمان، ودابة الأرض، وحمار عزير، وكلب أهل الكهف، وطيين عيسى، وفيل أبرهة، والطير الأبابيل، وعنكبوت الغار.
- وعلى امتداد أربعة عشر قرناً، بقيت هذه المجموعة من قصص الحيوان متوارية في الظل .. حتى انحسر عليها الكاتب الإسلامي الفنان أحمد بهجت، فجعل من هذه المجموعة أبطالاً لكتابه هذا.
- يقدم المؤلف، في هذا الكتاب، تجربة فريدة من نوعها حين يكتب قصص الحيوان الذي ورد ذكره في القرآن، من وجهة نظر الحيوان ذاته، وبأسلوب المذكرات، ملتزمًا بالبناء الأصلي للقصة كما وردت في القرآن الكريم .. مستعينًا باخر ما وصل إليه العلم في تحديد سلوك الحيوان وطباعه .. مطلاً العنوان لفنه فيما بقي من مشاعر الحيوان وأحساسه ووجهة نظره.
- هذا الكتاب يُعد بحق أول مؤلف عن عالم الحيوان كما جاء في القرآن الكريم وهي ظل النبوات.
- كتب بأسلوب مدهش في رقته .. وفي سخريته .. نجح المؤلف أن يمزج بين الدين والعلم، في كتاب ممتع يدعوك للتفكير والتأمل .. وللضحك أحياناً .. وللبكاء أحياناً أخرى .. وللإيمان في كل الأحيانين.
- وقد سبق نشر بعض أجزاء من هذا الكتاب وحققت نجاحاً هائلاً بين القراء والتقاد .. حتى إنها ترجمت إلى الألمانية والفرنسية والإنجليزية .. وقرباً إلى لغات أخرى إن شاء الله.
- ويسر دار الشروق أن تقدم عصارة إيمان وفكر وإحساس كاتبنا الموهوب أحمد بهجت مزданة بلوحات الفنان المبدع إيهاب شاكر، وباخراج الفنان الكبير حلمي التونسي.

ابراهيم المعلم